محمد رضوان

أحمد زكى أبو شادى

شاعر الشفق الباكى

حياته وشعره وحكاية حبه المجهول



مكتبة جزيرة الورد

بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: أحمد زكى أبو شادى ـ شاعر الشفق الباكى

تأليف: محمد رضوان

رقم الايداع ٢٠١٧/١١٢٨٢

الترقيم الدولى / ٦-٠٠٠-٨٣٤-٩٧٧-٩٧٨

الطبعة الأولى ٢٠١٧



القاهرة: ٤ ميدان حليم - خلف بنك فيصل

شارع ٢٦ يوليو - من ميدان الأوبرا

٢٧٨٧٧٥٧٤ - ٠١٠٠٠٠٠٤٠٤٦

Tokoboko_5@yahoo.com

مصر الحبيبة جنة لا أشتهى		منها الخيار، فخيرها بجميعها

أهوي لها الإعزاز كيف تمثلت		بحياتها، وتصورت بصنيعها

إن كان عاقبني الزمان بغربتي		فلقد أفـاء عليّ حلم بديعها

أبوشادى

مقدمة

محمد رضوان ومشروعه الأدبي الكبير

بقلم الشاعرفاروق شوشة[1]

حين توفي الملاح التائه، شاعر الجندول، على محمود طه، في عام ١٩٤٩ عن ثمانية وأربعين عامًا، وقرأت نعيه في جريدة «الأهرام» داهمني حزن شديد، وشعور بالفقد المؤلم، لغياب شاعر بهرتني في صباي البعيد - فقد كنت في الثالثة عشرة - لغته الأنيقة المترفة، وخياله المقتحم المحلق، ومعانيه الجريئة المبتكرة.

كان شاعرا يختلف شعره عن المألوف والسائد، الذي عرفته عند شوقي وحافظ وإسماعيل صبري ومطران، ثم عند علي الجارم ومحمد الأسمر ومحمود غنيم، وكنت قد قرأت لهؤلاء جميعًا بنسب متفاوتة، في مكتبة البلدية بدمياط، وفي مكتبة أبي ومقتنياته، لكن شعر علي محمود طه ومذاقه الذي تفتحت عليه بواكير المراهقة، وبدايات الارتعاشات العاطفية والوجدانية الأولي، فتح عيني علي عوالم ملأي بالحب والمحبين، وأكوان تتجاور فيها الأرواح والأشباح، وتتعانق فيها لغة الروح ولغة الجسد.

هأنذا الآن، يعيدني إلي هذه المرحلة الغالية من العمر، وإلي ما تلاها من تجارب وخبرات واكتشافات وأسفار هذا الكتاب عن «الملاح التائه، علي محمود طه» للأديب

(١) فاروق شوشة (١٩٣٦ - ٢٠١٦) شاعر وإعلامي متميز ولد بدمياط وتخرج في كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٥٦ وعمل مذيعا بالإذاعة المصرية من أعماله: لغتنا الجميلة - عذابات العمر الجميل (سيرة شعرية) وصدرت أعماله الشعرية الكاملة.

الناقد محمد محمود رضوان، تصدرته مقدمة ضافية للسفير الشاعر الراحل أحمد عبدالمجيد (١٩٠٥ - ١٩٨٠) الذي عرف علي محمود طه عن قرب، وكان واحدًا من أصفيائه، وهو يستشهد في تقديمه بكلمة الناقد الراحل أنور المعداوي - الذي اهتم بالكتابة النقدية التحليلية الكاشفة عن الشاعر الملاح، وأصبحت كتاباته مرجعًا أساسيًا لكل من يحاول الاقتراب من شعر علي محمود طه، فقد كان صديقه وجليسه وأقرب الناس إليه، وهي الكلمة التي قال فيها المعداوي: «إن حياته كانت علي لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت في شعره سلسلة من الاعترافات».

ومؤلفنا: محمد محمود رضوان ينقل عن أنور المعداوي تصويره للمناخ النفسي والاجتماعي الذي عاشه علي محمود طه عند انتقاله إلي القاهرة بدًا من سنة ١٩٣١ ليعمل فيها مهندسًا ثم وكيلاً لدار الكتب، من خلال ملامح فترة الكبت والحرمان والجو الخانق في مطلع القرن العشرين في البيئة المصرية - خاصة في القري والأقاليم والذي يسميه جو الرومانسية الوجودية، فيقول: «كان الجو الذي يعيشون فيه هو «جو الرومانسية الوجودية» أي جو الشعور بالوحدة والحزن والانطواء، يعقبه جو الخلوة إلي النفس والطبيعة وهواجس الأحلام. هذه «الرومانسية الوجودية» التي أصابتهم بمرض العصر في ميدان الحياة قد دفعتهم دفعًا إلي جو الرومانسية الفنية في ميدان الأدب، حتي أصبح المزاج القاتم لا يستجيب إلا للشعر القاتم، والطبع الحزين، لا يعجب إلا بالقصص الحزين سواء أكان ذلك في الإنتاج الأدبي المقروء أم كان في الإنتاج الذاتي والمترجم، ومن هنا كان شعر علي محمود طه فيما ينظم شعر اللوعة والدمعة والحرمان والفردية!».

ولم يكن الدكتور طه حسين بعيدًا عن الوعي العميق بالشخصية الفنية للشاعر الملاح، وهو يقول عنه في كتابه «حديث الأربعاء»: فأما أن معرفتي لشاعرنا المهندس

قد أرضتني فلأن شخصيته الفنية محببة إلي حقًا فيها عناصر تعجبني كل الإعجاب وتكاد تفتتني وتستهويني، فيها خفة الروح، وعذوبة النفس، وفيها هذه الحيرة العميقة، الطويلة العريضة، التي لاحد لها، كأنها محيط لا يوجد علي الأرض.. هذه الحيرة التي تصور الشاعر ملاحًا تائهًا حقًا.

محمد محمود رضوان يحشد لكتابه بكل ما كتبه النقاد والدارسون عن علي محمود طه وشعره، ويقرؤه ويحلله ويناقشه ويتوقف عندما يوافق رؤيته ومنهجه منه، وفي طليعة مراجعه ومصادره: دواوين علي محمود طه الثمانية، وكتاب أنور المعداوي عنه، ودراسة نازك الملائكة عن شعره، وكتاب سهيل أيوب الصادر في دمشق، وكتاب الدكتور السيد تقي الدين الصادر عن المجلس الأعلي للفنون والآداب، وكتابان لصالح جودت، وكتاب الدكتور محمد مندور عن شعراء جماعة أبوللو، وكتابان لإبراهيم المصري، وكتاب لمحمد رضوان عن شعراء الحب فضلاً عن الدوريات التي نشر فيها شعر علي محمود طه منذ قصائده الأولي حتي رحيله.

***

إن الأديب الناقد محمد محمود رضوان يكشف من خلال كتابه عن «الملاح التائه» ما كان خافيًا من سيرة هذا الشاعر، ويضع نصوصه الشعرية في سياقها الطبيعي من هذه الحياة الحافلة الممتلئة التي عاشقها متنقلاً بين صفحات نعيمها وعذابها، كما أن هذه الدراسة تقدم لنا باحثًا من طراز متميز، يدأب - كعادته - في البحث عن مادته الأدبية والحياتية للشاعر الذي يكتب عنه، ويتمتع بصبر وجلد جديرين بالتقدير والإعجاب، وهو يقضي السنوات الطويلة من أجل توثيق معلومة أو تحقيق نص شعري أو الوصول إلي ما لم يسبق إليه في كتابات الآخرين وهذا هو ما يميز كتبه ودراساته التي أنجزها عن العديد من شعراء هذه الحقبة بالذات التي التمعت فيها

نجوم جماعة أبوللو، وازدهرت المدرسة الرومانسية في شعرنا الحديث، وليس علي محمود طه وأحمد فتحي وإبراهيم ناجي وصالح جودت إلا نماذج مضيئة لنجوم هذا الاتجاه الشعري الذي تخصص في دراسته وتأصيله والسباحة في تياراته باحثنا المولع بالتحليل والمقارنة وإضفاء التسميات الدالة علي الشعراء فهذا شاعر النيل والنخيل (صالح جودت) وهذا شاعر الأطلال (ناجي) وهذا شاعر الجندول (علي محمود طه) وهذا شاعر الكرنك (أحمد فتحي) الأمر الذي يعد مدخلاً أدبيًا ونفسيًا للعلاقة مع الشاعر وشعره بالنسبة لقارئ هذه الدراسات التي أضافت الكثير إلي أدب السير والتراجم والتحقيق الأدبي.

وها هو في هذا الكتاب عن الشاعر أحمد زكي أبوشادي مؤسس جماعة أبوللو يتناول حياته وشعره بالدراسة والتحليل ويلقي لنا الأضواء علي جوانب مجهولة من حياة شاعر الشفق الباكي.

ونرجو من الأديب الناقد محمد رضوان أن تتناول دراساته وأبحاثه القادمة المزيد من شعراء هذه الحقبة التي ما تزال صفحات كثيرة منها مجهولة وخافية وبعيدة عن التناول الأدبي والنقدي خاصة ما يتصل منها بالهمشري والشرنوبي والصيرفي ومختار الوكيل وغيرهم، حتي يكتمل مشروعه الذي بدأه منذ سنوات طويلة، وحقق فيه - حتي الآن - إنجازات جديرة بالتحية والتقدير.

فاروق شوشة

القاهرة مايو ٢٠٠٦

مقدمة

شاعر أطياف الربيع!

بقلم / محمد رضوان

يعد الشاعر أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) أحد أبرز رواد الشعر العربي المعاصر، وأحد القلائل الذين رعوا قبيلة الشعراء بإصداره مجلة متخصصة للشعر هي مجلة «أبوللو» (١٩٢٣ - ١٩٣٤).

وقد اختلفت آراء النقاد والمؤرخين في شعره وفي دوره في الحياة الأدبية في مصر في النصف الأول من القرن العشرين منذ أصدر ديوانه الأول «أنداء الفجر» عام ١٩١٠ حتي أصدر ديوانه الأخير «من السماء» عام ١٩٤٢ أثناء هجرته إلي أمريكا كما ترك أربعة دواودين مخطوطة هي: «الإنسان الجديد والنيروز الحر ومن أناشيد الحياة وإيزيس»، وقد قام بتحقيقها وإصدارها الأديب المحقق وديع فلسطين أمد الله في عمره.

ولم يكتف أبوشادي باهتمامه بالشعر والتجديد فيه بل اهتم بالشعر العامي وأصدر مجلة «الإمام» والتي نشر بيرم التونسي شعره فيها أثناء منفاه في باريس.

ويلاحظ في شعره عشقه للطبيعة وللجمال في شتي صوره وألوانه، وبجانب عشقه للشعر كان يهوي تربية النحل فأنشأ جمعية النحالين المصريين وأصدر مجلة اسمها «مملكة النحل» التي دعا فيها إلي تحويل واحة سيوة إلي محطة عالمية للنحالة.

وقد كان أبو شادي غزير الإنتاج فأصدر حوالي عشرين ديوانا شعريا وحوالي

عشر مسرحيات شعرية أو كما سماها «أوبريتات» تاريخية ورمزية واجتماعية.

وبالرغم من هجرته إلي أمريكا عام ١٩٤٦ إلا أنه ظل يواكب الأحداث المصرية، وينفعل بأحداثها ويصدر دواوينه الشعرية وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ابتهج بها وانفعل بها وشارك في الترحيب بها بعدة قصائد عبرت عن مشاعره وأحاسيسه بالفجر الجديد الذي بزغ في مصر.

وكان أثناء هجرته إلي أمريكا دائم الشوق والحنين إلي مصر، وإلي مرابع الصبا والشباب وذكريات الشباب والحب، وكانت تنتابه كثيرًا مشاعر الوجد والحنين فيهتف من قلب شجي:

وددت قبل مماتي
أراك يا «مصر» مرّه
وإن أكن في جنان
فريدة الحسن حره

كان شاعرا بوجدانه ومشاعره وأحاسيسه يعشق الحسن ويعبد الجمال، وكان الشعر هو حبه الأول فأنفق ما ورثه عن أبيه وما كسبه من أعماله علي رعاية مملكة الشعر والشعراء وطبع إنتاجه الشعري الغزير، وقد عاش حياته يكافح من أجل حياة كريمة، وقد باع كل ما يملك ما عدا إنسانيته وكرامته وقلمه، حتي توفي في واشنطن في الثاني عشر من أبريل ١٩٥٥ وهو يهتف:

وطني.. لو دعيت أن أفتديه
ما تمنيت غير تخليد اسمي

الشيء الجدير بالملاحظة أن شعر أبوشادى الغزير قد حال دون طبع أعماله

الشعرية الكاملة ولولا مبادرة صديقه الأديب وديع فلسطين بإصدار مجلد في بيروت عام ٢٠٠٥ يضم تسعة من دواوينه هي: «أنداء الفجر، مختارات وحي العام، ترجمة رباعيات الخيام عن الشاعر الإنجليزي فيتزجيرالد، أطياف الربيع، أغاني أبوشادي، فوق العباب، من السماء، من أناشيد الحياة، إيزيس»، لطوي النسيان شعره.

وبالرغم من كثرة الدعوات لتكريمه ومنها صرخة الأديب الناقد رجاء النقاش (١٩٣٨ - ٢٠٠٩) عام ١٩٩٥ أي في ذكراه الأربعين لتكريمه وطبع أعمال هذا الأديب الذي لم يأخذ حقه من اهتمام الناس في حياته ولا بعد رحيله فلم ينشر أحد إنتاجه الغزير بعد رحيله، ولم تصدر عنه دراسات نقدية تضعه في مكانه الصحيح من تطورنا الأدبي، فالحقيقة أن أحمد زكي أبوشادي يستحق من الباحثين والدارسين أن يتوقفوا أمامه وأن يتأملوا شخصيته وأن يكشفوا عن حقيقة جهاده الوطني والأدبي، فأبوشادي أديب من هؤلاء الأدباء الذين يمكن للأجيال الجديدة أن تتعلم منه الكثير في مجالات الثقافة والأدب والأخلاق الوطنية، وإذا كان شعر أبوشادي لم يحظ بالشهرة الكافية، بسبب بعض ما فيه من عسر وصعوبة وتعبيرات علمية، إلا أنه كان من رواد التجديد الحقيقيين في الشعر العربي المعاصر، فقد تأثر به الكثيرون من الشعراء المجددين الذين ظهروا علي مسرح الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين.

ويكفي أن نذكر أن مجلة أبوللو للشعر (١٩٣٢ - ١٩٣٤) أبرزت لنا ما أطلق عليه فيما بعد جماعة أبوللو حيث تألق علي صفحاتها عدد من كبار الشعراء العرب المجددين ومنهم إبراهيم ناجي، وعلي محمود طه، وصالح جودت، وحسن كامل الصيرفي، وأبوالقاسم الشابي، وإلياس أبوشبكة ومختار الوكيل.. وغيرهم.

وقد عرف أحمد زكي أبوشادي بغزارة إنتاجه الشعري حيث أصدر أكثر من خمسة وعشرين ديوانا من الشعر الجديد ومن الملاحم والمسرحيات الشعرية والمطولات

وبعض الدواوين المخطوطة.

ولم يعن أحد بجمع تراثه ونشره لولا جهود فردية من بعض محبيه لكن مازالت دواوين الشاعر الأخري غير متاحة للقراء ولا توجد نية لتجميعها وإصدارها وكان من المفترض أن يكون دور المجلس الأعلي للثقافة هو إصدار الأعمال الأدبية الكاملة للأدباء المصريين الراحلين لكنه لم يقم بهذا الواجب الأصيل وتفرغ لشئون وشجون أخري لا صلة لها بالتأريخ لأدبنا وفكرنا المعاصر.

وقد خاض أحمد زكي أبوشادي العديد من المساجلات والمعارك الأدبية والفكرية مع كثير من الأدباء تحتاج لباحث متفرغ لجمعها وتصنيفها ودراستها.

ويصف لنا د. مختار الوكيل شخصية د. أبوشادي فيقول إنه أول ما جذبه إليه هو إشراقه وتفاؤله وابتسامه الدائم رغم الحوادث الجسام التي ملأت حياته منذ نعومة أظفاره وهو القائل:

أعيش ببسمة وأعد زادي
أشعتها وأشربها مدامي

ومع أن البسمة كانت زاده الذي يعيش عليه وكان يحب أن يري الذين يحيطون به سعداء مبتسمين إلا أن قلبه كان يشتعل حزنا وأسي وهو الذي وصف نفسه بقوله:

هذي حياتي كلها تعب
علي تعب وأفراح علي أتراح
أبكي وأضحك غير أني لا أري
إلا الضحوك بنشوة الملاح

وقد عاش أحمد زكي أبوشادي يعاني الحنين والشوق إلي مصر وهو في مهجره الأمريكي يعاني مرارة الغربة وقسوة البعد عن وطنه الغالي، وكان يتمني أن يري مصر المحررة القوية من كل استبداد أو احتلال وقد هلل لقيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأعلن ابتهاجه وفرحته بذلك وأرسل تهنئته ومباركته لوطنه الغالي:

بوركت يا وطني العزيز محررا　　　سمحا وفي كل القلوب حبيبا
لو أستطيع كتبت شعري من دمي　　　حتي أزيد بشعري الترحيبا
لو أستطيع سألت كل خميلة　　　وبعثت بالشعر المنور طيبا
لو أستطيع وهبت كل مكافح　　　عمرا تكرر في الخلود عجيبا
لو أستطيع غسلت ساحة دوركم　　　بمدامعي ورششتها تطييبا

وقد تمني أن يري فرحة الشعب بإعلان الجمهورية من قلب ملؤه الحب والشوق لأرض مصر:

عـزيـز عـلي مثلي الـبـعـاد وقـد زهت
مـنـائـرك الـزهـراء تستقبل السلما
عـزيـز، وفي قـلـبـي حـنـان مـؤرق
وحسبي - علي رغمي - مفارقتي الأما
إذا جئت هـذا الـيـوم أزجـي تهانئي
فـمـن قـلـب محـروم تهـلـل إذ يدمي

وقد عاش أبوشادي في واشنطن يحن إلي مصر ويهتف باسمها وهو الذي قال:

وددت قـبـل ممـاتي　　　أن أراك يـا مـصر مـره

والواجب علي إحدي هيئاتنا الثقافية أن تبادر بطبع أعمال أحمد زكي أبوشادي الشعرية كاملة تكريماً وتقديرًا لهذا الشاعر المجدد، وتأصيلا لتاريخ أدبنا الحديث.

واليوم وأنا أقدم هذه اللمحات من حياة أحمد زكي أبوشادي وديوانه المجهول «زينب» الذي أصدر منه طبعة خاصة في نسخ محدودة عام ١٩٢٤ ومختارات منوعة من شعره، فإنما أقدم للقراء العرب أحد أبرز رواد الشعر العربي الذي قدم كثيرًا للشعر العربي المعاصر، ويكفي أنه كان مؤسس جماعة أبوللو التي قدمت لنا مجموعة من الشعراء المجددين.

عاش أبوشادي للشعر والفن والجمال، وظل عاشقا للشعر والنحل والطبيعة، لكنه ظل يعاني من الاغتراب الجسدي والروحي وهو يعيش في منفاه الاختياري في نيويورك، فعاش بعيدًا وقلبه معلق بمصر، وروحه هائمة تتأمل من بعيد عبر الضباب وأطياف الربيع ذلك الشفق الباكي علي ضفاف الإسكندرية شاطئ الحب والجمال مستعيدًا قصة حبه الأول لزينب من خلال قلبه وأنين وجدانه، لكنه ظل دائما في حياته وشعره شاعر الربيع الباسم والضياء والصفاء!

محمد رضوان

القاهرة يناير ٢٠١٧

ميلاد شاعر

في بيت من بيوتات القاهرة الكريمة.. في حي عابدين وسط القاهرة.. عاشت أسرة المحامي الأديب الخطيب محمد أبوشادي مع زوجته الشاعرة أمينة نجيب، أخت الشاعر الناشر مصطفي نجيب، وعمة الفنان سليمان نجيب.

كان رب هذا البيت محمد أبوشادي خطيبا مفوها يهز المنابر صوته الجهير ومرافعاته القانونية البليغة، وأديبا بليغا متمكنا من لغته التي تلقي علومها في الأزهر الشريف، وشاعرًا جهبذًا، وصحفيا أنشأ جريدة تلاقت علي صفحاتها أقلام أعلام الأدب والصحافة والسياسة، وصاحب ندوة أدبية يجمع فيها صفوة رجال الأدب والفكر والسياسة في مصر في ذلك العصر.

ثم هو بعد ذلك كله سياسي وطني ناضل بقلمه وخطبه ومرافعاته مناصرا للحركات الوطنية من أجل حرية مصر ومستقبلها، فناصر الزعيم مصطفي كامل ومحمد فريد ثم سعد زغلول.

في هذا البيت الذي تملؤه عطور الشعر والأدب والوطنية والفن ولد شاعرنا. كان ذلك في التاسع من شهر فبراير عام ١٨٩٢، في إحدي ليالي الشتاء الباردة ولد الطفل أحمد زكي أبوشادي، فتهلل الأب الشيخ الذي جاوز الخمسين بعامين فرحا وهو يستقبل وليدًا ذكرًا أنعم الله عليه بعد انتظار طويل، بعد أن رزق من زوجتين سابقتين بابنتين، ومن فرط فرحه سماه باسم مركب من كلمتين «أحمد زكي».

وبدأ الطفل يستقبل نسمات الحياة كل يوم هينة لينة مع طفولة ناعمة باسمة هانئة.

يسمع عن صيت أبيه فتمتلئ نفسه حبورا وفخرا وسعادة، وهو لا يعلم ما سوف يستقبله بعد سنوات من زوابع وأعاصير، وما خط له القدر في لوحه من نهاية ومصير.

عاش أحمد زكي أبوشادي في كنف أبيه يرعاه وينمي مواهبه، ويتعهدها بالصقل. يخلو إلي نفسه في وقت فراغه في مكتبة أبيه يعب في نهم ونشوة كل ما تحوي من ذخائر، ثم يجلس إلي جوار أبيه في كل أمسية تنعقد فيها ندوته فيستمع إلي الكوكبة من رجال السياسة والعلماء والأدباء والشعراء الذين تحفل بهم هذه الندوة، وكل منهم له مكانة وصيت، فتعي ذاكرته مما يقولون الكثير من الأفكار، ويستضيء ذهنه بما يري ويسمع، فيحلق خياله إلي عوالم رحاب.

وفي ظل هذه التنمية وهذا الصقل، وعلي ضوء المشاعل الفكرية التي كان يعيش علهيا استطاعت مواهبه أن تتفتح مبكرة، فلم يكد يبلغ السادسة عشرة من عمره فكر في إصدار مجلة قصصية هي «حدائق الظاهر» مستمدا اسمها من اسم جريدة أبيه «الظاهر» وذلك سنة ١٩٠٨، ونجد في تصديره لها ما يكشف عن نبوغ مبكر، وعن رغبة في احتضان لون جديد في الأدب العربي بنفس الروح التي تجلت بعد أربع وعشرين سنة من ذلك التاريخ حين فكر في إصدار مجلة تحتضن مواهب الشعراء هي مجلة «أبوللو» التي ظهرت سنة ١٩٣٢.

فهو يذكر في تصديره لمجلة «حدائق الظاهر» أنه كان «مقسما بين فكرتين: الأولي: تشجيع القصص المصري بمعناه الصحيح تصويرا لبيئاتنا الوطنية المختلفة كوسيلة من وسائل التأريخ للمجتمع المصري وتشخيص أمراضه ووصف علاجها علي نمط فني راق كما هو المعهود في القصص الغربية، والثانية: تشجيع النقل عن روائع الأدب القصصي في الغرب مؤثرا النقل الأمين علي التمصير والاقتباس. ففي هذا القصص الأوروبي كثير من المسائل الإنسانية ومن الحقائق العليا لابسة ثوب القصة بدل أن

تلبس ثوب المقالة أو الحكم النثرية المرسلة أو الحكم النظمية كما كانت عادة العرب».. ثم يقول: «وأخيرا استقر رأيي علي الجمع بين الفكرتين، وعززني من اخترتهم من أصدقائي الكتاب للقيام بهذا العمل الذي يفتقر إلي كثير منه أدبنا العربي».

إن هذا الأسلوب من هذا الفتي يكشف في وضوح عن أثر الوراثة الأدبية التي تجري في عروقه: فأبوه «محمد أبوشادي» شاعر وناثر، وجده الشيخ «أبوشادي الدحدوح» الذي ينتهي نسبه إلي الشيخ إبراهيم الدسوقي ومن ثم إلي الحسين بن علي رضي الله عنهما والذي توفي عام ١٨٨٠ كان عالما أديبا، وأمه «أمينة نجيب» شاعرة، وخاله «مصطفي نجيب» له باع في النثر والشعر، كما ذكرنا.. بل امتد أثر هذه الوراثة - فيما بعد - إلي ابنته «صفية أبوشادي» صاحبة الشعر المنثور الرقيق الذي ضمه ديوانها «الأغنية الخالدة».

وفي تلك الفترة أيضا بدأت شاعريته تتفتح لتنفح عالم الأدب إلي جنب موهبته النثرية بالزكي من الشذا. وكان إطلاعه قد بدأ يخرج عن حدود ما في مكتبة أبيه من عيون الأدب العربي، إلي ما تفيض به جداول الأدب الغربي، فامتدت يده إلي ما ينشر في الخارج يعب منه في شغف موسعا دائرة ثقافته.

وتندلع في قلبه شرارة حب تضفي علي شاعريته وهجا يؤجج مشاعره، ويلفح كلماته، ويلون تعبيراته. ولقد كان لهذا الحب أثر كبير في تغيير مجري حياته علي غير ما كان في حسبانه.

كان أبوه قد طلق والدته، وتزوج سيدة أخري، وأقام الفتي مع والدته في منزل بسراي القبة غير بعيد عن منزل أبيه الذي أقام فيه مع زوجته الجديدة، وكان لهذه الزوجة شقيقة متزوجة من أحد أعيان القاهرة وهو صديق عزيز لأبيه قامت بينهما

الصداقة منذ زمن طويل، وكان هذا الصديق يقيم في سراي له بضاحية الزيتون، وكان أبو شادي الكبير يصحب ولده «أحمد زكي» في زياراته لهذا الصديق الذي كان يري فيه مكان العم، فتعلق قلب الفتي بالابنة الكبري لهذا الصديق واسمها زينب محسوب، وكان يتردد علي منزل عديل أبيه يساعد الفتاة وشقيقتها الأخري في مراجعة دروسها، فوطد الحب دعائمه في هذين القلبين الصغيرين كان ذلك عام ١٩٠٩.

كانت هذه الفتاة ابنة لشقيقة الزوجة الجديدة، ولم تكن تقيم معها ومع شاعرنا تحت سقف واحد، كما ذكر بعض الشعراء والنقاد، بل كانت تقيم في بيت والدها بالزيتون ولم تقم مع خالتها قط. كما لم يقم شاعرنا مع زوجة أبيه بل ظل مقيما مع أمه بعد طلاقها ينفق عليه أبوه.

ولم يمض علي تعلق هذين القلبين الصغيرين سنتان حتي تقدم أحد أصدقاء أبيها خاطبا لها، وتم زواجه بها. ولم يحتمل الفتي الطري العود هذه الصدمة - وكان قد التحق بمدرسة الطب - وبدأت صحته تتدهور ثم تزداد سوءا، ففكر أبوه في أن يبعث به إلي الخارج عسي أن يسلو غرامه ويشفي من مرضه خلال دراسته بعيدا عن وطنه، فسافر إلي إنجلترا في أبريل عام ١٩١٢.



وكأن هذا الفتي الجريح الحزين قد أراد أن يداوي جراحه ويغرق أحزانه في محيط من العمل الدائب في مجالات متعددة. فنراه بعد عام قد بدأ يسهم في «إنشاء النادي المصري» بلندن ويتولي سكرتيريته، ونراه ينشيء هناك «جمعية أداب اللغة العربية» ويتولي سكرتيريتها أيضا ويكل إلي المستشرق الإنجليزي دكتور مرجليوث رياستها، ثم نراه يتجه صوب خدمة قضية وطنه فيجمع الشباب المصري وينظم حفل استقبال للزعيم محمد فريد. ومن ثم بدأ نضاله الوطني ضد عدو وطنه داخل بلاده.

وفي هذه الفترة تبدأ ناحية فنية كامنة في نفس هذا الشاب الطموح في الظهور إذ يتجه إلي فن الرسم يدرس أصوله.

وهو مع هذا كله لم يقصر في دراسته للطب حتي ظفر عام ١٩١٥ بإجازته العلمية من جامعة لندن، ثم تخصص في «البكتريولوجيا» وحصل علي مرتبة الشرف فيها من هذه الجامعة سنة ١٩١٧.

في هذه السنة فجع الشاعر - وهو بعيد عن وطنه والحرب العالمية الأولي مشتعل أوارها وأحرار الوطن مشردون عن هذا الوطن أو مكبلة أقلامهم مبيضة صحفهم بما يحذف الرقيب - بوفاة أمه، واشتد حزنه عليها، فعاد مرة أخري يغرق أحزانه في شيء جدي، فاتجه صوب عالم أهله يشبهونه في كثير من صفاته: الدأب علي العمل المضني من أجل الآخرين، ذلك هو عالم النحل يدرسه دراسة علم وتطبيق حتي أصبح عالما متخصصا فيه، له مكانته المقدرة عند الأعلام من علمائه، وأسس هناك سنة ١٩١٩ ناديا دوليا، وأصدر مجلة متخصصة ظلت تصدر حتي بعد عودته إلي الوطن لسنوات عدة وهي تحمل اسم مؤسسها.

وفي خلال ذلك تزوج بفتاة إنجليزية مثقفة كانت عونه في عمله، ورحلت عن وطنها معه إلي وطنه مصر لتهيئ المنزل الهادئ الذي يأوي إليه كل مساء هذا الرجل الذي يقضي نهاره موزع النشاط والجهد في جوانب متعددة متغايرة المعالم تبدو وكأن لا تآلف بينها، فيوحدها هذا الرجل ويؤلف بينها عند غاية واحدة هي العمل من أجل المجموع الذي يفني هو نفسه فيه:

أعيش لنوعي لا لنفسي وحدها وأنشر روح الحب غير مبدد



ويعود أبو شادي إلي وطنه عام ١٩٢٢ بعد غيبة عشر سنوات يحمل ما في روحه من آمال، ويبث ما في ذهنه من مشاريع بهذه الروح الإنسانية والمثل العليا والمبادئ التعاونية. فنراه بعد أن عين سنة ١٩٢٣ في معامل الصحة بالقاهرة قد نقل مديرا للمعمل البكتريولوجي في السويس، ونراه هناك قد خلق حركة أدبية نشطة شاركه فيها الأستاذ حسن الجداوي المحامي، ثم نقل إلي بورسعيد فدبت مع خطاه حركة أدبية، ثم إلي الإسكندرية فسعت معه الحركة وشاركه فيها طائفة من أدباء الثغر ومعهم الأستاذ أحمد الشايب وكان مدرسا هناك. ونراه ينشيء في هذا الثغر «جماعة الأدب المصري». وفي تلك الفترة دعا إلي ضرورة أن تنشأ في هذا الثغر جامعة كجامعة القاهرة، وقد تحققت دعوته بعد ذلك بسنوات.

ثم ينقل إلي القاهرة سنة ١٩٢٨ ليؤسس فيها «رابطة الأدب الجديد» ثم يتسع نشاطه الثقافي فيفكر في أوائل سنة ١٩٣٢ في تكوين «جمعية أبوللو» ولم يكد يحل الثلث الأخير من ذلك العام حتي كانت هذه الجمعية قد برزت إلي الوجود وظهرت معها «مجلة أبوللو» لسانها ومنبرها. ومن أجل ذلك يؤسس «ندوة الثقافة» التي احتضنت «جماعة الأدب المصري» و«رابطة الأدب الجديد» و«جمعية أبوللو» ثم «رابطة مملكة النحل» و«الاتحاد المصري لتربية الدجاج» و«جمعية الصناعات الزراعية» ولكل منها مجلة خاصة.

وبالروح التعاونية التي يمجدها ويدعو إليها أنشأ لهذه الأعمال مطبعة خاصة أسبغ عليها اسم «مطبعة التعاون»، وبنفس الهواية المحببة إليه وهي إنشاء المناحل، استطاع أن يجعل من هذه الندوة منحلا للفكر تتوافد عليه من كل مكان طوائف تقدم للناس في تضحيات كريمة شهدها المصفي.

وفي الحق أن «مجلة أبوللو» بصفة خاصة، كانت حدثا فكريا عظيما، حيث

اجتمعت فيها أقلام كانت الحزبية العمياء تفرقها، فائتلفت وتوحدت تحت راية «أبوللو».

ولكن العنت الذي كان يجابه أبا شادي فيثبت أمامه كل مرة، كان قد ألقي بكل أثقاله علي هذا الرجل المناضل فأوقف نشاطه في القاهرة وانتقل إلي عمله الجديد في الإسكندرية ثانية.

***

أبوشادي.. حياته وشعره

في التاسع من فبراير سنة ١٨٩٢ كان مولده بالقاهرة في حي عابدين. وكان والده المحامي الشهير محمد بك أبوشادي محبا للأدب والصحافة، حيث ساهم إلي جوار عمله كمحام وسياسي في الكتابة الأدبية والصحفية كما أصدر جريدتي «الأهرام الأسبوعية، الظاهر» اليومية، كما تولي رئاسة تحرير جريدة «المؤيد» المشهورة فترة من الزمن، وله أشعار غير مطبوعة. كذلك كانت والدته السيدة أمينة نجيب شاعرة، حفل كتاب (الشعر النسائي وشهيرات نجومه) لمؤلفه محمد محمود بعض مقطوعات من شعرها. كذلك كان خاله مصطفي بك نجيب أحد أركان الحزب الوطني يقول الشعر أيضا. لذلك كنا لا ندهش لظهور شاعرية الدكتور أحمد أبوشادي المبكرة، حيث نراه ينشر أول ديوان له وهو «أنداء الفجر» في سنة ١٩١٠، أي وهو في سن الثامنة عشرة.

وفي سنة ١٩١٢ سافر إلي إنجلترا ليكمل دراسة الطب حيث عاش فيها لمدة ١٠ سنوات حتي سنة ١٩٢٢. وهناك ظفر بإجازة الطب، ونال جائزة «وب» في علم «البكتريولوجيا»، وأسس جمعية النيل في لندن، وساهم في تأسيس معهد النحالة الدولي سنة ١٩١٩، واعتبره الإنجليز رائدا في هذا المجال. كما اشتغل إلي جانب ذلك بالتصوير الزيتي حيث نراه يقيم في أخريات حياته بمدينة نيويورك بعد هجرته إلي أمريكا معرضا خاصا بلوحاته.

وبعد عودته من إنجلترا تتابعت أعماله الشعرية، وأسس جماعة «أبوللو»، وأصدر مجلة «أبوللو» في الفترة ما بين ١٩٣٢ - ١٩٣٥، كما أسلفنا.

وظل بمصر حتي سنة ١٩٤٦ حيث هاجر إلي أمريكا علي أثر أزمات اجتماعية، وعلي أثر وفاة زوجته، وظل في أمريكا منذ هاجر إليها في أبريل سنة ١٩٤٦ حتي وافته المنية في ١٣ من أبريل سنة ١٩٥٥.

والدكتور أحمد زكي أبوشادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥) كان طبيبا وبكترويولوجيا ونحالا ورساما وأديبا وشاعراً وساهم في جميع هذه المجالات بنصيب وافر من النشاط الدائب والعمل الجاد.

وعلي الرغم من تعدد مجالات نشاطه وتنوعها، إلا أن فضله علي الأدب العربي والشعر الحديث بصفة خاصة يعتبر من أهم أعماله وإنجازاته، فهو مؤسس جماعة «أبوللو» ومجلة «أبوللو» التي علي صفحاتها تفتحت مواهب مجموعة من أعظم شعراء عصرنا الحديث. كما أسهم بنصيب وافر في الشعر المصري العربي الحديث إبداعا ونقدا ودراسة. وهو إلي جانب ذلك أول من حاول ادخال فن رفيع إلي الشعر العربي الحديث تأليفا ودراسة ذلك الفن هو فن الأوبرا.

.. أبوشادي مؤسس جماعة «أبوللو»

أسس الدكتور أحمد زكي أبوشادي في مصر جماعة للشعر والأدب سماها جماعة «أبوللو» كما أصدر باسم هذه الجماعة مجلة «أبوللو».

وكان هدف هذه الجماعة، وغاية هذه المجلة الأخذ بيد الشعر العربي إلي آفاق رحبة من التطور والتجديد، لكي يلحق الأدب العربي الحديث بركب التطور والتجديد في الأدب العالمي. وكان لهذه الجماعة أثر كبير في انتعاش الشعر والشعراء في مصر في الفترة ما بين سنة ١٩٣٢ - ١٩٣٥ كما أتاحت هذه المجلة الفرصة المواتية لظهور عدد كبير من الشعراء إلي النور من بينهم إبراهيم ناجي، أبو القاسم الشابي،

علي محمود طه، حسن كامل الصيرفي وغيرهم الذين أسهموا بنصيب كبير في تطور الشعر العربي الحديث.

وعلي الرغم من أن جماعة «أبوللو» ومجلة «أبوللو» لم تكونا مدرسة أدبية متجانسة، أو مذهبا موحدا ذا خصائص مميزة إلا أن أي مؤرخ للأدب العربي الحديث لا يستطيع أن ينكر أن حركة «أبوللو» قد أحدثت نهضة شعرية كبيرة وساعدت علي ظهور الاتجاهات والمذاهب في الشعر العربي الذي عاصر هذه الحركة والذي تلاها.

والذي يبحث عن مذهب موحد أو مدرسة محددة لهذه الجماعة، ويريد أن يقيمها علي أساس ذلك يظلم هذه الجماعة. فما كان لها وهي جماعة رائدة لتطور الشعر العربي الحديث أن ترسم لنفسها منهجا معينا، أو أن ترسم لنفسها مذهبا محددا. ذلك أن غاية هذه الحركة أساسا كانت ترتكز علي التحرر من الصورة التقليدية للشعر العربي، وأن تحرر القصيدة العربية من النمط الذي سادها عبر عدة قرون، وأن تساير الشعر العالمي في آفاقه الرحبة وصوره المتجددة ومذاهبه المتعددة. وقد نجحت هذه المدرسة في غايتها تماما. إذ تغيرت الصورة التقليدية للقصيدة العربية وأصبحت ذات موضوع محدد وأصبح للقصيدة وحدة عضوية كما تحررت القصيدة من النظام الموسيقي الثابت المتمثل في الوزن والقافية وتعددت موسيقاها لتعبر تعبيرا دقيقا عن روح الشاعر وأحاسيسه. وإن كان لهذه الجماعة اتجاه غالب أو مذهب معين فهو التأثر إلي حد ما بالمذهب الرومانسي الذي كان سائدا في ذلك العصر. ذلك الاتجاه الذي كان يغلب علي حركة التجديد في الأدب العربي الحديث شعرا ونثرا.

أما الدكتور أحمد زكي أبوشادي مؤسس هذه الجماعة فقد كان موسوعة شعرية إن صح هذا التعبير وكان من غزارة الإنتاج وتعدده في الشعر بصفة خاصة بحيث لا يمكن أن يحتويه مذهب شعري محدد. كما أنه لم يستطع أن يقتصر بفنه الشعري

علي لون بعينه أو فن محدد بل تناول بالتأليف في شعره جميع أنواعه وفنونه من الشعر الغنائي إلي الشعر القصصي إلي الشعر الدرامي. كما تخطي الشعر إلي مجالات فن القول الأخري، أو فن الأدب، كالنثر والنقد والمقالة والدراسة. هذا إلي جانب تعدد مجالات نشاطه الأخري كعالم وطبيب ونحال ورسام.

.. أبوشادي وفن الأوبرا:

قلنا إن أحمد زكي أبوشادي كان موسوعة شعرية وأنه لم يحدد لنفسه مذهبا في شعره يقتصر عليه، كما لم يقتصر في إبداعه، بل أسهم بالإبداع في كافة فنون الشعر من غنائي إلي قصصي إلي درامي، بل أكثر من هذا أدخل علي الشعر العربي فنا جديدا عليه هو فن الأوبرا.

وقبل أن نتحدث عن فن «الأوبرا» عند أبوشادي ولكي يمكننا أن نحكم عليها حكما صحيحا نشير إلي أنه من الضروري أن يكون لدينا الإلمام الكافي بعناصر هذا الفن الرفيع. ذلك أن النص الأدبي وحده لا يكفي للحكم علي هذا الفن فهو أحد عناصر فن الأوبرا وليس كلها.

وفن الأوبرا فن يجمع بين عناصر فنية متعددة من النص إلي الموسيقي إلي الرقص والغناء والباليه والدراما والتمثيل والديكور وغيرها، ولابد لنجاحه من تضافر كل هذه العناصر، وتآلف كل هذه الفنون لتقدم وحدة فنية متكاملة من الفن الرفيع الذي هو فن «الأوبرا» فهذا الفن باختصار شديد هو فن جميع الفنون في أرقي صورة لها.

مؤلفات الدكتور أبوشادي في فن الأوبرا ومحاولاته لإدخال هذا الفن علي الشعر العربي، لم تلق ما تستحق من اهتمام، ذلك أنه لم يكن قد آن الأوان لتأصيل هذا الفن الرفيع في مصر ذلك الفن الذي يجمع بين عناصر فنية متعددة لابد منها لنجاحه.

لذلك نري أن نكتفي بعرض سريع لمؤلفات الدكتور أبوشادي في فن الأوبرا ونظريته في هذا الفن.

أما عن مؤلفات الدكتور أحمد زكي أبوشادي في فن الأوبرا فقد بدأت في سنة ١٩٢٧، حيث اتجه إلي هذا الفن وألف عدة أوبرات، كان يسميها أحيانا مآسي وأحيانا قصصا، وأحيانا أوبرات تلحينية. وكان من بين هذه المؤلفات:

- «إحسان» - مأساة مصرية تلحينية.

- «أردشير وحياة النفوس» - قصة غرامية تلحينية.

- «الآلهة» - أوبرا رمزية ذات ثلاثة فصول.

- «الزباء أو زنوبيا ملكة تدمر» أوبرا تاريخية كبري ذات أربعة فصول.

أما عن نظريته أو نظرته إلي هذا الفن، ففي أول أوبرا ألفها أبوشادي وهي أوبرا «إحسان» نجد بحثا طويلا ملحقا بها يتناول فيه الشاعر هذا الفن عند الغربيين، ومدارس هذا الفن، كالمدرسة الإيطالية رائدة هذا الفن والمدرسة الفرنسية والمدرسة الألمانية.

وهو في هذا البحث يحاول محاولة جادة لكي يثبت أن هذا الفن يمكن، بل ويجب أن يظل أحد فنون الأدب. وينكر الشاعر ما حدث عند الغربيين من فصل لهذا الفن عن الأدب، وإلحاقه بفن الموسيقي، كما يدهش لما يراه من اغفال مؤرخي الأدب الغربيين لهذا الفن، حيث لا يجد كتابا واحدا في أي أدب غربي يعقد فصلا لتاريخ فن «الأبرا» في ذلك الأدب، علي نحو ما يعقدون فصولا لفن الأدب المسرحي بفروعه المختلفة.

ويري الدكتور أبوشادي أن الموسيقي في الأوبرا إنما هي عنصر من عناصر فن الأوبرا. وأن الأوبرا الرفيعة هي التي تجمع بين الشعر والموسيقي والتمثيل، دون أن

يطغي أحد هذه العناصر علي الآخر. ويستشهد في ذلك بالمدرسة الألمانية التي تعطي النص الأدبي حقه من العناية، ولا تضحي في سبيل الموسيقي بالنص الأدبي.

كما يذكر أن الموسيقي والطرب لا يطغيان علي الفن الأوبرالي إلا عند المدرسة الإيطالية، وأن المدرسة الفرنسية قد انتقدت هذا الاتجاه، وحاولت أن تحتفظ للنص الأدبي بقيمته ووجوده، وأن يكن الألمان هم الذين احتفظوا للنص الأدبي بمكانته ووجوده الاحتفاظ الكامل.

وينتقد الدكتور أحمد زكي أبوشادي محاولات المسرح الغنائي في مصر والبلاد العربية في عصره في مجال فن الأوبرا. حيث لاحظ أن هذه المحاولات لم تضح بالنص الأدبي فحسب بل تضحي بالتلحين الموسيقي من حيث جودته ورقيه وتعتمد اعتمادا كاملا، وتحرص كل الحرص علي الغناء الصوتي، وكأنها هذه المحاولات لم توضع إلا لمغن بذاته، وأنه علي أساس صوت المطرب وشهرته يعتمد المسرح الغنائي، أو الفن الأوبرالي في جذب الجمهور، الذي كان من حيث عدم الوعي وعدم القدرة علي تذوق هذا الفن الرفيع، بحيث لم يكن ينجذب إلا إلي مطرب بذاته، رغم تفاهة ذلك المسرح في الغالب الأعم، وابتذال موضوعاته وأناشيده. وقد أرجع ذلك إلي حب الجمهور المصري في ذلك الوقت للغناء والطرب كملهاة عن واقع الحياة المريرة.

وعلي أي حال فلا يمكن الحكم علي «أوبرات» الدكتور أبوشادي من نصها فهي لم تكتب لتقرأ، وإنما لنراها حية علي المسرح. وهذا لا يقلل من ريادة الدكتور أبوشادي لهذا الفن إبداعا ودراسة وفكرا[1].

ويلقي الشاعر حسن كامل الصيرفي (١٩٠٨ - ١٩٨٤) أحد شعراء أبوللو

(١) مجلة الجديد: مؤسس أبوللو - علي غريب بهيج ١٥ يناير ١٩٧٧.

شهادته عن أحمد زكي أبوشادي، فيذكر دوره في تجديد الشعر الحديث رغم ما لقي من حروب وجحود!.

لعل أحد من الشعراء لم يلج عوالم شتي قد تتهيبها أجنحة الشعر كما ولج الدكتور أحمد زكي أبوشادي، ولعل أحدا من الشعراء في العصر الحديث لم يلق من الجحود ما لقي أبوشادي. ومرد هذا الجحود هو هذا الولوج الجرئ، ولا أتهيب أو أغالي حين أقول: هذا الفتح أو هذا الارتياد.

ولقد قال عنه أستاذه «خليل مطران» في تصديره ديوان «أطياف الربيع»: «فأجا هذا الطبيب الشاعر الأديب السليقة العربية مفاجأة جاوز بها جرأة المجترئين علي التجديد من قبل ولم يرع أن تلك السليقة بطيئة في تحولها، حريصة علي مألوف يسرها ويرضيها، ومازالت متشعبة باقتناعها أن فيها الكفاية والغناء عن كل ما سواه»!

وأخذ عليه الصيرفي سرعة النظم، ولو عرف أن الرجل سريع التأثر في فرحه، سريع التأثر في حزنه لالتمس له العذر. وإني لأذكر أنه يوم مات «شوقي»، ويوم مات شيخ العروبة «أحمد زكي باشا» كنا نمشي في الجنازتين وقصيدتا رثائه فيهما منشورتان بجريدة «البلاغ» في حينهما[1].

وأبوشادي كما قلت رجل متعدد الجوانب متباينها، ولكن هناك وحدة في نفسه تؤلف بين هذه الجوانب، ذلك هو الروح الغالب علي كل مواهبه، المسيطر عليها، فهو في حياته بين الناس شاعر، وهو في معمله شاعر ينظر في مجهره كما ينظر في عالم النجوم في مرقبه فلا يري إلا عوالم يحيلها روحه الفني إلي مصادر شعرية تستحق التسجيل، وهو يخاطب هذا المجهر فيقول:

(١) الهلال: مارس ١٩٧٣/ حسن كامل الصيرفى.

المجهر الكاشف لا ينثني ... يشوقني وهما ولا يمتري
أستنبط الأحياء في نوره ... كأنني مستنبط عنصري

وهي في حياته الخاصة شاعر يحيل متاعبه في عمله ومتاعبه من همومه ومن جحود الناس إلي مزج بين الزهر والنحل فتستحيل مرارة الدنيا شهدا في كأسه.

من أجل ذلك حول أبوشادي كل ما وقعت عليه عيناه من أحياء أو جمادات شعرًا ولم يتهيب شيئا فهو القائل:

كن أنت نفسي واقترن بعواطفي ... تجد المعيب لدي غير معيب

وهو بين هاتين العمليتين: عملية تلقي الأشياء التي تمر به في مواكب شتي وبين عملية إحالتها إلي مشاهد شعرية قد يغيب عنه اللفظ الرشيق الذي يعني به شاعر آخر أو النغم المنسجم الذي تنصت إليه أذن شاعر غيره، ولكن المعني الذي أراد من ورائه تسجيل تجربة قد يراها غيره تافهة هو الهدف الذي يحسب له كل حساب.

وهو لا يفرط في شيء مما ينظم الأن له غاية أخري يضعها نصب عينيه، وقد يكون مصيبا فيها ولكن إلي حد ما هذه الغاية هي أن تضع للمؤرخ الأدبي الخيوط البيانية لشعره، فهو يسجل له كل شيء.

وثمة شيء آخر هو حيوية هذا الشاعر ونشاطه وسعة أفقه سبب من أسباب التدفق النظمي الذي عرف به، وأخذه عليه بعضهم، وهو يعمل بوحي طبيعته، وتبعا لهذه الكثرة والتنوع تؤخذ عليه بعض المآخذ.

وحسبه ردا علي ذلك قوله:

وما كان شعري في نظيم أصوغه ... ولكن شعري أن أكون أنا الشعرا

فهذا الرجل منذ عرفته في أول لقاء عند الأستاذ «إسماعيل مظهر» في مجلة

«العصور» سنة ١٩٢٨ حتي انتقل إلي جوار ربه لم يكن إلا شاعرا في أفراحه وأحزانه، وفي صداقته وخصومته. وما رأيته علي كثرة ما أوذي من بعض أصدقائه وغير أصدقائه بالحاقد علي واحد منهم يريد بهم سوءا بل كنت أراه معلنا حزنه إذا ألمت بواحد من هؤلاء الخصوم مصيبة.

وكان يتناسي الخصومات السابقة مرحبا بالصفاء والوفاق، كما حدث له مع «أحمد شوقي» فقد رحب بالوفاق بينه وبين هذا الشاعر الكبير حتي أختاره رئيسا لجمعية أبوللو، وإني لأذكر هنا أنني خلال المعركة الأدبية التي دارت بين «أبوللو» والأستاذ العقاد، فكرت في أن أجمع بين الرجلين أبي شادي والعقاد، وطلبت من شاعر من أصدقاء الأستاذ العقاد هو الأستاذ عبدالسلام رستم رحمه الله وكانت تربطني به صداقة وثيقة، أن يهيء لي لقاء في منزل العقاد، وعلمت منه أن الأستاذ العقاد يرحب بهذا اللقاء.

ولكن جاء إلي الدكتور أبي شادي من يبلغه أنه سب في ندوة العقاد، فاعتذر لي في أسف عن قبول ما عرضت حتي لا يساء إليه.

وكان أبو شادي متلافا للمال يعين به كثيرا من أصدقائه وإن كان في أشد الحاجة إليه في بعض الظروف، وإني أذكر للحق والتاريخ أن بعض من تحولوا من أصدقاء إلي أعداء يكيدون له، ويطلقون ألسنتهم الحداد في حقه، بل يحرضون غيرهم لينقدوه في غير تورع إنما كان الدافع إلي خصومتهم امتناعه تحت وطأة أزمة مالية تلم به عن تقديم ما يطلبون، ناسين ما دبجوه في الإشادة به، مذيعين أنه يتلقي معونات من مصادر شتي وإلا ما كان في طاقته أن يصدر مجلاته المتعددة. متناسين قوله:

حسدوني لحبهم، وأنا الحاني عليهم، والمستعين بنفسي

ويعلم الله أن أبا شادي إنما كان ينفق علي مجلاته مما يقتطعه من مرتبه ومن المبلغ الذي تدفعه له وزارة الزراعة لقاء اشتراكها في عدد من النسخ من «مجلة مملكة النحل» اعترافا بفضله وجهوده في هذا الجانب الزراعي الاقتصادي، فقد كان هو الداعية إلي إنشاء النحالة العصرية في مصر إثر عودته إلي الوطن، وعلي إثر دعوته هذه أنشأت تلك الوزارة فرعا للنحل أسندت أمره إلي من تلقوا عنه الخبرة فيه. ولكن هؤلاء المسئولين استنسروا، بل استأسدوا عليه. وكانوا يعرقلون صرف قيمة الاشتراك، وبلغ بهم الأمر في محاربته إلي الحيلولة بين اشتراك هذه الوزارة في المجلات الأخري التي تتصل برسالتها.

وصدرت «مجلة أبوللو» ولم تشترك وزارة المعارف في نسخة واحدة منها لمكتبات مدارسها أسوة بالمجلات الأخري حتي أوقف صدورها علي حين اشتركت وزارة المعارف في العراق في هذه المجلة لمدارسها ومعاهدها.

وانتقل أبو شادي إلي الإسكندرية يعاود فيها نشاطه الثقافي، ولكن بجراح مثخنة، وتعرف إليه هناك «إسماعيل أحمد أدهم» وبدأت الحركة الأدبية تنشط وتنهض في الثغر علي حين ران عليها النعاس في العاصمة.

وأنشئت «جامعة الإسكندرية» التي نادي بها، واختير أستاذا في كلية الطب بها، ثم اختير وكيلا لهذه الكلية، غير أن آراء أبي شادي الجريئة في محاربة الديكتاتورية الحاكمة والفساد السياسي والثورة علي الإقطاع، لا يخشي بطش الملك ولا سطوة الحاكمين. دفعت هؤلاء إلي محاربة الرجل الحر حين جاء دور اختيار العميد، فعين أستاذ من طب القاهرة عميدا لطب الإسكندرية ليتخطوا أباشادي.

وكان صدر الرجل قد بدأ يضيق والأزمات المالية تأخذ بخناقه ومرض زوجه

يستفحل، وبدأت غيوم الأسي وظلمات اليأس تخيم علي داره وتلقي بظلالها علي نفسه، ففكر في أن يرحل مرغما عن وطنه يعالج زوجه مما ألم بها، ويعالج روحه مما يكدر صفوها، وشاء القدر أن يسبق رحيل زوجه معه إلي العالم الجديد الذي سيتجهان إليه، رحيلها إلي عالم ليس فيه ألم وسقم، فأودعها ثري في هذا الوطن، وحمل أولاده كما حمل أحزانه في ١٤ أبريل سنة ١٩٤٦ واتجه صوب أمريكا.

وعاد للمرة الأخيرة يغرق في الغربة في هذا العالم الجديد أحزانه بنشاط لا تحتمله سنه وجهد تنوء تحته صحته، في كفاح مرير من أجل حياة كريمة. يعمل حينا مستشارا للوفد السعودي وللوفد الاريتري في هيئة الأمم المتحدة، ويدرس حينا الأدب العربي في معهد آسيا بنيويورك، ويلقي أحاديث في الإذاعة في الأدب والنقد والتاريخ وغير ذلك، ويحرر في بعض الصحف، ويكتب ويؤلف في قضايا فكرية متعددة وينظم دواوين شعر جديدة بالعربية والإنجليزية. ويؤسس جمعية أدبية هي «رابطة مينرفا»، ويختار عضوا في لجنة حقوق الإنسان الدولية. وقد لقي هناك من الحفاوة والتكريم فوق ما كان يتصور.

ولكن أصابع الرجعية الحاكمة في مصر، ودسائس القصر وأذنابه راحت تحاربه في مهجره وتؤلب عليه بعض الجهات حتي يحرم من الموارد التي تعينه علي العيش في غربته، وهي تحاربه في مصر بعرقلة وصول مرتب المعاش إليه.

ولم يفت ذلك في عضده فهو يجأر ويجهر بآرائه الجريئة حول ما كان يحاربه وهو في بلده ويطالب بضرورة القضاء علي نظام الحكم الفاسد في وطنه وإعلان الجمهورية.

وهو بين هذا النشاط الذهني الكبير والجسماني العنيف لا يشعر أن جسده بعد السنوات الستين قد بدأ ينهار.. وهو يرد علي من يسأله عن سبب رحيله ولكن في مرارة:

سألوني لم ارتحلت؟ كأني لم أجبهم بسيرتي نصف قرن
شاديا بالطليق من شعري الباكي أغني لمجدهم ما أغني
وحياتي لعزهم في كفاح ككفاح الشعاع في وسط دجن

ثم يقول:

ما كفاهم أني أضحي بروحي حينما عز من يضحي ويفني
ما كفاهم أني تناسيت نفسي فوق نسيانهم حقوقي وأمني
ما كفاهم أني لهم ذلك الرائد يشقي كالراح في أسر دن
ما كفاهم هذا وهذا فنادوا بعقوقي، وما رعوا حق سني
ثم حالوا بين المثالية العليا لفكري وبين شعبي وبيني
فترحلت حيث يحترم الأحرار وحيث الهواء طلق لذهني
وأظل الوفي رغم اغترابي لبلادي، ما غيبت قط عني

ويرحل الملك فاروق عن مصر، ويبعث إليه محبوه برسائل للعودة إلي مصر فكانت إجابته: لن أعود إلا إذا أصبحت جمهورية. وتصبح مصر جمهورية، ولكن الرجل الذي هتف من أعماق قله:

وددت قبل مماتي أراك «يا مصر» مرة

كان قد أحس في أعماق نفسه دبيب اليأس من حياة جديدة في سن لا يستطيع معها بدء كفاح جديد حيث لم تبق فيه بقية العراك، لقد باع كل ما يملك إلا كرامته وإنسانيته وقلمه، ولم يبق بين يديه ما يسترد به ما باع من مقومات حياة تأبي الراحة والسكون.

وفي المنزل الهادئ البسيط الذي أوي إليه في واشنطن بعد أن ترك نيويورك في سبتمبر ١٩٥٤ صعدت روح هذا الشاعر الكبير في اليوم الثاني عشر من شهر أبريل

عام ١٩٥٥، شهر أبريل الذي شهد أول رحلة له إلي إنجلترا عام ١٩١٢، وشهد آخر رحلة له عن وطنه في عام ١٩٤٦، ثم شهد آخر رحلة من الحياة عام ١٩٥٥.

صعدت روحه وصدي صوته يتردد في سمع الزمن بقوله:

أسفاً أعود إلي السماء ... كما أتيت بنبع فني
لم ألق في دنيا الأنام ... سوي المهازل والتجني
دنيا تقوم علي الدماء، ... وبالدماء هوي تغني
ويسوسها البلهاء من ... غبن تعانيه لغبن
فإلي السماء أعود لم ... يغن التأني والتمني
فحروبها أجدي وأو في ... للحياة وكل فن
وسلامها أبقي وأنقي ... للوجود المطمئن
ولعل أمي الأرض في الحالين ... في ذهني وعيني

وخبا الذهن المتقد الذي كان يعي حقائق الأكوان ويشع بباهر الأضواء وأغمضت العينان اللتان كانتا تكشفان دقائق الأحياء، وسكن الجسد الذي كان لا يعرف الكلال والإعياء..

ولقد كان النقد منذ ظهر أبو شادي بتياره الأدبي الجديد وإلي حقبة طويلة قائما علي أسس من ماضينا النقدي الذي لم يحفل باستكناه النفس واعتبار أثر الكاتب أو الشاعر بصفة خاصة جزءا من نفسه لا يتجزأ، يجب عند نقده أن نصل إلي نفس صاحبه لنعرف البواعث علي هذا الأثر وما فيه من سمات صاحبه، وما تنفضه نفسيته المتأثرة بمختلف التيارات من ألوان علي هذا الأثر. فكان النقد المتأثر بالماضي وسيلة الناقدين يومذاك، وكان التجريح والغض من كل جديد غير مألوف هدف أولئك النقاد، فلم

تكن نفوسهم تحتمل الكد الذهني أو الخروج بالشعر إلي ميادين يعرفها الأقدمون.

لذلك وجد أمثال هؤلاء هدفهم في الشاعر «أحمد زكي أبوشادي» يفرغون ما في جعابهم من سهام مسمومة إلي شعره، وتبعهم في الأخذ بآرائهم الخاطئة جيل من الناس يقنعون بأن يدلي لهم غيرهم بالرأي فيكون هو القول الفصل دون أن يبحثوا بأنفسهم عن الحقيقة.

فذهب شعر هذا الرجل ضحية النقد المغرض الذي لم ينهض علي قوائم من الحق، ولا علي أسس من علم النفس. وكم جني مثل ذلك النقد علي مواهب كثيرين لم تكن لهم قوة أبي شادي وصلابته وحيويته.

وليس معني قولي هذا أن شعر أبي شادي خال من النقص، مبرأ عن النقد، ولكن معناه أن الناقد يجب ألا يلتمس جانب الضعف في شيء فيضخمه حيث لا حاجة إلي التضخيم، ثم يطمس المحاسن فلا يشير إليها، ثم لا يتوخي دراسة نفس المنقود إلي جانب دراسة أثره، كما ذكرت ذلك في ديسمبر ١٩٥٠ حين نقدت ديوان أبي شادي «من السماء».

فلقد يؤخذ علي أبي شادي كثرة ما نظم، فهو بلا شك أوسع شعراء العربية جمعاء ملكا لأبيات القريض وقد بلغ عدد دواوينه ٢٥ ديوانا وهو يتناول في شعره أشياء لا يري كثير من الشعراء بله النقاد ضرورة في أن تهبط عرائس الشعر إليها، ولا يفرط في شيء مما ينظم، وقد تضعف موسيقي الشعر أمام هذا الموكب الزاخر من ألوان لا حصر لها أو تبعا للموضوع الذي يتناوله مما لا يمت إلي الروح الفني بسبب.

الحب في حياته

يعتبر الدكتور أحمد زكي أبوشادي أحد أعمدة المدرسة الرومانسية ذات الاتجاه الوجداني في الشعر العربي الحديث في مصر وهو مؤسس جماعة «أبوللو» ومجلتها الشهيرة. وقد تأثر د. أبوشادي برائد هذه المدرسة الشاعر خليل مطران. وهناك شبه كبير بين الظروف العاطفية التي مر بها كل منهما، فكل منهما مر بقصة حب لم تتم فصولها وكل منهما ترك الحب في حياته وشعره أثرا عميقا لازمه طوال حياته.(1)

وقد كان لذلك الحب أثره في اتجاه كل منهما الاتجاه الرومانسي الذي يتسم به شعر كل منهما.

الحب في حياة أبي شادي:

نشأ الدكتور أحمد زكي أبوشادي في أسرة ذات مكانة اجتماعية مرموقة، فأبوه كان محاميا كبيرا علي جانب كبير من الشهرة والثراء وكان محبا للأدب وله فيه أعمال ليست بالقليلة شعرا ونثرا، وكذلك كانت أم الدكتور أحمد زكي أبوشادي من عشاق الأدب ولها أيضا أشعار ذات نزعة رومانسية وأيضا كان خاله شاعرا. وكان منزل والده منتدي للأدباء والشعراء.

في هذا الجو الذي يموج بالفن والأدب نشأ شاعرنا، وتعرف في صالون أبيه علي كثير من مشاهير شعراء عصره، وتصادف أن كان شاعرنا ضعيف البنية شديد الحساسية مما هيأه للاتجاه نحو الأدب وصياغة الشعر العاطفي فبدأ محاولاته الشعرية

(1) علي غريب بهيج / المرجع السابق / الجديد يناير ١٩٧٧.

مبكرا منذ أن كان طالبا في المدرسة الثانوية.

وفي بداية شبابه المبكر صدم الشاعر بأكبر حادثين أثرا في حياته وشعره أثرا لم تستطع الأيام أن تمحوه، وهما افتراق والدته عن والده وزواج والده بأخري من ناحية، وفشله في حبه من ناحية أخري.

لقد بدأت أول الأسباب التي دفعت الشاعر إلي العزلة والشعور بمظاهر الاغتراب منذ أن فارقت والدته منزل الأسرة وتركت شاعرنا لعزلة نفسية قاسية خفف منها وقوع الشاعر في قصة حب كان مسرحها نفس منزل الأسرة، فقد كانت محبوبته قريبة زوج أبيه وكانت تعيش معه في كنف الوالد.

ووجد الشاعر في حبه هذا بعض العوض عن الحنان الذي فقده بفقد والدته فاتجه إليه بكل كيانه ووجدانه، ومرت الأيام القصيرة ووقع الحادث الأليم.

كان الشاعر في نحو التاسعة عشرة من عمره وكان قد أتم دراسته الثانوية والتحق بمدرسة أو كلية الطب عندما وقع الحادث في أوائل عام ١٩١٢ وهو زواج من أحبها واسمها زينب حسيب بعد أن عارض أهله زواجه وهو مازال في مرحلة الدراسة برجل آخر.

أثر الصدمة العاطفية

علي إثر حرمان الشاعر من محبوبته وقع فريسة للمرض النفسي والبدني ولم تستطع نفسه الحساسة ولا بنيته الضعيفة مقاومة الصدمة مما اضطره إلي ترك الدراسة بكلية الطب لمدة عام.

ثم أرسل إلي اليونان للعلاج ثم بعد ذلك إلي إنجلترا ليتم تعليمه بعيدا عن مسرح المأساة وعملا بنصيحة الأصدقاء.

وقضي أبوشادي في إنجلترا نحوا من عشرة أعوام من عام ١٩١٢ حتي عام ١٩٢٢ درس أثناءها الطب وإلي جانبه الأدب بخاصة الشعر الرومانسي كما درس موضوعا آخر بعيدا عن هذين وهو النحالة حيث ساهم في تأسيس معهد النحالة الدولي سنة ١٩١٩ ومجلة عالم النحل الإنجليزية.

ثم عاد إلي مصر متزوجا بزوجة إنجليزية وبدأ في مصر حياته المزدوجة، كطبيب بكتريولوجي في وزارة الصحة متنقلا من مدينة إلي أخري ومن ناحية أخري كشاعر وأديب. وفي هذه الفترة التي لا تزيد علي عشر سنوات إلا قليلا والتي تبدأ منذ عودة الشاعر إلي أرض الوطن حتي عام ١٩٣٥ نجد ذلك النشاط الضخم وذلك الكم الهائل من الإنتاج الأدبي في الشعر خاصة إلي جانب عمل الشاعر الرسمي ومساهماته في نواح عديد من الأنشطة العامة.

وربما يمكننا أن نفسر ذلك النشاط الهائل وذلك الإنتاج الغزير تفسيرا نفسيا وهو لجوء الشاعر إلي العمل والإنتاج الفني كعلاج لمأساة حياته وفشله في حبه الأول.

ففي هذه الفترة صدرت معظم دواوين الشاعر «زينب»، «مصريات»، «أنين ورنين»، «شعر الوجدان»، «الشفق الباكي»، «مختارات من وحي العام»، «أغانى أبي شادي»، «أطياف الربيع»، «الينبوع» و«الكائن الثاني». بمعدل ديوان علي الأقل كل عام دون انقطاع.

وقد توج الشاعر هذه الفترة من حياته بتأسيس جماعة أبوللو الشعرية عام ١٩٣٢ وأصدر مجلة لها باسم «أبوللو» في سبتمبر سنة ١٩٣٣، ومن الغريب أن الدكتور أبوشادي كان ينفق من إيراده الخاص علي هذه المجلة.

ويصاب الشاعر بما له من إحساس رقيق بصدمات أخري من الناس والأصدقاء

ويتألم لما يلاقيه من جحود ونكران فيصدف عن قول الشعر فترة من حياته تمتد نحوا من سبع سنوات عجاف ولا يلبث الحنين إلي قول الشعر حتي يعود من جديد فيصدر الشاعر ديوانا آخر باسم «عودة الراعي» في عام ١٩٤٢.

ويمضي الشاعر فترة أخري يشعر فيها بالكآبة والاغتراب مما يجعله يهجر أرض الوطن إلي أمريكا في أبريل من عام ١٩٤٦ وهناك تبدأ حمي النشاط الفني تعاوده من جديد فيصدر الكثير من الصحف والمجلات، ويكتب العديد من المقالات والقصائد ويدرس الأدب العربي. ثم يصدر ديوان «من السماء» عام ١٩٤٩ إلي جانب العديد من الدواوين باللغتين العربية والإنجليزية لم ير معظمها النور حتي وفاته في عام ١٩٥٥.

الحب في شعر أبي شادي

رأينا أن المأساة العاطفية التي مر بها أبو شادي في مستهل شبابه قد أثرت تأثيرا كبيرا في مجري حياته فجعلته يغادر مصر للدراسة في الخارج، كما جعلته يشعر بالاغتراب والقلق الدائمين مما جعله ينصرف إلي العمل المتواصل والأنشطة العديدة والإنتاج الغزير في الشعر والنثر. وقد كان لذلك أثره الواضح في شعر أبي شادي وهذا الأثر له عدة مظاهر من أهمها، مسحة الحزن التي ترين علي شعر الشاعر وهي مسحة نلمسها حتي من العناوين التي اختارها لدواوينه مثل: «أنين ورنين» و«الشفق الباكى» إلي جانب عناوين قصائده مثل «القطة اليتيمة»، «وحي المطر»، «رثاء الجمال»، «أشعة الظلام» و«حزن الفجر» إلي غير ذلك.

والظاهرة الأخري من المظاهر التي تركها الحب الضائع في شعر أبي شادي هي ظاهرة الاغتراب فالشاعر دائم الشعور بأنه غريب وحيد في هذه الحياة. وهي ظاهرة نلمسها في شعره منذ ديوانه الأول «أنداء الفجر» استمع إليه يقول في «وحي المطر»:

أنا ظامئ والكل حولي ظامئ فتقطري يا سحب كيف حننت

ويقول فيها:

وأنا الوحيد فأين أين حبيبتي حتي ترد جوي وتطفئ نارا

وقد كان الحب هو الموضوع الأول الذي تغني به الشاعر حيث كانت دواوينه الأولي هي أغنيات حب تفيض بالعاطفة والشجن. وكأنه كان يجد في حبه الملاذ والملجأ والحنان المفقود بفقد والدته. استمع إليه يقول في «عبادات» من ديوانه «أنداء الفجر»:

مالعيني كلما ألقاك بالفرحة تدمع أهي الفرحة أم خشية حلم يتصدع
بي رجاء ليس يخبو ورجاء ليس يلمع وأنا كالتائه العاني إلي الأوهام أفزع
هاك قلبي يا حياتي نبئيه كيف يصنع هو في القرب بعيد عنك يهفو ثم يجزع

ويبدو أن محاولة حرمان الشاعر من حبيبته قبل أن يزوجوها بغيره قد بدأت منذ أن أحست زوجة أبيه بما يكنه نحوها وبما أخذ يفصح عنه في شعره فيها، ففي «أنداء الفجر» يقول الشاعر:

يا زين دنياي التي ما نالني منها سوي قلقي علي حرماني
لم يحجبونك هل أثمت بكل ما أعطيت حسنك من بديع جماني
هل لي سوي دين الطهارة ملة أولي سـواك حمـاي أوديـاني
فإذا حجبت فمن أخص بمهجتي ولمن أعيش ومن له وجداني

وهو يذكرنا بتقاليد البادية وبما أصاب الشعراء العذريين قبله من حرمانهم ممن أحبوهن لا لشيء إلا لأنهم ذكروهن في شعرهم.

وله في قيس وجميل وكثير وغيرهم أسوة.

وقد اختص الشاعر حبه ومحبوبته بديوان حمل اسمها «زينب» أصدره عام ١٩٢٤

بعد عودته من إنجلترا إلي أرض الوطن وهو يصور في هذا الديوان ملحمة حبه من البداية إلي النهاية، وفيه تظهر أهم خصائص الشاعر وأثر الحب في شعره وهي نزعة رومانسية مشوبة بالحزن والشعور الدائم بالاغتراب.

ففي قصيدة بعنوان «عرس المأتم» يصور لنا الشاعر أحاسيسه إزاء زفاف المحبوبة إلي غيره وما أصابه من لوعة وأسي فيقول:

عذبة أنت في الخفاء وفي الهجر يا أغاني الظلام
بلغي العاشق الأمين علي العمر شقاء لقلبه المستهام

وفيها يقول:

ايه يا «زين» آفل من شبابي　　ايه يا نجم قاتل من ظلامي
افرحي العمر واسعدي دون قربي　　واذكري في الغداة معني أوامي
وأنا المذنب الغفور وحسبي　　دمعة منك سوف تروي عظامي

وفي قصيدة له بعنوان «ذكري الحب الأول» من ديوان «زينب» أيضا يقول الشاعر:

سلام لقاء بعد فرقة أعوام　　وقبلة شوق من فؤاد الفتي الظامي
تقلبت الدنيا بحرب وثورة　　ومازلت سلطانا عليه بأحكام
فيا منبع الوحي الذي ذقت حلوه　　صبيا حفظت الدهر مطلع إلهامي
أخاف علي نفسي اللقاء كعابد　　يخاف دنو الفجر والمشرق الدامي

علي أن من الملاحظات الهامة علي شعر الشاعر في هذه الفترة من حياته أن تزاحم الأفكار وغزارة الإنتاج والرغبة المستمرة في العمل قد أصابت شعره بالضعف من ناحية الصياغة ورسم الصور والموسيقي. وهي ظاهرة شائعة في كثير من شعر الشاعر

الذي يتسم بالغزارة والتنوع علي حساب اتقان الصياغة وانتقاء الصور.



علي أي حال كان للحب في حياة أبي شادي وشعره أعمق الأثر وأبعده كما كان لذلك الحب الضائع أثره في الاتجاه الرومانسي لشعر أبي شادي بالصورة التي سبق أن رأيناها في شعر خليل مطران ولكن مع تميز كل من الشاعرين بخصائص ذاتية فريدة ويبقي أن نشير إلي أن لكل منهما دوره الكبير كعلم من أعلام الشعر العربي الحديث.

أبوشادي شاعرا وإنسانا

ويستعيد صديقه وتلميذه في مجلة «أبوللو» الدبلوماسي الشاعر د. مختار الوكيل (١٩١١ - ١٩٨٨) المؤثرات الاجتماعية والثقافية والفكرية والسياسية في حياته وشعره، فيقول:[1]

ليس أبوشادي جديدا علي، ولا هو جديد علي قراء العربية. ولقد كتبت عنه قبل اليوم مرات عديدة، وكان أهم ما كتبته عنه ذلك الفصل المشهور في كتاب «رواد الشعر الحديث في مصر» الذي ظهر لي عام ١٩٣٤ وكنت حينذاك شابا يخطو إلي العشرين من عمره، بهرته النهضة الأدبية في ذلك العهد، تلك النهضة التي أخرجت إلي الوجود جماعة «أبوللو» برياسة أمير الشعراء أحمد شوقي.

ولقد انضممت إلي «أبوللو» كما فعل الكثيرون من شعراء الشباب حينذاك. وهناك عرفت «أبا شادي»: فعرفت عالما من العلم، بل موسوعة من المعرفة والثقافة..

عرفت رجلا بألف رجل، أو أكثر من ذلك. عرفت رجلا مهنته التي يعيش منها هي الطب، وتخصصه فيه التحاليل والمعامل، فهو يعيش معظم وقته مع الميكروبات تحت المجهر يحللها ويري فيها عالما جياشا حيا..

وهو إلي ذلك، شاعر كبير، وناثر قدير، وباحث جليل متعدد الجوانب، يعيش مع النحل في مملكته الرائعة ويصدر مجلة «مملكة النحل»، ويعيش مع الدواجن، ويصدر مجلة «الصناعات الزراعية»، ويصدر في الوقت نفسه مجلة الشعر الرائعة «أبوللو» لسان

(١) مجلة الهلال/ أكتوبر ١٩٨٠ د. مختار الوكيل.

حال الجماعة الشعرية التي كان لها أعمق الأثر في الحياة الأدبية المصرية في الثلاثينيات، ثم يصدر إلي جانب ذلك كله مجلة أدبية أسبوعية هي مجلة «الإمام» التي كان يتولي والده الكبير محمد أبوشادي، نابغة المحاماة المصرية إصدارها في مطلع القرن العشرين.



هكذا عرفت أبا شادي في مطلع الثلاثينيات من القرن العشرين. وأول ما جذبني إليه، هو إشراقه وتفاؤله وابتسامه الدائم رغم الحوادث الجسام التي ملأت حياته منذ نعومة أظفاره! فمن يراه أو يسمع عنه يظن أنه من أولئك الذين ولدوا وفي أفواههم ملعقة ذهبية، فوالده هو المحامي المدرة الكبير محمد أبوشادي، زميل سعد زغلول وإبراهيم الهلباوي، وهؤلاء الثلاثة كانوا الأساطين الذين أسسوا مدرسة المحاماة في مصر، وكانت لهم شهرة طبقت الآفاق. ووالدته هي السيدة أمينة نجيب، أخت الكاتب الشاعر الكبير مصطفي نجيب زميل مصطفي كامل في الحزب الوطني.

ورجل مثل أبوشادي وريث هاتين الأسرتين لا شك يكون محظوظا وموفقا وسعيدا، وهذا هو ظاهر الأمور، ولكن الواقع كان علي عكس ما يراه الناظرون إلي السطح، فقد كان أبوشادي شقيا تعسا منذ باكورة الحياة، فقد انفصل والده عن والدته وهو بعد غلام، ثم شقي بعد ذلك في حبه الأول، وهي قصة لا مجال للتوسع فيها في هذه الكلمة، وإنما المهم أنه أبعد عن حبيبته وأرسل إلي إنجلترا ليواصل دراسته العليا هناك، ويعود طبيبا يعمل في معامل الصحة في مصر في عام ١٩٢٢، والابتسامة تغمر شفتيه وتشع من عينيه، وهو الشقي الحزين. ولكنه حزن كبير لا يقوي عليه إلا الرجال الكبار! وهو يعيش بالبسمة ويعدها زاده الذي يقتات به في الحياة، ويقول:

أعيش ببسمة وأعد زادي — أشعتها وأشربها مدامي!

ولا شك أن نشأة أبي شادي هي المسئولة عن توجيهه الثقافي العجيب المتعدد الجوانب. فهذا فتي يختلط منذ طفولته بعمالقة الفكر والبيان ممن يفشون مجلس والده الكبير، من أمثال أحمد شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران ومحمد رشيد رضا، وجرجي زيدان، وإبراهيم اليازجي، وحفني ناصف، ومحب الدين الخطيب.

ولعله كان أشد ميلا لخليل مطران منذ نشأته الأولي هذه، وظل منجذبا إليه بعد عودته من دراسته في إنجلترا، وتأثر بطريقته في النظم تأثرا شديدا.

حتي لقد ذكر أبوشادي في مناسبات عديدة أمام كاتب هذه السطور أنه متأثر بمطران وحركته التجديدية في الشعر العربي الحديث.

ومهما يكن من أمر فإن حركة التجديد التي قام بها مطران في مطلع القرن العشرين.

ومع ذلك فقد كانت ثروته اللفظية كبيرة، وقارئ شعره المتسلسل المتدفق الغزير يستطيع أن يلاحظ ذلك الثراء اللفظي العظيم. ولكنه لا شك كان أبعد الناس عن المباهاة بالرنين اللفظي والاهتمام به والاحتشاد له دون جدوي.



ولقد اختلف الناس ولا يزالون مختلفين في أمر هذا الشاعر الكبير، ولعل ما كتبه النقاد عن «أبي شادي» يعتبر ثروة رائعة، ضخمة، لاسيما وقد ترك لنا هذا الشاعر الكبير ثروة «شعرية» تزيد علي خمسة وعشرين ديوانا، من الشعر الجديد الرائد، ولقد اختلف النقاد فيه كما قدمت، فمن مؤيد له ومن متهجم عليه، ولقد قرأ كلام نقاده والمتهجمين عليه في حياته، وكان يفسح لمنتقديه في صفحات مجلة «أبوللو»، وكان يفرح بالنقد ويتهلل له ويهيىء له، ويقدمه طالما صدر عن نفس صادقة كريمة لا

تضمر الغش والتدمير وتسقط العيوب.

كان متعدد الجوانب متسع الآفاق، فهو طبيب إنساني النزعة، كانت دراسته للطب والجراثيم بابا لذلك الحب الإنساني الرفيع الذي طغي علي روح أبي شادي وسيطر عليه طوال حياته العريضة.

وقد رزئ أبوشادي بناقديه الذين تعسفوا وأمعنوا في القسوة عليه، مدعين أنه أغفل الرنين الموسيقي في قصائده وعابوا عليه بخروجه علي قوالب التعبير التي اصطلح عليها الناس. والحق أن أباشادي هو أول من توسع في كتابة الشعر الحر المطلق القافية، ولكن مع الاحتفاظ بالتفعيلات والبحور العربية التي أرساها الخليل.

وقصاري القول إن أباشادي، بما له من ثقافة واسعة، واطلاع علي الإبداع الشعري والفكري في مختلف ربوع العالم ما كان له أن يظل مقيدا بقيود الرنين وغيرها مما اصطلح القوم علي أنها من ضرورات النظم العربي.. وإذا كان أبوشادي قد أمعن في التجديد إمعانا لم يبلغه شاعر قبله، إلا أنه كان مشدودا إلي رونق الشعر العربي وبهائه الخالد..

ولقد تألم أبوشادي من قسوة النقاد عليه، ولكنه لم ييأس ولم يستسلم، كما في قوله:

تري ألم الأحرار سر وجودهم ... ومن ذلك الحر الذي ما تألما؟
إذا عرف الأحرار حمل بلائهم ... فما عرف الأحرار بعد التندما!

ولقد قلت إنني كنت مشدودا إلي تلك البسمة الطلقة المشرقة علي شفتيه، ولقد صدق غاية الصدق عندما قال:

هذي حياتي كلها تعب علي ... تعب وأفــراح عـلي أتــراح!

ابكي وأضحك غير أني لا أري إلا الضحوك بنشوة الملاح!

وكان في عذابه الطاغي المستمر يبتسم، ويحب أن يري الذين يحيطون به مبتسمين، فقد كانت البسمة زاده الذي يعيش عليه.

***

وكان أبوشادي من أكرم من قابلت من شعراء مصر وأدبائها، بل لعله كان أكرمهم فقد كان ينفق من ريع بعض عقاره وأراضيه التي ورثها عن أبيه علي المجلات التي كان يصدرها، وهي مجلة «أبوللو» ومجلة «الصناعات الزراعية» و«مملكة النحل» ومجلة «الإمام».. كما ينفق علي إصدار دواوين زملائه أعضاء جمعية «أبوللو» وكتبهم، ولم تكن في مصر حينذاك وزارة للثقافة، ترعي الأدب والفن كما هو الحال هذه الأيام، ولكنه كان بجهده وماله يحاول أن يكون نواة لوزارة الثقافة، بل لقد كان بحق إرهاصا لها، ومن حر ماله!

وقد يعجب بعض القراء في هذه الأيام إذا علموا أن أبا شادي هو الذي أصدر وعلي نفقته الخاصة دواوين الكثير من شعراء مصر المشهورين. وأشهد أنه صنع ذلك معي، بل ولقد أسهم في طبع كتابي «رواد الشعر الحديث في مصر»، وعندما علم أنني نقلت إلي العربية قصة تولستوي الخالدة «سعادة الأسرة» طلب أن يطلع عليها وأخذها معه إلي منزله في المطرية، وفي الصباح التالي جاءني متهللا، ليطلعني علي المقدمة التي كتبها في المساء لتلك القصة، وفيها ثقافة واسعة ودراية وخبرة واسعتان بأدب القصة عند تولستوي وبفنه الرائع وباتجاهاته الإنسانية الرفيعة التي خلدته بين قادة الإنسانية.

ثم قصد معي إلي الأستاذ العلامة محب الدين الخطيب وزكاني لديه لكي ينشر لي هذه الترجمة، وقد نشرها، وكانت هذه القصة أول تعريف لتولستوي في مصر، وأشار

إلي ذلك الأستاذ سلامة موسي في المجلة الجديدة حينذاك وكانت أول كتاب يصدر لي وأنا في العشرين وبفضل أبي شادي.

هذا بعض خلق أبي شادي الإنسان المحب المشجع لإخوانه. وأنا أتحدث بذلك إليهم وبعد سنوات طوال منذ عرفت أباشادي، فأجد أننا لا نصنع لشباب الأدباء والشعراء بعض ما كان يصنعه ذلك الرائد العظيم في تجرد وإخلاص دون إدعاء أو من!

ثم يضيف د. مختار الوكيل: «قلت إن أباشادي هو الرائد الأول للشعر الحديث، وهو وإن كان تأثر في ذلك بمطران إلا أنه لا يمكن القول بإنه يتبع مدرسة معينة من الشعر، فلقد كان شعره يجمع خصائص كثيرة معروفة بين الفرق المختلفة. ولقد سبق أن قلت عنه في «رواد الشعر العربي الحديث في مصر»: «إنه ربما ألحق بمدرسة الواقعيين المعبرين عن حقائق الحياة في صور صادقة من العاطفة والفكر المهذبين في بعض الأحيان، والساذجين في أغلب الظروف!.. وشعراء هذه المدرسة من شأنهم أن يظهروا الكون في جماله وقبحه وقوته وضعفه، غير عامدين إلي زخرفة اللفظ، أو رصف الاستعارات البيانية الصناعية وقصاراهم أن يتناولوا المعني من أقرب مورد، فيصبوه في قالب من اللفظ السهل المعبر».

ولقد انصرمت سنوات طويلة علي هذا الكلام، ولكنني وأنا أعيد قراءة شعر أبي شادي الآن، لا أكاد أجد من الألفاظ ما يعبر عن رأيي فيه أصدق من هذه الألفاظ التي قلتها منذ أربعين عاما وأنا بعد دون العشرين!

وأستطيع أن أضيف إلي ذلك أن أباشادي من أجرأ الشعراء العرب المحدثين في التعبير عن آرائه، ولعلها جرأة لم تتيسر لشاعر من قبله في هذه اللغة. وأسمعه يقول:

قبلتها، فلثمت أحلامي وأطياف الربيع

وضممتها، فضممت أغلي النور من أفق وديع

لا الـروح تشبع لا ولا قلبي بخفق يتئد

نهـم عـلي نهـم وجــود لا يمل ولا يحد

روحان قد خلقا كما خلق الضياء مع الحراره

يتمازجان تهافتا، وكلاهما قد نال ثاره!

هذا النعيم أراه رأي العين لكني أخاف

فيم التخوف والحياة جميعها روع أطاف

خذ يا فؤادي لا تخف، ما شئت من هذي الحياه

عمر جديد يا فؤادي ما تجود به الشفاه!

وهذا الشاعر الذي يطرق الآفاق الجديدة، والبكر في شعره السلس المتجدد لا يلبث أن ينقلب ذلك الصوفي الزاهد الذي يعشق الحرمان ويهيم به هياما ويكره الغرور ويزهد في الدنيا كما في قوله:

سئمت كل غـرور أستعز به   واشتقت ما يشتهي الصوفي من زمني

«والحديث عن أبي شادي يطول ويطول ولاسيما لمثلي، الذي عاش معه مرحلة كفاحه الرائع العظيم في «أبوللو»، ولمس عن كثب تلك الروح العظيمة الملهمة الآسرة، والتي كافحت ونافحت رغم الزمن العاتي، ورغم الحساد والحاقدين ومضت في طريقها تنير السبيل للسالكين حتي آذن الله له بالرحيل من مصر في أعقاب الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٦، حيث استأنف كفاحه الفذ الأسطوري في الولايات المتحدة إلي أن توفاه الله هناك عام ١٩٤٥».

ولقد كنت أريد أن أمضي في الحديث عن أبي شادي وعن كفاحه في غربته الجديدة

في نيويورك ثم في واشنطن حيث انطفأت الشعلة الباهرة الآسرة.

وإذا كانت لي كلمة أقولها في ختام هذه الصفحات فهي أن نحاول نحن المتأثرين بعبقريته الفذة، نحن أبناء هذا الوادي الطيب المكافح، أن نعيد رفاته الطاهرة إلي أرض الوطن، الوطن الذي أحبه، ولكن كره الإقامة فيه أثناء تسلط الملكية الفاسدة، فهاجر إلي أمريكا، حيث لم يكن أسعد حالا وظل إلي آخر لحظات عمره يتمني أن يعود لمصر الحبيبة، بل كان أقصي أمانيه أن يدفن في وطنه، فقد قال:

وطني لو دعيت أن أفتديه ما تمنيت غير تخليد رمسي

لمحات أدبية وإنسانية

وقد عرف الأديب وديع فلسطين (١٩٢٣) الشاعر الطبيب د. أحمد زكي أبوشادي في مصر وظل متواصلا معه أثناء هجرته لأمريكا كما تواصل مع أبناء د. أبوشادي وروي لنا هذه اللمحات الأدبية والإنسانية عنه فقال:[١]

«في عام ١٩٤٥ كانت الحرب العالمية الثانية تلفظ أنفاسها الأخيرة، وشرعت دول الحلفاء تصفِّي مكاتبها الخاصة بالاستعلامات التي أقامتها في نواح شتي من العالم، ومن جملتها مكتب الاستعلامات الحربية الأمريكي في القاهرة، وكان صديقي المستشرق الأمريكي جورج رنس George – Rentz (١٩١٢ – ١٩٨٦) يدير وحدة من وحدات هذا المركز، وقد عرفته بعدما تزوج زميلة من زميلاتي الجامعيات.

وفي إحدي زياراتي لمكتبه سألني عما إذا كنت أعرف الدكتور أحمد زكي أباشادي. فقلت له: إنني لا أعرفه شخصيًا، ولكنه أديب متعدد المواهب والاهتمامات، وإن يكن في الأصل طبيبا، وإنه كان يصدر مجلة خالصة للشعر ونقده هي مجلة «أبوللو». ثم استوضحته عن سبب سؤاله عنه، فأجاب بأن أباشادي قد تقدم بطلب للهجرة النهائية إلي الولايات المتحدة مع أسرته، وأنه يعتزم السفر بمجرد انتظام رحلات سفن الركاب التي توقفت رحلاتها بسبب الحرب، وقد طُلب مني إعداد مذكرة عنه.

وفي عدد ٢٢ نيسان (أبريل) ١٩٤٦ قرأت في مجلة «الرسالة» المصرية لصاحبها أحمد حسن الزيات (١٨٨٥ – ١٩٦٨) رسالة وداعية موجهة من أبي شادي كتبها

(١) وديع فلسطين يتحدث عن أعلام عصره/ دار القلم – دمشق ٢٠٠٣.

عشية هجرته، وأرفق بها مرثية لزوجته الإنكليزية التي كان مرضها العضال من أقوي دوافع الهجرة تلمسا لأسباب العلاج المتقدم في الولايات المتحدة، وقد أُدرجت المرثية بمقدمة جاء فيها «سافر إلي نيويورك يوم الأحد الماضي الدكتور أحمد زكي أبوشادي ليقيم بها هو وأسرته، وقد أرسل إلينا عشية سفره هذه القصيدة ومعها كتاب يقول فيه: كان بودي أن أزوركم مودعا قبيل مبارحة وطني الذي لم تسمح لي الظروف بخدمته كما أود، ولكن أحوالي الخاصة لم تمكني من مغادرة الإسكندرية (التي كان يقيم فيها) لهذا القصد، وسأبحر منها مع أولادي علي الباخرة فلكانيا يوم الأحد ١٤ نيسان (أبريل) وعلي فمي بيت المتنبي:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا　　　ألا تفارقهم فالراحلون هم!

«وكان بودي لو حملت رسالة توديعي طاقة باسمة لا هذه المرثية الحزينة لزوجتي، ولكنها أغلي ما أملكه الآن، وقد ارتسمت فيها ذكرياتي وعواطفي وأشجاني».

وعلق الزيات علي هذه الرسالة بقوله: «كتب الله للدكتور السلامة، ومنَّ عليه في مهجره بطيب الإقامة».

وصل أبوشادي إلي نيويورك مع أولاده الثلاثة: صفية ورمزي وهدي، ولم يكن أيٌّ منهم قد استكمل دراسته الجامعية، ولا كانت هناك وظيفة جاهزة تنتظره في المهجر، فتعين عليه، وهو صاحب التراث الأدبي الضخم في الوطن أن يبدأ من نقطة الصفر، آملا أن تكون شهرته الأدبية قد سبقته إلي أواسط العرب المهاجرين بحيث توطئ له مكانا حفيا بينهم، سواء في الصحف العربية التي كانت تصدر هناك، مثل جريدة «الهدي» لصاحبيها نعوم مكرزل (١٨٦٤ - ١٩٢٣) وسلوم مكرزل (١٨٧٩ - ١٩٥٢) و«السائح» لصاحبها عبدالمسيح حداد (١٨٩٠ - ١٩٦٣) و«السمير»

لصاحبها إيليا أبي ماضي (١٨٨٩ - ١٩٥٧) و«نهضة العرب» لصاحبها سعيد داود فياض وسواها، أو في أقسام الدراسات العربية في الجامعات الأمريكية، أو في الأمم المتحدة، التي كانت حديثة عهد بالنشوء، ولكنه فوجئ بمقال للشاعر إيليا أبي ماضي عنوان «ليس منّا» هاجم فيه أباشادي، رافضا أن يعترف له بمكان بين عُصَبة المهجريين.

ومن المفارقات الصارخة، أنه حين تبرأ أبوماضي من أبي شادي، فقد انتهزت أكاديمية الشعراء الأمريكيين وجمعية الشعر الأمريكية فرصة ظهور ديوان «من السماء» لأبي شادي - وهو الديوان الوحيد الذي ظهر له في الولايات المتحدة - فأقامتا حفلا جامعا في فندق والدورف أستوريا يوم ٣٠ نيسان (أبريل) ١٩٥٠ تكريما للشاعر وصفه أبوشادي بقوله: «اشتركت فيه الحكومات العربية وجامعات شتي وأساتذة أعلام ومستشرقون فطاحل من أوروبا وأمريكا ورجال الصحافة وصفوة أدباء المهجر ومراسلون بارزون من أقطار شتي إلا مصر العزيزة التي أحببتها الحب كله، وخدمتها بجوارحي طوال حياتي، ومازلت أخدمها بدافع من ضميري وحده».

وقد وقف أبوشادي ريع هذا الديوان لخدمة القضية الفلسطينية، فأهدي ألف نسخة منه، شحنها علي حسابه الخاص، إلي حكومة عموم فلسطين التي كان مقرها في القاهرة لتباع وتخصص حصيلة البيع للقضية الوطنية.

كان علي أبي شادي وقد بلغ الرابعة والخمسين من عمره عند هجرته، فهو من مواليد ٩ شباط (فبراير) ١٨٩٢ - وهي سن متأخرة نسبيا - أن يطرق أبواب العمل جميعا في سبيل الرزق له ولأسرته، ولعله لو طرق باب الطب لألفاه مفتوحا علي مصراعيه أمامه، ولكنه آثر الاشتغال في ميادين أخري، فعمل مندوبا للمملكة العربية السعودية، ومستشارا للوفد الإريتري في ثلاث دورات متتالية منذ بدء عمل الأمم

المتحدة، وحرر في جريدة «الهدي» وجريدة «السائح» وجريدة «النيويورك هرالد تريبيون» وحاضر في جامعة نيويورك وفي معهد آسيا، وارتبط بإذاعة صوت أمريكا التي صال فيها وجال أديبا وشاعرا وناقدا ومؤلفا مسرحيا ومعلقا، وهو العمل الذي ظل يزاوله حتي وفاته في ١٢ نيسان (أبريل) ١٩٥٥.

وكان من أسباب هجرة أبي شادي أنه - دون أن ينخرط في أي أنشطة سياسية عدا ميوله الوفدية الطبيعية - قد صادف في عمله كوكيل لكلية الطب في الإسكندرية مضايقات كثيرة، كما تعرض لهجوم عنيف من عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤) الذي اتهمه بأنه صنيعة السراي، وقال: إن الاتجاه الرومانسي العاطفي الذي طغي علي شعراء أبوللو كان محاولة من حكومة الطاغية إسماعيل صدقي باشا (١٨٧٥ - ١٩٤٥) لصرف الشعراء والمفكرين عن دفع بلاء الاستبداد، وذلك باستغراقهم في شعر الحب والعاطفة هروبا من الواقع السياسي الكئيب للحياة.

وتوهم أبوشادي أن من شأن هجرته وضع حد لهذه المضايقات التي اضطرته إلي تكليف محاميه محمد لطفي جمعة (١٨٨٦ - ١٩٥٣) برفع دعاوي أمام المحاكم ضد مناوئيه، وفي طليعتهم الشاعر محمد مصطفي حمام (١٩٠٦ - ١٩٦٤) الذي كان ينشر عنه مقالات ساخرة في الصحف الهزلية، بل زيف قصيدة للشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩ - ١٩٣٢) امتلأت بعبارات التجريح في أبي شادي.

ولكن المتاعب ظلت تلاحق أباشادي حتي وهو بعيد عن وطنه، فقد اتفق أن زار الصحافي مصطفي أمين بك صاحب دار «أخبار اليوم» الولايات المتحدة في عام ١٩٤٩ وبعث من هناك إلي جريدته برسالة جاء فيها: إن أباشادي هاجم مصر في سلسلة من المقالات نشرها في جريدة «الهدي» وواقع الأمر أن أباشادي كان

يهاجم الفساد، ولاسيما بعدما امتلأت صحف العالم بأخبار النشاط الماجن للجالس علي عرش مصر، وتلقف عباس خضر (١٩٠٨ - ١٩٨٧) هذا الخبر ليجعل منه موضوعا جديدا من موضوعات تحرشاته المستمرة بكبار الأدباء، فانتهز فرصة اعتكاف الزيات صاحب «الرسالة» في ضيعته بالمنصورة، واطمأن إلي أن أباشادي لن يطالع «الرسالة» في مهجره، فعقد كلمة بعنوان «أبوشادي العجيب» نشرها في عدد ٢٢ آب (أغسطس) ١٩٤٩ من «الرسالة» قال فيها: «إن أباشادي مكث دهرًا ينظم كلاما فارغا، ويقذف به ديوانا وراء ديوان، وهو يحاول أن يقنع الناس بأنه شاعر، فأخفق ولم يفلح إلا في إفساد المذهب التجديدي في الشعر العربي.. حتي لقد نفر أبوشادي بعض المجيدين من لفظ التجديد، وأصبح مثار التندر في مجالسهم.. إن مصر لا تستحق هجومه عليها إلا لسبب واحد هو أنه من أبنائها، وإن كانت كفرت عن ذنبها بلفظه وقذفه إلي ما وراء البحار»!

غضب أبوشادي لهذا الهجوم، فقد كان من قراء «الرسالة» حتي في مهجره، وبعث بكلمة إلي الزيات نشرت في عدد ١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٩ بعنوان «بين الأدب والوطنية والأخلاق» عاتب فيها الزيات لسماحه «بترديد مطاعن جارحة في أخلاقي وفي محبتي لمسقط رأسي» واستنكر أن تقابل خدماته لوطنه الأول بالجحود قائلا: إنه وجد في الصحف الأمريكية مجالا لنشر آرائه «بعدما حال الرقيب دون نشر آرائي الحرة في مصر، ولحمتها وسداها الدفاع عن صوالحها العليا وعن عاملها وفلاحها وعن حرياتها العامة وعن عرش مصر».

ونشرت «الرسالة» في نفس العدد دفاعًا عن أبي شادي بتوقيع عبد الحفيظ نصار من دمنهور جاء فيه: «آلمني حقًا الأسلوب الذي تحدث به الكاتب الفاضل عن رجل كان له في الحياة الأدبيةأثر لا ينكر.. ومن المعروف أن أبا شادي بذل مجهودًا صادقًا في

خدمة الأدب الحديث، وأقل ما ينسب إليه من فضل أنه جمع جمهور شعراء العربية، وحفز همم الشباب منهم بنوع خاص، ومن ينكر نشاط جماعة أبوللو التي كان رئيسها شوقي ووكيلها أحمد محرم (١٨٧٧ - ١٩٣٢) وسكرتيرها أبوشادي؟ وأعتقد أنه قبل مجلة «أبوللو» وهي مجلة خاصة بالشعر ودراساته مما لم يسبق له نظير في عالم الصحافة العربية - كان القارئ العربي لا يعرف شيئا عن هذا العدد الكبير من شعرء الشباب بنوع خاص، نذكر في طليعتهم الشاعر أبا القاسم الشابي (١٩٠٩ - ١٩٣٤).. فهل أفسد أبوشادي سليقته؟».

ولما فاض الكأس، اضطر أبوشادي إلي إصدار «بيان شامل لمواطنيه المصريين» نشرته مجلة «الصباح» القاهرية لصاحبها مصطفي القشاشي بك في عددها بتاريخ ٢٥ تموز (يوليو) ١٩٥١ جاء فيه: «آمنت بأن العوامل التي أرغمتني إرغاما علي الهجرة من وطني لا تزال سائدة، بل إنها شر مما كانت عليه، وبناء علي ذلك، فإني سأقضي في أمريكا البقية القصيرة الباقية من حياتي، وعلي الأخص بعد اشتداد المرض عليّ في أواخر أبريل (نيسان) من هذا العام، حتي إني لم أنج من الموت إلا بأعجوبة.. والآن، بعد اضطراري إلي تنظيم استقراري في أمريكا نهائيا، لا أطلب إلا تركي وشأني هنا. والأولي بأولئك الأصدقاء والمريدين الذين يودون، كرما منهم، عودتي إلي مصر ألا ينسوا أن شخصي هو مبادئي وتفكيري فحسب.. وسأظل إلي آخر أنفاسي علي هذا العهد من الحب والوفاء، دون النظر إلي أي جزاء».

وقد أعاد العلامة الأردني روكس بن زائد العزيزي نشر هذا البيان في ذيل كتابه الجديد «يوميات الدكتور أحمد زكي أبي شادي».

وجريا علي الخطة التي اتبعها أبوشادي في الماضي، أدار ظهره لحملات أبي ماضي

الذي كان يقول عنه: إنه يحب شعره ويمقت شخصه، وعاود سيرته القديمة في إنشاء الجمعيات الأدبية، واختار للجمعية الأدبية الجديدة التي أنشأها في أمريكا اسم «رابطة منيرفا» قانعا - كعادته - بمنصب الأمين العام، أما الرياسة فقد أسندها إلي الشاعر نعمة الحاج (١٨٨٩ - ١٩٧٨)، كما افتتح لنفسه منذ حزيران (يونيو) ١٩٤٦ مكتبًا في نيويورك أطلق عليه اسم «المكتب الأدبي المصري» يزاول من خلاله نشاطه في إعداد الدراسات والمحاضرات والمقالات والقصائد التي تفرغ لها تفرغا كاملا، ولاسيما بعدما توزع أبناؤه في أمريكا طلبا للعلم أو للعمل، وصار يعيش بمفرده في ضاحية جاميكا لا يشغله عن أعماله الفكرية شاغل.

وعندما ترملت «زينب» وهي أول حب في حياته خلده في ديوان كامل يحمل اسمها، وإن كانت الظروف لم تسمح وقتها بتتويج هذا الحب بالزواج، جرت محاولات مع أبي شادي لتحقيق الحلم من جديد، ولكنها محاولات لم يحالفها التوفيق، فتزوج من أمريكية من أصل إيطالي، وتبني ابنها الذي صار يعرف حتي اليوم باسم «كلايف أبوشادي».

وفي أثناء إقامته في أمريكا نشرت له طائفة من الكتب في مصر، مثل «أبوشادي في المهجر» وجزءين من مسرحيات «من نافذة التاريخ» و«مملكة النحل» كما نشر له رضوان إبراهيم (١٩١٩ - ١٩٧٥) ثلاثة كتب هي «شعراء العرب المعاصرون» و«عظمة الإسلام» و«الإسلام الحي»، وطُبعت له في بيروت «رباعيات الخيام» مترجمة شعرًا بمقدمة للعلامة روكس بن زائد العزيزي، ونشر له في الولايات المتحدة كتابان بعنوان «دراسات أدبية» و«دراسات إسلامية»، وأعد ديوانين باللغة الإنجليزية مازالا مخطوطين عنوان أولهما «أغاني العدم Songs of Nothingness» وعنوان الثاني «أغاني الفرح والحزن Songs of Joy and Sorrow».

وأشرفت بعد وفاته علي إخراج دواوينه المخطوطة وهي «الإنسان الجديد» و«النيروز الحر»، و«إيزيس» و«من أناشيد الحياة». وسبقت الإشارة إلي «يوميات الدكتور أحمد زكي أبوشادي» التي نشرها العلامة العزيزي.

أما آثاره النثرية وهي مجموعة ضخمة من الأحاديث والدراسات والمقالات التي سبق تنضيدها في سلاسل بعنوان «وليمة منيرفا» و«هذا ما يعنينا» و«كتب حية» و«الأدباء الأقباط» و«الإسلام في نقائه» و«أحاديث إسلامية» وغيرها، فقد كان في نية أبي شادي إصدارها في كتاب متعدد الأجزاء بعنوان «الكشكول» ولكن وفاته حالت دون ذلك.

عرفت أبا شادي بعد هجرته، عندما أطلعني صديقي مصطفي عبداللطيف السحرتي (١٩٠٢ - ١٩٨٣) - وهو من أركان أبوللو - علي أخبار الحفل الضخم الذي أقيم لتكريم أبي شادي في فندق والدورف أستوريا، فحرصت علي نشر وقائع هذا الحفل في صفحة كاملة من جريدة «المقطم» تتصدرها صورة بانورامية جامعة للمشاركين وهم عشرات. وعلي إثر ذلك، تلقيت رسالة شكر من أبي شادي، شفعها بأهدائي نسخة من ديوانه «من السماء» ثم اتصلت بيننا المراسلات، حتي تلقيت آخر رسائله بتاريخ ٨ نيسان (أبريل) ١٩٥٥ بعد أيام من وفاته في الثاني عشر من ذلك الشهر، إذ كان جالسًا في حديقة بيته الذي انتقل إليه في واشنطن العاصمة، عندما صرخ بأنه لم يعد يري شيئا، ولم يلبث أن لفظ أنفاسه متأثرا بجلطة في المخ. ومن المفارقات العجيبة أنني زرت واشنطن في شهر تموز (يوليو) من نفس العام أي بعد ثلاثة أشهر من وفاته، ولو تقدم موعد زيارتي أو لو أُرخى له في العمر هذه الأشهر الثلاثة لصافحت وجهه بدلا من الوقوف علي قبره.

كان أبوشادي متعدد المواهب، يرسم بالريشة وله نحو خمسين لوحة استولت

عليها زوجته الثانية بعد وفاته، ولا يعرف مصيرها، وكانت له عناية بتربية النحل في بيته، بل أنشأ جمعية لهواة تربية النحل، وأصدر مجلة متخصصة في ذلك، ومجلة أخري خاصة بتربية الدواجن، وشارك في إنشاء جمعيات التعاون الزراعي.

وكان أبوشادي عند هجرته قد عبأ جميع كتبه في صناديق توطئة لشحنها إلي مقره في الولايات المتحدة، واستقرت هذه الصناديق في مستودعات (البوندد) في جمرك الإسكندرية انتظارا لإتمام إجراءات الافراج عنها، وهي إجراءات اتضحت استحالة الوفاء بها بسبب العقبات البيروقراطية، فاستنجد بي عساي أوفق في هذه المهمة. وكان لوزارة المالية وكيل مستنير هو الدكتور محمد توفيق يونس، وكانت تربطني به صلة ود، فكتبت إليه رسالة أوضحت فيها أن أبا شادي يسخر كل حياته في مهجره لخدمة وطنه وأمته وثقافته العربية، وهو في أشد الحاجة إلي مكتبته الخاصة المعبأة في صناديق عرضة للأمطار والرياح وعوامل الجو في مخازن ميناء الإسكندرية، فلعلك تأمر بالإفراج عنها. فبادر الدكتور يونس بإصدار أمره بالإفراج عنها فورًا بعد عرضها علي الرقابة، لأن الرقابة لم تكن من سلطته. وجيء بالرقيب الهمام، وقيل له: إن المطلوب هو الموافقة علي الإفراج عن هذه الكتب - ويزيد عددها علي خمسة آلاف كتاب - ولا بأس من قراءتها كتابًا كتابًا بشرط التعجيل بهذه المهمة حتي لا تتزايد رسوم التخزين المفروضة عليها، فما كان منه إلا أن وقع علي الأوراق دون أن يقرأ كتابًا واحدًا، وشحنت الكتب إلي وجهتها، فوصلت إلي أبي شادي في أواخر عام ١٩٥١. وتلقيت منه بعد ذلك رسالة تاريخها ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٥١ جاء فيها «لم أشأ أن أبلغك من قبل عن المأساة التي أصابت صناديق كتبي حتي لا تتكدر وحتي نصل إلي حل، فأولا الصناديق وصلت مكسورة الجوانب ومسروق منها مئات من الكتب حتي اضطرت مصلحة الجمارك هنا إلي سدها بألواح من الخشب! وثانيا،

ضاع صندوق كامل فلم يصل. وثالثا، جميع المخطوطات والمستندات والرسائل الأدبية الهامة مفقودة، ولم أعثر إلا علي مخطوط ديوان (عبدالحكم الجراحي) - وهو أحد شهداء الوطنية من الطلاب في الثلاثينيات - وأشياء قليلة أخري، وأما ديوان «نزغات الشيطان» للزهاوي فلم نهتد إليه، ومازلنا في أخذ ورد مع شركة الملاحة دون جدوي إلي الآن، وأنا لا يهمني التأمين، وإنما تهمني تلك الآثار الأدبية».

ومخطوط ديوان «النزغات» للشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي (١٨٦٣ - ١٩٣٦) تحتاج إلي وقفة. كان الشاعر قد أودع هذه المخطوطة لدي صديقه سلامة موسي (١٨٨٧ - ١٩٥٨) بغية نشرها ذات يوم، فقام الأخير بإيداعها لدي أبي شادي، لأن سلامة موسي كان مستهدفا لإغارات الشرطة التي تصادر كتبه وأوراقه كلما اعتقلته.

وبقيت هذه المخطوطة لدي أبي شادي، فلما بحث عنها ضمن صناديق كتبه لم يعثر عليها، واعتقد بأنها فقدت، وظل علي هذا الاعتقاد إلي وفاته، وبينما كانت كريمته صفية تقلب في كتبه، عثرت عليها فقامت باستنساخها وأهدتني نسخة منها مع رجاء بعدم نشرها، لأن المخطوطة كانت عُهدةً لدي أبيها ولم يكن مرخصا له في نشرها، وفي هذه الأثناء كان الشاعر العراقي هلال ناجي، اللاجئ السياسي في القاهرة، يعد كتابا عن الزهاوي، ورغب إليَّ في الاتصال بابنة أبي شادي للحصول علي المخطوطة. وبعد ما تكررت زياراته واشتد إلحاحه قلت له: إن صورة المخطوطة عندي، ولكنني وعدت بألا أنشرها. فقال: إنه لا يريد إلا الإطلاع عليها للاسترشاد بها في بحثه عن الزهاوي، وإنه سيعيدها إليّ دون تأخير. وتلقاء إلحاحه ووعده بعدم نشر المخطوطة أعرته إياها. وفوجئت بعد ذلك بصدور كتاب «الزهاوي وديوانه المفقود» وفي متنه النص الكامل لهذه المخطوطة التي استطاع الباحث أن ينفرد بالحصول عليها ونشرها!.

أما مكتبة أبي شادي، زائدًا كل ما استجد من كتب تلقاها في مهجره، فقد قامت كريمته صفية بإهدائها إلي جامعة يوطا UTAH الأمريكية عندما كان المؤرخ المصري الدكتور عزيز سوريال عطية توفي عام (١٩٨٨) صديق أبي شادي يعمل أستاذا للتاريخ فيها، فخصص لها جناحا في خزانة الكتب الجامعية وعهد في الإشراف عليه إلي أمين مكتبة يلم باللغة العربية.

وإذا كان أبوشادي قد صادف كثيرًا من الجحود في حياته، فإن ذلك لم يطمس صورته المضيئة في الحياة الأدبية المعاصرة، فقد قامت «دار صادر» في لبنان بطبع المجموعة الكاملة لمجلة «أبوللو» لأهميتها القصوي في الحياة الأدبية باعتبارها أول مجلة عربية خالصة للشعر صدرت في العالم العربي (عام ١٩٣٢) وتلتها بعد ذلك عدة مجلات منها «القيثارة» لمحررها عبدالعزيز أرناؤوط التي صدرت في دمشق عام ١٩٤٦ ومجلة «شعر» التي صدرت في بيروت عام ١٩٧٥ لمحررها يوسف الخال، ومجلة «الشعر» التي صدرت في القاهرة عام ١٩٦٣ لمحررها الدكتور عبدالقادر القط، ومجلة «الشعر» التي مازالت تصدر في القاهرة منذ عام ١٩٧٦ وتعاقب علي تحريرها الدكتور عبده بدوي، وفتحي سعيد، وخيري شلبي.

كما صدرت عن أبي شادي وجماعة أبوللو طائفة كبيرة من الدراسات الأدبية والجامعية لأساتذة من أمثال الدكتور محمد مندور والدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي، والدكتور كمال نشأت، والدكتور عبدالعزيز الدسوقي، والدكتور محمد سعيد فشوان، والدكتور يسري العزب، والدكتور سيد البحراوي، والدكتور طلعت عبدالعزيز أبوالعزم، وجميل زهير كتبي وغيرهم. كما عقدت دراسات أكاديمية كثيرة علي رواد أبوللو.

وكان من عادة أبي شادي أن يطبع دواوينه علي نفقته الخاصة في خمسين نسخة

محدودة يوزعها علي أصدقائه، وكان من نتيجة ذلك أن صار الاهتداء إلي دواوينه عسير المنال، ولاسيما لأن دار الكتب الوطنية لم تكن خصت بقانون «الإيداع» الذي يلزم الناشرين بإيداع نسخ من كتبهم فيها.

وخير ما يصنعه المجتمع الأدبي لتبديد آثار الجحود الذي عاني منه أبوشادي هو إعادة طبع جميع كتبه ودواوينه التي أربي عددها علي الخمسين حتي نجلو صورة هذا الرجل الضخم في أذهان المعاصرين.



ويتناول الأديب الأردنى روكس بن زائد العزيزي بعض الجوانب الإنسانية في حياة أحمد زكي أبوشادي وشعره وكيف اتسع قلبه للعالم دون تعصب وبعض سماته الطيبة مثل الوفاء والصدق والانتماء لوطنه مصر رغم بعاده الطويل عنه في مهجره ومنفاه الاختياري فكان الطبيب والشاعر الإنسان بكل معني الكلمة:[1]

«لقد توقف القلب الكبير عن الخفقان في الثاني عشر من شهر نيسان سنة ١٩٥٥. كان هذا، في ضاحية من ضواحي (واشطن)، فخسر العلم والأدب، والنقد النزيه، والإنسانية الصافية، علما من الأعلام.

ذاك هو مؤسس مدرسة (أبوللو) داعية التجديد في الشعر خاصة، والأدب عامة.

لقد كان (أبوشادي) ثورة غماء الجبين علي الظلم الاقتصادي والفساد السياسي، والديكتاتورية الطاغية، والاقطاع الجائر، والتعصب المتزمت، كان مسلما، يفهم الإسلام، فهما عميقا، إنه إخاء إنساني، وحب يشمل الكون بأسره وأنه عظمة للروح،

(١) مجلة الجديد/ ٥ يناير ١٩٨٠ / أبوشادي في ذكراه بقلم روكس بن زايد العزيزي عضو المجمع اللغوي بالأردن.

ونقاء للسريرة، وقوة تسمو فوق كل الصغائر، والتوافه. لهذا حورب (أبوشادي)، وأغفل نبوغه، وسعي به الساعون. وكان الذين فهموا (أبوشادي) صفوة من أصدقائه، أدركوا ما تنطوي عليه نفسه من تواضع - بلا غضاضة - وديمقراطية يعيش في الأرض، ذلك اضطهاد رهيب، أرغمه علي هجرة وطنه الحبيب، ليتنسم هواء الحرية!..

أجل غادر مصر بجسمه، لكن قلبه ظل في مصر، وروحه ظلت حبيسة الألم. كانت آماله معلقة علي (فاروق) الشاب، يوم كان يعلمه، ويوم أصيب (فاروق) بانفصام الشخصية، لذعه بأشعاره، ولاسيما قصيدته (الكركدن) التي تحامت صحف العالم العربي نشرها، إلا مجلة «الشهباء» في حلب ومع ذلك فإنها لم تظهر فيها كاملة. وهذا ما نشرته منها:

من دمعة الشعب، ومن كده ... ومن دم الأمة في نرده
تملك الحد علي صفوها ... يا ليتها تملك من حده
كم يجعل الدين حبالاته ... ليخلق المصلح في مهده
يمرغ الأمة في رجسه ... ويسرق الأمة في نرده
تمانت به، وبأوباشه ... في قربه الجاني، وفي بعده
منتفخا، يمرح مستغرقا ... في اللهو كالصائد في صيده
كالكركدن الذي يزدهي ... في قبحه، يسخر من قده
لم تعطه غانية قبلة ... إلا كمن تهزأ من رشده
أو بادلته نكتة حلوة ... إلا ومغزاها مدي نقده
حتام يستهزئ من مجدكم ... تمكن الفاجر من قصده
كنا نرجيه مثال الهدي ... فأصبح الغاشم في حقده

حتام يستهزئ من مجدكم ... حتام والخسة من مجده؟
حتام يسترسل في غيه؟ ... حتام والسوقة من جنده؟
حتام، أعلاكم له صاغر؟ ... حتام، بل أهون من عبده؟
أعقلكم دون دفين الثري، ... لو يعقل الميت في لحده؟

وقد وصفه الناقد مصطفى عبداللطيف السحرتى بقوله:

كان أبوشادي طبيبا، إنسانا، وأستاذا خيرا، يعمل في المعمل، والمنحل والمرسم، وفي صومعته الأدبية، كالنحلة الكدود، كأنما هو أفراد في فرد. حتي أنه ليحار الباحث السيكولوجي في أمره، فإذا بحثت عنه في النمط الجمالي الذي يجمع إلي حب الجمال، وجدته، وإذا بحثت عنه في النمط الفكري الذي يهيم بالفكر والثقافة وجدته، وإذا بحثت عنه في النمط الاجتماعي العامل للنفع والخير وجدته، حتي ليدور في الخلد أنه جمع في كيانه، كل هذه الصفات، والعوالم، وما أدل عليه ولا أوصف له وأوصف لنفسه من قوله:

حياتي لم تكن يوما، بعمري ... ولكن بالتصوف والمعاني
أنا ابن هواي، ثم أنا ابن فكري ... ولست أعيش في هذا الزمان
اعيش بكل عصري، عبقري ... تألق في الشعور، وفي البيان
وفي نفسى حروب، ليس تفني ... حروب، للسمو وللهوان
كأني لست فردا في صفاتي ... ولكني جموع في كياني

الوفاء عند (أبوشادي)

وأنت، إذا أردت أن تعرف عمق الوفاء عند أبوشادي، واعتزازه بأصدقائه، رأيت عبقرية الوفاء، وصدق الإخاء. وأنت تقرأ قوله لصديقه المرحوم خليل مطران

الذي كان يعده أستاذه، في قصيدته «دمعة وابتسامة»:

دمعتي وابتسامتي توأمان ... وسكوتي عذاب روح يعاني!
ليس قصف المدافع الليل حولي ... وصفير القنابل المتداني
والخراب الذي تطاير قربي ... وصراخ الوري بكل مكان
وعويل النساء حول الضحايا ... وبقايا المتاع والجدران
والظلام الذي يكفن دنيا ... ي، وقد عريت من الأكفان
ليس هذا، وليس ذا ... ك، ولا الحرب بأهوالها لنا كل آن
بالتي تلجم المحب لك، البا ... قي علي العهد، في مدار الزمان
إنها ملجمي تعذب وجداني، ... لأهلي، لشعبنا الغفلان!
الذي لم يزل علي اللهو مفتنا، ... ولو ضاع في افتنان الجبان!
يا صديقي، يا إمامي وعمي، ... وملاذي كأنه دياني،
عش مديدا، بصحة وحبور ... وأعرنا خوالد الألحان
ليس كتبي، وليس شخصي سوي ... بعضي، فيكفيك منتهي إيماني

ومن وفائه قوله:

سوي قلة فى الأصدقاء حسبتهم ... فوق الجواهر، للبخيل المعدم
لم ينظروا يوما إليّ برينة ... بل يجعلوني كالنبي الملهم
منهم قبست أشعتي، والهيمو ... عادت مفاخرها، وعدت إليهم
دار الزمان، ولم يدوروا حوله، ... وتجمعوا حولي وحول تألمي،
خلقوا إلي الأفراح، من صلب الأسي ... حتي كأن الكارثات تنعمي!

ولأبوشادي قلب يفيض بالحب للإنسانية والعطف عليها فاسمعه يقول:

لكن غاية أحلامي وإن بعدت		أن يشمل الأرض باسم الحب سلطان
وأن أغلب ما يوحي الضلال به		للناس، حيث جموع الناس عميان!

***

الذين عرفوا أبوشادي

لم يعرف أبوشادي معرفة حق، إلا القلال من الموهوبين، ولم يدرك إنسانيته إلا الصفوة، من ذوي النفوس السمحة، هذا ما يقوله الأستاذ (السحرتي) وهو مصيب إلي أبعد حدود الإصابة فمن أقواله:

كن أنت نفسي، واقترن بعواطفي		تجد المعيب لدي، غير معيب
شعري الذي تأباه، أنفس مهجتي		وكفاه أن يحيا بنفس أديب
عبثا تحاول فمه بتحامل		إن العداء يرد كل حبيب
لو طرت في دنيا حياتي، لم تكن		إلا رقيق مسرتي، ووجيبي
ما كان هذا الشعر من لغة الوري		لكنه قلبي، وروح حبيبي

إنسانية أبوشادي:

أبوشادي إنسان خير بطبيعته، برئت نفسه من الغطرسة والغرور.

وهما صفتان يرافقان – أحيانا – بعض الشعراء، وإنسانيته تطبعه بطابع الرحمة والعطف والحب، وسعة الآفاق النفسية والتسامح وتجعله مؤمنا بأن الإنسانية آيلة إلي الخير، علي كل ما فيها من اضطراب، وفوضي وإنسانية تمتزج بصوفية سامية:

فؤادي بالمحبة يستقل		ويمنحها القلوب، ولا يمل

ومـالي خط إشـعـاع، ولكن لي كتفاه الـذي يلقاه ظل

وإنسانيته تمنحه سعة الآفاق النفسية، وتجعله بريئا من أي أثر لرواسب الماضي، يسعي إلي الإخاء الإنساني والتسامح الديني.

تسامحه مع خصومه!

وبعد أن ألمحت بإنسانيته، وبسعة آفاقه الفنية أري لزاما علي أن أعرج قليلا علي تسامحه مع خصومه. أولئك الذين أحسن إليهم، فأنكروا فضله، وأساءوا إليه أشنع إساءة، وتتلمذوا عليه فعقوه، بعد أن أبرزهم إلي الوجود بشرا فأنكروه، وليس ذلك غريبا علي طبيعة بعض البشر. لكن الغريب أن نجد رجلا مثل أبوشادي، يتسامح، ويواصل عمل الخير، متساميا بنظره فوق رؤوس أولئك الأقزام في نفوسهم، فيقف منهم وقفة الجبار، غير ملتفت إلي صغائرهم، فاسمع ما يقول في قصيدته (فن الجحود):

تعودت عرفان الجميل، ولا أري مبالغتي في الحمد تصغير من ديني
كأني استطبت الفضل للناس كلهم علي، وإن عاشوا علي الغدر والمين
وكم فاخروا بالسيئات وأسرفوا جـحـودا، بالنكاية والغبن
أحاول تعظيم الأيادي التي لهم وأصغر من فضلي عليهم وأستغني
كأن شعوري أن أراهم كأنها -وإن عجزوا- خط تمثل في عيني
فلم أر منهم غير أصغار نخوتي وجازوا سموي بالتجاهل والمن
لئن قدسوا من سامهم كل نكبة ومن بادل الإحسان بالكيد والطعن
كذلك حال الناس، في كل بيئة وقد حسبوا أن الجحود من الفن!

وقوله في أعداء العبقرية:

أما الجحود، فحظ قد رضيت به فالناس مذ وجدوا للبر أعداء

لكنها حز في نفسي وآلمها — رجمي، كأن الأيادي البيض سوداء
يا من يحاذر من فضلي ويطعنه — لا تخش ضيما، فإني اليوم أشلاء
إني لأرضي ضميري وحده، فرحا — ولن تميت ضمير الحي أنواء
لا العقل أرفعه فيما أحاوله — الجاحدين، ولا دنيا، وأهواء
وإنما هو طبع، عالق بدمي — عانيت منه، فقلبي وحده الداء
آبي لغيري إلا العدل أجمعه — وإن غبنت، وذم الناس، ما شاءوا
ولو خلقت أنانيا لما شقيت — نفسي، وقد بات في الايثار إيذاء!

جرأة أبوشادي:

وأبوشادي الإنسان المتسامح، جرئ، إلي أبعد حدود الجرأة، شجاع إلي أقصي أقاصي الشجاعة الأدبية، تتمثل جرأته في أنه لم يرهب الظلم في كل مظاهره، فلقد كان مكافحا، لم يستجد عطفا ولم يذل، أما شجاعته الأدبية فبادية في آرائه الأدبية، والعلمية، ولعل سبب ذلك أنه عاش في كنف والد صريح، محام جهير، ووالدة أديبة شاعرة، وتلقي علومه العالية في بلاد تقدس الحرية الفكرية والصراحة، فقصيدته (الموتي المشردون) تدل علي أن أبوشادي يقول كلمة الحق، ولا يخشي ما تجر وراءها من نتائج قد تؤذيه. لا هم له إلا إرضاء ضميره.

ومن آثار جرأته وشجاعته الأدبيه، قصيدته (دماء) المنشورة في مجلة (العصبة الأندلسية) وقد جاء فيها:

ويصرخ كل جبار سفيه — يغرر بالعقول ويستخف
شكته الأرض للأحرار، لما — دهاها منه تخريف، وعنف
تدين بالعهارة، ليس شر — يموه ما جناه، وليس شف

وينسب للصلاح، ولا صلاح سوي ما شاء مزمار ودف
حلال رجمه، ولو أن جمرا قذفناه به، يؤذيه قذف

العروبة في تفكيره:

وعار صلبه فالصلب مجد به ذكري (المسيح) لنا ترف

وموقفه من قضية فلسطين:

كان يرحمه الله يري أن الولاء للعروبة شرف لمصر، ولا عجب في ذلك، فهو عربي أصيل، وقد كان يؤمن بأن العروبة هي ملاذ الشرف، فمع كل تمجيده لوطن الفراعنة، ولحضارة الفراعنة، وغيرته علي مصريته، فإنه لم يدع إلي الفرعونية، ولم ينس العروبة لحظة، بل هي في رأيه بعد الجامعة الإنسانية منزلة. وله قصائد في هذا الباب رائعة تؤلف ديوانا من أمجد الشعر وروائعه منها:

أ) الأسد الأسير.

ب) الزهراء.

ج) آخر بني سراج.

د) كارثة دمشق وهذه القصيدة وإن لم تشتهر شهرة قصيدة أحمد شوقي (نكبة دمشق) التي كانت إحدي دعائم شهرة شوقي، إلا أن قصيدة أبوشادي تمتاز عن قصيدة شوقي في بعض المواقف، وكانت قصيدة أبوشادي أولي القصائد التي نظمت لهذه المناسبة، وقد جاء فيها:

ريعت لنكبة مجدك الأحلام وبكاك باسم فخاره الإسلام
يا درة الشرق الشقي بملكه أبدا، يحاول نهبك الظلام!

نكبوا (أمية) في مقر جلالهم لـكـنـها نـكـبـاتـهـم أوهـــام

سـيـعـيـش رغـــم الـسـيـف،

بـــاســـق غـــرســـهـــم وتبوح رغم المدفع الأقلام

عيشي (دمشق) وإن فجعت وإن بكت حقا عليك، مآثر وعظام!

تلك الجراح وإن تبقي ذكرها عـارا علي الجانين، قد تلتام

هـ) قصيدته تونس الثائرة.

و) قصيدته مراكش الدامعة.

ز) قصيدته الجزائر الشامخة.

ج) أمامنا عرفة.

وغيرها، ولعل هذه الأبيات توضح حقيقة هيامه بالعروبة.

ولا أنسي كفاحه المتواصل إلي أن لقي ربه وهو يدافع عن العروبة:

إن (العروبة) و(الكنانة) ملتي ديـن، يوحده الـوفي العابد

فلموطني روحي، وكل جوارحي ولكم حنيني والشعور الماجد

أما موقفه من نكبة فلسطين فقد وضحته قصائده التي تفيض في ديوانه (من السماء) وقفا علي قضية اللاجئين:

خرس، فمن عن دينهم يتكلم؟ ومعذبون لهم تقام جهنم!

جنت السياسة، مثلما جنت الوغي والظالمون الغاشمون عليهم!

أبوشادي والمرأة:

أبوشادي يري أن المرأة هي سر جمال الكون، وهي الملهمة للفن وللشعر،

وللخيال، وهي والطبيعة والوحي والإلهام، ويري أن المرأة هي آية الآيات في الكون بأسره، ولعلنا نلتقي مع الشاعر العظيم في هذه النظرة، فهي ملهمة العباقرة، ومربية العظماء، وما من نابغة أو عبقري، إلا وللمرأة فضل عليه، سواء أكان ذلك من الناحية الايجابية أم من الناحية السلبية فنحن نري أن كل عظيم أو نابغة لم ينبغ لو لم توح له به المرأة. ومن هنا نعلم أن العظيم لم يقطع مرحلة الحياة الشاقة إلا وطيف المرأة التي أحبها، أو التي كرهها يوحي له بأن يغذ السير في رحلته تلك، ليبرهن لتلك المرأة أنه شيء مذكور في الحياة. وعندنا أن سقراط نفسه لولا أثر المرأة فيه. ما كان منه ذاك النبوغ الفلسفي الخالد، فاسمع ما يقول أبوشادي:

بلغ النحيل منك غاية سؤله ... وكذا الحقيقة في الخيال تضوع؟
هل كان في الدنيا سواك رجاؤها ... أو كان غير جمالك الينبوع؟
بنت الطبيعة، أنت غاية فنها ... فعلي روائـك فنها المطبوع
تعبت ملايين القرون فأبدعت ... ووفت، فكان سناؤك المتبوع
قسما به، لولاك ما حفز النهي ... داع، ولا صحب النبوغ سطوع
لولاك، أعلنت العواطف يتمها ... وقضي علي لب الحياة الجوع
منك استمد الملهمون وأثمروا ... فالأصل أنت، وما عداه فروع

أبوشادي يرد علي متهميه بالانهزام من المعركة:

كان خصوم (أبوشادي) قد اتهموه بأنه تخلي عن تاريخه وعن كفاحه، وعن وطنيته يوم ارتحل عن مصر. وها هو ذا يرد علي متهميه، في قصيدته (لم ارتحلت؟).

سألوني: (لم ارتحلت؟) كأني ... لم أجبهم بسيرتي نصف قرن!
شاديا بالطلق من شعري الحاكي ... أغـنـي لـمـجـدهـم، مـا أغني

وحـيـاتي لعزهم في كفاح ككفاح الشعاع، في وسط دجن
مثل، لـن تجـد نوعا وعـدا كنجوم الـسماء، في كل فن
وتبلغت بالعذاب وبالبؤس مـرارا، وكل حظي التجني
وكأني وحدي المسيء بإحساني لعصري، إذ أنـه لم يسعني
ما كفاهم أني أعاني وجودي في وجـود، بقاؤه محض غبن
ما كفاهم أني أواصـل ليلي بنهاري لأجلهم، وسط من!
ما كفاهم أني أضحي بروحي حينماعزمنهم من يضحي،ويفني
ما كافهم أني لهم ذلك الرا ئد يشقي كالراح في أسر دن
ما كفاهم أني ارتضيت شقائي لي جـزاء، ويهـدمـون وأبني
ما كفاهم هذا، وهذا، فنادوا بعقوقي، وما رعوا حق سني!
ثم حالوا بين المثالية العليا لفكري، وبين سعيي وبيني!
فترحلت، حيث يحترم الأحرار وحيث الهـوا الطلق لذهني
وأظـل الـوفي، رغـم اغـترابي لبلادي، ما غيبت قط، عني

أجل، هذه أسباب رحيله، لا هربا من الميدان، ولا عقوقا لمصر التى أحبها حتى النهاية.

إيمان أبوشادي:

كان أبوشادي يرحمه الله من أعظم المؤمنين، متصوفا، من خيار المتصوفين، وما الحرب التي شنها عليه الجامدون سوي نقمة عليه، لاختلافه معهم في مفهوم جوهر الدين، فهو يرفض أن يقر بأن قوس قزح عمامة (رضوان) خازن الجنة، الذي يطل علي المصلين ليحصيهم مفرقا بين المخلص في صلاته والمرائى.

وهو الذي أوجد مذهب الأصولية العلمية في الإسلام، وكتب رسائل مشهورة علي ذلك الموضوع هي التي مهدت الطريق للكتاب النقديين المحدثين مذ نصف قرن.

أقسام شعر أبوشادي:

نستطيع أن نقسم شعر أبوشادي إلي خمسة أقسام:

أ) شعر العاطفة، ويشتمل علي الغزل. وعلي الشعر الغنائي ومنه «زينب» ورثاؤه لزوجته.

ب) شعر القصص، ويشتمل علي أقاصيصه وتمثيلياته، ومنها: إحسان، مها، بنت الصحراء، الآلهة، اخناتون، والزباء، وغيرها.

ج) شعر الوصف والتصوير، ويشتمل علي شعره الشديد الاتصال بالطبيعة، وبأشياء مادية معينة، ومنه الريح الثائرة، روائح المطرية، فإذا علمنا أن أبوشادي رسام بارع بريشته، لم تعجب إذا رأيناه لا يقل براعة في تصويره للطبيعة واندماجه بها في شعره. وهذه أبيات من قصيدته:

(غادة البحر)

هيفاء ينبض بالملاحة جسمها ... فتري الحياة من الثياب تطل
فكأنها الزهر المحجب بعضها ... بالطل، لو يخفي الملاحة طل
أو إنما هذي الثياب تحولت ... فغدت مثالا للحياة يحل
كشفت جمال الساعدين: كلاهما ... سحر لـه في المقلتين محل
فأغازل الألوان من نور جلا ... متناسق صافي الشعاع يدل
وهفت إلي الموج الطروب، فأظهرت ... قدمين، لونهما حكاه الفل

لها الرشاقة مثل ساقيها، فما	تبتل خفتها، كما تبتل
تجري وتمرح في سرور لاعب	والماء يرقص، والرمال تعل
والناس قد شغلوا بها عن لعبهم	وعن الحسان اللاعبات تخلوا
فتأملوها ذاهلين، وأسرفوا	بتأمل، هيهات منه يمل
ونظمت شعري من شعور عبادتي	للحسن فهو من الحياة أجل

أما الوصف، فمنه قصيدة (نفرتيتي والمال)، خلائق اليوم، والإسكندرية، وسواها.

د) شعر السياسة ويشتمل علي قصائده الوطنية وتمجيد العروبة ومنه (هزيمة النصر) نشيد لم يتم، فلسطين الثائرة، وغيرها.

هـ) الشعر الإنساني الذي منه شعر الصوفي والفلسفي، وهو يفصح عن إيمانه أعظم إفصاح، ومنه: المجهول، تبرئه مارس، البداية والنهاية ومن السماء وغيرها.



كانت حياة أحمد زكي أبو شادي حياة حافلة بالعمل والكفاح والعطاء الأدبي والإنساني، وعاش في منفاه الاختياري يحب وطنه ويتغني به، وظل يهتف بحب مصر حتي آخر نسمة في حياته.

ذكريات أدبية

ويستعيد الشاعر الوجداني صالح جودت ذكريات مرحلة «أبوللو» وبعض ما عرفه عن أحمد زكي أبوشادي الشاعر والطبيب والإنسان:[1]

أبوللو.. مرحبا بك يا أبوللو   فإنك من عكاظ الشعر ظل
عكاظ وأنـت للبلغاء سوق   علي جنباتها رحلوا وحلوا
وينبوع من الإنشاد صاف   صـــدي المـتـأدبـين بـه يبل

كان هذا هو الاستهلال البارع الذي استهل به أمير الشعراء شوقي، قصيدته الرائعة في تحية جمعية «أبوللو» أول جمعية أنشئت للشعر العربي الحديث في سنة ١٩٣١.

وكان منشئها هو الشاعر الذي نعته الأنباء من أمريكا في سطور قليلة: الدكتور أحمد زكي أبوشادي.

وقد نشرت هذه التحية الرائعة بالعدد الأول من مجلة «أبوللو» التي أصدرها أبوشادي لتنطق بلسان الجمعية، وتنتظم خرائد الشعراء المعروفين، وتكشف عن المواهب المغمورة في مصر والشرق العربي والمغرب والمهجر الأمريكي، وتولي النقد الأدبي عنايتها بأسلوب علمي مستحدث.

وقد استطاعت هذه الجمعية التي أسندت رئاستها إلي شوقي، ثم بعده إلي خليل مطران، أن تستحدث ثورة في عالم النقد وتنشيء مدرسة جديدة في الشعر العربي

(١) صالح جودت/ ملوك وصعاليك / مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٥٨.

الحديث تسمو برسالة الشعر عن أن يكون أداة للمدح أو القدح أو المناسبات، وتجرده من التقليد، وتنادي بوحدة القصيدة، وتحلق به فوق الذرا العالية.

وفي هذه المدرسة، لمعت أسماء خالدة في سماء الشعر العربي كإبراهيم ناجي وعلي محمود طه والهمشري وأبوالقاسم الشابي والتيجاني يوسف بشير، من الراحلين، وعشرات غيرهم من الأحياء، وفي عالم النقد أسماء أخري كالأديب المصري الدكتور رمزي مفتاح صاحب «رسائل النقد» والأديب العراقي مصطفي جواد.

والشاعر أبوشادي هو ابن المجاهد الكبير، المغفور له محمد أبوشادي بك، الذي كان من أساطين الوفد في عهد سعد، ومن زعماء الحركة الوطنية والثورة المصرية سنة ١٩١٩ وشيخ المحامين في عصره.

***

وفي حياة شاعرنا ما نراه في شعره من هيام بالجمال.. كان كل جمال يلهب شاعريته، ولكن القصتين اللتين عاشتا في قلبه إلي أن لقي وجه ربه، هما اللتان أرويهما لك هنا:

ولدت القصة الأولي في يوم يتمه، أو بعد ذلك بقليل، حين ودعت أمه الدنيا، فتزوج أبوه سيدة من بيت معروف، وكانت لها ابنة من زوج أول.

كان الشاعر يومئذ في ميعة الصبا طالبا بمدرسة الطب، وذاق لوعة فقد أمه، وضاعفت هذه اللوعة قسوة زوجة أبيه عليه. ولكن بارقة من الحنان هدهدت قلبه ومسحت دموعه.. هي الصغيرة.. ابنة زوج أبيه.

كانت طفلة شاعرية حالمة، يتحدث إليها فتصغي إليه، ويتملاها فتستجيب له، ويستلهمها الشعر فتلهمه.

وأترك لك أيها القارئ أن تتصور قوة الصراع في هذا البيت، وفي هذه النفس، وأنت تتأمل صبيا شاعر الروح في حيرته بين قسوة هذه السيدة عليه، وحنان ابنتها عليه!

أو تتأمل ما يعتمل في نفس الصبية الحلوة، وهي تحب أمها وتحب شاعرها، ولكنها حائرة بينهما إذ هما في هذا الصراع!

وتزداد قسوة الموقف، حين تعلم زوجة أبيه بأمر هذه العاطفة المشبوبة الناشبة بين الصغيرين، فتثور ثورة طاغية، وتصر علي ألا يبقي الصغير في البيت.. ويحار أبوه بين عاطفته نحو ابنه وبين الإبقاء علي زوجته، فيحاول أن يحول دون اضطراد هذه العاطفة علي غير طائل، فلا يجد مخرجا من الموقف إلا أن يوفق بين رغبة زوجته ومستقبل ولده، بإخراجه من مدرسة الطب في مصر، وإيفاده لاستكمال دراسته في إنجلترا، لعله ينسي الحب هناك.

وذهب الشاعر الشاب إلي إنجلترا فلم ينس، بل ازدادت الوقدة في قلبه، ولكنها كانت وقدة واعية حملته علي مضاعفة جهده في التحصيل والاستيعاب، حتي بز أقرانه من الإنجليز وفاز بمرتبة الشرف في البكتريولوجيا.

وكانت غاية هذا الجهد أن يظفر بشهادته، ليعود مسرعا إلي الظفر بليلاه في القاهرة. ولكن الأقدار رسمت غير ما رسم، فقد جاءه النبأ الذي كان يصفه دائما بأنه أكثر نازلة في حياته.. لقد تزوجت ليلاه!

ولم يطق الشاعر النبأ، بعد عناء هذه السنين، فتمثلت له القاهرة ظلاما ويأسا، فقر رأيه علي أن يختار لنفسه المنفي، واستقرت به النوي في «ايلنج» من ضواحي لندن، حيث أنشأ معملا بكتريولوجيا، وظل هناك موزع القلب بين عمله وآلامه.

وفي غمرة هذا اليأس، انتابه السقم وعدا عليه الهزال، ولكن يدا رفيقة حانية،

امتدت إليه تجفف عرقه وتمسح دموعه.. هي يد شابة إنجليزية كريمة، امتلأ قلبها بالعطف عليه، وما لبث هذا العطف من ناحيتها، أن أصبح جسرا عاطفيا إليه فأحبته، وأولته كل جميل.

أما هو فقد أحس بهذا الحنان الذي حرمه منذ عهد طويل، فلم يملك إزاءه إلا رد الجميل، فطلب يدها، فامتدت إليه راضية، وعاد بها إلي مصر، وسكنا بيتا هادئا في ضاحية المطرية، ورزق منها ثلاثة: رمزي وهو الآن موظف بالأمم المتحدة بأمريكا، وصفية التي أخذت عن أبيها شاعريته، وقد أصدرت منذ شهور قريبة ديوانا من الشعر المنثور في نيويورك، وهدي التي تطوعت للعمل ببحرية الولايات المتحدة عقب صدمة عاطفية.

ولما مات أبوه في سنة ١٩٢٤، ترك فراغا كبيرا في الوفد، وأراد الزعيم الخالد سعد زغلول أن يستعين بالولد مكان الوالد، ولكن الشاعر اعتذر زهدا في السياسة، والتحق بوزارة الصحة وتقلب في المناصب، وكان آخر ما بلغ إليه منها أن أصبح وكيلا لكلية الطب بجامعة الإسكندرية.

وفي كل هذه المراحل من حياته، كان يلقي حربا عوانا من الناس في كل ميدان، حتي الذين أحسن إليهم.. كانوا أشد الناس إساءة له.

وأخيرا جاءت الصدمة القاسية الثانية في حياته، إذ أصيبت شريكة حياته بالسرطان، فتعذب بعذابها طويلا، إلي أن رحلت عن الدنيا تاركة له عبء أكباده الثلاثة، فاشتد ضيق أبواب مصر في وجهه، فأخذ أولاده ورحل عن مصر، وولي وجهه شطر الدنيا الجديدة، حيث تزوج للمرة الثانية وعاش في نيويورك «المارد الضخم» كما وصفها لي في إحدي رسائله ثم رحل عنها أخيرا إلي واشنطن، المدينة

الجميلة التي تنتظم جمال باريس وسحر القاهرة.. كما قال في رسالة أخري.

***

عرفنا من نواحيه حتي الآن، أنه شاعر وطبيب بكتريولوجي، ويقي بعد ذلك أن نتبين نواحيه الأخري:

كان صحفيا متعدد الجوانب، يصدر خمس مجلات في وقت واحد!

والأعجب من ذلك، أن كل مجلة من هؤلاء كان لها لونها الفريد البعيد كل البعد عن ألوان الأخريات.

كانت أولاها «أبوللو» للشعر، وكانت الثانية «مملكة النحل» لسان جمعية النحالين المصريين. وقد كان أبوشادي ملكا لمملكة النحل في مصر، ورائدا من رواد النحالة في العالم بأسره، وله في هذا الباب جهود ضخمة وبحوث كثيرة، أشهرها بحثه الذي دعا فيه إلي تحويل سيوه إلي محطة عالمية للنحالة، تغل للثروة القومية دخلا لا يقل عن عشرة ملايين من الجنيهات كل عام!

والمجلة الثالثة هي «الدجاج» لسان جمعية الدواجن المصرية، وقد كان من كبار المربين للدواجن العالمية، وكانت في حديقة بيته بالمطرية مزرعة فاخرة للدواجن إلي جانب المنحل.

والمجلة الرابعة هي «الصناعات الزراعية» لسان جمعية الصناعات الزراعية المصرية التي حملت رسالة التصنيع الزراعي في مصر.

والمجلة الخامسة هي «الإمام» التي أصدرها خصيصا لرفع راية الأدب الشعبي في مصر، وكان محررها الأساسي هو الأديب الشعبي الكبير محمود بيرم التونسي.

كان بيرم يومئذ في باريس، مغضوبا عليه من القصر، منفيا من مصر، لأنه طعن الملك فؤاد في عرضه وطعن الملك المخلوع فاروق في نسبه، ولكن أبا شادي جعله المحرر الأول لمجلة «الإمام» بالمراسلة.. غير مبال بما تعرض له من سخط القصر ورب القصر ورجال القصر.

ومما يجمل ذكره في هذه المناسبة، أن أبا شادي هاجر إلي أمريكا قبل ثورة الجيش بعدة سنوات. ولكنه أخذ نفسه برسالة الأحرار قبل ذلك بجيل من الزمان.. ومنذ يومه الأول في أمريكا، راح في صحفها يهاجم الملك والاقطاع والأحزاب وفساد الحكم في مصر، ويدعو إلي الثورة.. الثورة التي تحققت بعد ذلك بأربع سنوات.

علي أنه لم ينقطع عن رسالته الأدبية هناك، فقد أجال قلمه في صحيفة «الهدي» العربية التي تصدر في نيويورك، وفي غيرها من الصحف، وفي إذاعة صوت أمريكا، وتحدث كثيرا عن مصر، وعن الإسلام، وعن الأدب الجديد، واستحدث نشاطا أدبيا ضخما بين أدباء المهجر الأمريكي.

ولما قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، حاول عارفو فضله أن يردوه إلي مصر، ولكن المرض كان قد أثقل عليه، وكان أولاده قد نظموا حياتهم علي المقام هناك، فاستسلم للمنفي، إلي أن لقي وجه ربه في ١٢ أبريل سنة ١٩٥٥.

***

ذات يوم، وأبوشادي في مصر لا يزال، سألته:

- إذا حانت منيتك، فما وصيتك؟

وكتب وصيته هذه بخط يده:

«أشعر علي رغم قصوري أني سرت شوطا في تأدية رسالتي الفكرية والروحية بين

أبناء وطني، وأني قمت بأكثر من واجب نحوهم وإن طمحت إلي واجبات إنسانية عليا ما أزال اتطلع إليها. وفي الوقت ذاته أشعر أني قصرت نحو نفسي ونحو أسرتي. أما نفسي فقطعة من ماضي الوطن وحاضره، وفي خدمته خدمتها، وفي إيثاره إيثارها. فلئن شكوت غبنها فلا حق لي في ذلك من الوجهة المثالية التي تعشقها. أما أسرتي بخاصة أولادي الذين أشعر أني قصرت في حقهم ماديا وأدبيا، مع أنهم قطعة من مستقبل الوطن ونفحة من نفسي، فهم من أوصي بهم هذا الوطن إذا ما فاجأتني المنية وأنا ما أزال مشغولا عن حقوقهم بحقوق غيرهم من أبناء وطني وبقدسية هذا الوطن.

إن الموت لا يخيفني وأنا القائل:

المو ت من صور الحياة وإنما في الناس من لا يفهم التحويلا

وإنما قد يمضني شعوري بالعجز عن إتمام رسالتي الأدبية.

وإني كطبيب مفكر لا يعنيني مآل جثماني إلي الدفن مصيره أم إلي الحرق، ولكني بروح الشاعر أحنُّ إلي دفني في جيرة الطبيعة التي تغنيت بها ولجأت إليها في أحزاني وآلامي وشاطرتها حبوري وعواطفي ونعمت منها بحضن الأم الرؤوم. ولو كانت لي ثروة مادية لكان لها نصيب من وصيتي، ولكني كنت المنفذ في حياتي لما يدخره الكثيرون إلي ما بعد مماتهم».

شاعرية أبوشادي

ويتناول الشاعر حسن كامل الصيرفي شاعرية أحمد زكي أبوشادي من خلال قراءته لديوان «أطياف الربيع» ودواوينه الأخري، فيقول:[1]

يقول أبوشادي وهو يعبر في قوله عن جميع زملائه شعراء المدرسة الحية: «إذا كنت أعني بنشر هذا الشعر الذي هو من فلذات قلبي وعرائس خواطري فليس للتكسب ولا للشهرة، ولا لأي اعتبار دنيوي، ولا للذة معنوية مألوفة، فإن الحافز الوحيد لي هو إحساسي أن هذه الكلمات تحمل أجزاء روحي وتؤلف صحائف نفسي وتنطوي علي صورة من المثل الأعلي الذي أعشقه أو علي أقرب خيال له. لذلك أعرضها بروح صوفية علي من تجاوبت بيني وبينهم أصداء نفوسنا فاندمجت عواطفنا المشتركة في وحدة صافية».

والشعر في رأيه «هو تعبير الحنان بين الحواس والطبيعة. هو لغة الجاذبية وإن تنوع بيانها».. و«أن مبعثه التفاعل بين الحواس ومؤثرات الطبيعة، وغايته العزاء والاحتماء بهذه الطبيعة، وإن تضمن أحيانا الغضب والسخط، وما هو إلا غضب الأطفال الصغار».

لهذا نسمعه في ديوانه «الشفق الباكي» يرد علي المتسائلين عما هو الشعر؟ في قصيدته «الشعر العزيز»:

(١) ديوان أطياف الربيع / مطبعة التعاون - القاهرة ١٩٣٣/ دراسة حسن كامل الصيرفي.

وتساءلوا: «ما الشعر؟» قلت أعزه ... لغة الجمال وصورة الاحساس
لا خير في النظم المنمق لاهيا ... بالسمع لا يغذو عقول الناس
يستحضر الفخم الخيال مزوقا ... للوهم لا للخاطر الحساس
متجردا عن فهم آمال الوري ... وحقائق الدنيا وواجب آسي
متكلفا يرضي القشور غذاءه ... وحياته مقرونة بلباس
وأري الجمال مجملا في ذاته ... وأري الملاحة في بساطة كاسي
والعمق في التفكير قبل صياغة ... ومآثر التفكير للمتناسي
فدعوا الزخارف والوساوس، إنها ... كملاعب بنيت بغير أساس!
لا الصدق يقلبها، وليس لمثلها ... نفع ولا أثر من الإيناس
الشعر مرآة الشعور، مقامه ... أسمي من التلفيق والوسواس

هذه نظرته إلي الشعر، وهذا تعريفه له، وذلك منهله الذي يعب منه. يجد في الطبيعة وحيه الصادق يستلهمها فتوحي إليه، ويتأملها فتحنو عليه، فهو مفتون بها، يلتفت التفاتة المغمور حسه إلي من ينهرونه عن الإغراق في تأملاته وتصوراته قائلا:

لا تنهروني لتصويري محاسنها ... إن الطبيعة إلهامي وأستاذي!
أو تنكروا صوتها الوافي إلي أذني ... فربما لم تبح إلا لأفذاذ
جعلت شعري صفات من بدائعها ... فإنما لسناها يحتذي الحاذي
وقد تمثلتها في كل ما وهبت ... هذي البراعة من راح ومن ماذي
صورت في الشعر
إحساسا يلاذ به ... فهل تعيبون إحساني وإنقاذي؟!

فهو يري رأي (مابي Mabie) «إن الشعر تفسير ذاتي للحياة» يجب أن يكون

كمرائيها بسيطا فيما هو بسيط منها، عميقا فيما هو عميق منها.

لهذا نري دواوين شعره كالحياة أو هي الحياة تزخر بالأطياف والمرائي، وتدوي بالأنين والرنين، ويتراءي علي جوانبها شفق باك، ونراه بين هذا كله شعلة تحترق لتضيء.

نظرته إلي الحياة

نشأ الشاعر كالزهرة تفتحت للنور علي حب نعم فيه وبني الأماني وغذاه بروحه وغذته بروحها وكانت مبعث الشرارة الأولي، «ومنبع الوحي الذي ذاق حلوه، صبيا»، وظل بعد ذلك وفيا له بعد حرمانه إياه يقدسه في خياله ويذكره فيما يري حوله من جمال يذكره به.

ولقد كانت لصدمته في حبه أثر قوي في نفسه حوله أول الأمر عن لذات الحياة فراح ينظر إلي الجمال الذي كان يريد أن يستأثر به نظرة الصوفي الذي يقنع بالسر العميق دون أن يقترب من الهيكل فهو يقول:

مذهبي في جلالة الحسن أن لا ... يغتذي نعمة تحب لتفسد
أكثر الحسن ما يصان ليشقي ... إنما الحسن ما يصان ليعبد

وراح يتلمس العزاء في غربته، وهل في الغربة عزاء؟ يتلفت فلا يري حوله من يحنو عليه إلا الطبيعة موئل كل شريد وحيد، وهذا سر حبه للطبيعة والإشادة بها في شعره والاعتراف لها بالأمومة، وفي قصيدته «لفتات الغريب» في ديوان «زينب» من الحسرة الأليمة واللوعة الخالدة ما يذكرني باللهب الذي لا يخبو في قصيدتي «البحيرة» و«الوحدة» للامرتين وفي نونية ابن زيدون، فهو ينثر فلذات قلبه في ثنايا سطورها صارخاً:

ألا في سبيل الحب والأمل الغالي ... عذابي عذاب النفي في الجبل الخالي
شريدا وحيدا، للطبيعة موئلي ... أكفكف دمعي في أشعة آصال

وأندب عمري قد تولي أعزه ولم يبق غير الذكر والمثل العالي
كأني لما لاقيت من فرط شقوتي خلقت لأعطي الدهر حكمة أجيال!

وتبدو في هذه القصيدة نار الثورة التي اندلع بعد لهيبها فحولت ذلك الفتي الباسم للحياة إلي شيخ عابس فيقول:

فبنت صبيا في رجولة ناقم علي الدين والدنيا، علي الشرف البالي!

ثم يحس الألم يأخذ من قلبه كل يوم ما سوف يلاشيه فتزداد لوعته ويعظم ألمه، يستشعر حبيبته تحت عبء الألم يهدها هدا ويحطمها كما يحطمه، فيهتف بها في لهفة من قلب رحيم يأبي لها الألم وإن كانت مصدره:

بالله يا نعمي غرام الصبًا لا تُسرفي حزنا علي ذنبك
حسي ووجداني وكلي الفدا للأكمل الأجمل من دأبك
إن عشت لم تنسخ صلاتي النوي أو مُتُّ ناجاني هُوي تربك

هذه النفس الصافية التي غمرها الحب فأنساها حتي الألم، هذه النفس التي تجرع كأس الألم المرة حتي الثمالة خوفا من أن تشرب هذه الكأس من لا يغفل عن ذكرها، بهذه الروح الصافية التي تهتف بحبيبته أن لا تسرف حزنا علي ما جنت نحو غرامهما، بهذه الروح كان يستمع إلي صدي موسيقي عرسها يتردد بين الخفاء والجهر في طيات الهواء فيستعذب ذلك الألم، شأن الصوفي الذي يستعذب حرمان الجسم في سبيل متعة الروح فيقول وتحس في قوله ضعف الخائر هده الألم وأخفتت صوته اللوعة المكبوتة:

عذبة أنت في الخفاء، وفي الجهر وفي الهجر يا أغاني الظلام
بلغي العاشق الأمين علي العمر شقاء لقلبه المستهام
وارقإي أدمعي، فحسبي عزاء أن يسر الحبيب من إيلامي!

ويــزف الجـــمال، جنة قلبي ضاحكا من فؤادي المترامي!

أي سمو إنساني ذلك تبلغه تلك الروح وهي تناجي الموسيقي التي تشعل قلبه؟! أي نفس تلك التي يلذ لها التحرق سرورا لحبيبها؟! أي نفس تلك التي تري العزاء في فرحة الحبيب الذي سقاها اللوعة والألم وجرعها الحسرة ومرارة البكاء؟!

إرقـإى أدمعي فحسبي عزاء أن يسر الحبيب من إيلامي!

ويــزف الجـــمال، جنة قلبي ضاحكا من فؤادي المترامي!

وكم في الشطر الأخير من معني بديع يخيل لي منه أن قلبه كان لحنا شاردا نغمة بعد أخري علي ايقاع تلك الموسيقي!

هذه التضحية السامية علمت ذلك الشاعر معني الجلد وبثت في ضعفه قوة، فكان كالتائه في الصحراء يملأ نفسه وهو لا يري موضعا لعزاء، فنسمعه يناجي قلبه:

ثق بالحياة ولا تخفق علي عجل ياكاره العيش من حب ومن وجل

أنفقت فيك دموعا كم بررت بها هل بعد عهدي النوي تدني له أجلي؟

ثق يا حليف الهوي بالحب أين مضي وعش له في خفوق الرفق والغزل

مسبحا باسمه المعسول ملتمسا من نقمة الهجر فرض البر والأمل

كذا يضحي الوفي الأنس مغتبطا ويطلب الصفو في الآلام لا الجذل

لو لا العذاب، ولو لا البر ما عرفت جلالة الحسن فيك النبل من بطل

ويستمع إلي دقات قلبه المتصدع تخفق للحياة ويحس فيه الثورة والعاصفة صخابتين، يري غضبة الحب لانكساره وهو السلطان القوي فيقول:

في كل دقة لحن منك عاصفة وكل خفق لك القتال من زجل

يدوي دويا بك الغالي: دم عرفت به الصبابة لون الحب لا الخجل

كأنها الوحي لا سلك ولا سبب — من لحظها العمر يزجيه بلا ملل
ترف كالطير مذبوحا وفي قفص — أو كالرضيع هنا شوقا إلي قبل!

حتي إذا أعياه الصبر علي مضض هذا الألم، وأنهكه جهده في العزاء كان هو «القيثارة المتعبة» التي يقول فيها:

يا للمحب هواه دينه — يستصرخ الدنيا أنينه
ويذوق أنواع العذاب — كأن أعذبها جنونه
لا يستقر له الفؤاد — وكم يدق به حنينه؟
دوما على نغم البكاء — وقلما يبدو رنينه
قيثارة الحسن الضنين — فليت يسمعها ضنينه
لا تستريح مدي السنين — وكم تؤرقها سنينه!

وفي هذا الإعياء تحت عبء الألم الثقيل كانت تعاوده الذكريات كما تعاود العين سنة النوم فيستعيد المني الذاهب في حلم كما تستعيد الزهرة جمالها الماضي في العطر المخلد. يذكر حبيبته ويريد أن يذكرها بانقاذها إياها من حريق وهي صغيرة، ويذكرها بالسويعات التي كانت تجلس فيها إليه ليساعدها في دروسها وما كان يلقنها إلا الحب من أصفي منابعه، يذكر ذلك وهو تحت عبء الألم مغمور في بعده، يذكر إنقاذه إياها من النار ويحس في قلبه نارا ولا يري من ينقذه فيقول في قصيدة «شر الجزاء» في ديوانه «أنين ورنين»:

أغثتك من شر اللهيب صغيرة — فأوقدت بي أقسي اللهيب جزائي
وأخلصتك التهذيب من قلب شاعر — وفي ولكن ما صدقت رجائي
أغثتك جسما ثم روحا وفطنة — فكلك عدلا من حقوق وفائى

وتأخذه عزة المحب الذي يملأ النور قلبه، ويشربه الصفاء كأسه، والنبل والشرف من ينابيعهما ما يفيض به شعره من صوفية وجلال، ويري يد الأقدار تريد أن تمتد إلي ذكرياته فتحاول أن تسلبها فيصدها في عزة وإباء:

ولكن لي في الحب نفسا عزيزة ... ولن يقتل الهجران نبل إبائي
أغازل في الذكري نعيما لنا مضي ... وأشفق أن أشجيك من برحائى
وأخدع نفسي بالخيال معللا ... كما يخدع الرائى خيال سماء!

في هذه الفترة من حياة الشاعر الضائعة بين ألم مفن وأمل محيي كان الشاعر ينتقل من حالة إلي أخري. أصبحت العين التي تأخذها نظرة والقلب الذي تجره شعرة، أصبحت هذه العين أثبت نظرا وأعمق تدقيقا، وأصبح ذلك القلب موئل غايات عظام وأحلام طوال المدي بعاد المقصد.

انتقل الشاعر من دور المحب الباكي علي نفسه إلي الفيلسوف المفكر في شئون الوجود، الباكي علي عناصره وأجزائه، الباعث فيها علي قدر استطاعته بسمة ونغمة، الضاحك في وجهها لتضحك، الهازئ بآلامها لتهدأ، وسمعناه يهتف بالحزين العابس المكدود:

تبسم للحياة وكن سبوحا ... علي غمراتها مثل السقي
وكن كاللوتس الضاحي هنيئا ... وإن لم ينم في ماء نقي
تعود حظه وأضاء زهرا ... وعاش بنعمة الحر التقي
فتعشقه العيون بلا سكون ... ويقنع بالحنين المشرقي
وما سر الحياة سوي احتمال ... سواء للهني وللشقي

وسمعناه وقد نظر إلي الحياة ورأي مصاعبها ونعمتها، ورأي أنها هي ما يغرس الإنسان من شوك وزهر، وإنها متحولة متجددة، يقول:

وإذا تأملت المصاعب لم تبن   إلا حسان الوعظ والإحسان
وإذا نظرت إلي الحياة وجدتها   ما أنت، لا قدرا من الحدثان
هي ماغرست بشوكها وبزهرها   فانزع عن الأشـواك للريحان
كم من جمال رائع، كم نعمة   فيها، فكيف تساق للأحزان!
شـأن الحـيـاة تحـول وتجـدد   يتلو القديم بها الجديد الباني
فاصبر علي عسر التنقل واعتقد   أن الحياة حليفة الـدوران

ويقول:

إقـبـل عـزائـي إن رشـدت   ولا تضاعف مـن عذابك
واضحك علي نـوب الحياة   فـرب خـير في مـصابـك!

ثم يلتفت نواحي الكون وقد علمته الأحزان كيف يواسي فيري «أوراق الخريف» تتساقط كما تتساقط الأماني المخضرة بعد أن تذبل وتعصف بها العوادي وكأنها يحس في أوراق الخريف نفسه المتناثرة فهو يناجيها من أعماق قلبه:

هل كان نثرك غير إيذان بعمر قد تقضي؟
هل كنت إلا رمز أحلام نفضن اليوم نفضا؟
مصفرة شأن المهات بحمرة تحكي النجيع
فكأنها قتلتك أحكام الخريف بلا شفيع!
يرثيك قبلي الطير، كم أنقذته يا فانيه
كم كنت ظلا يتقي فيه العوادي القاسيه
ترثيك آلاف الأشعة.. من غرام كم تجلت!

متكسرات في دلال، بالزمرد قد تحلت!
يرثيك باكي الطلّ كم أرضاك من بعد الندي
كم كنت باسمة لتحييه وتعطيه اليدا!
يرثيك ذاوي العشب محزونا لما يجني الخريف
يرثيك لا خل يواسيه وقد غاب الحفيف!
ترثيك أفـئـدة لعشاق وهبت نقابهم
واليوم لا ترضي الطبيعة أن تجيب طلابهم
يرثيك عقل الفيلسوف يراك لغزا مذهلا
العيش، والموت المعجل، والرجاء المقبلا!
يرثيك شعر النحل كم غنت لديك مرنحه
بين الأزاهـير السخية والغصون المفرحه
ترثيك أنات سمعن من الجداول في الخرير
قد كن أنغام الـسرور فصرن آلام الزفير
ترثيك دنيا قد تركت وأنت سكري راضيه
لا تأسفين، فإن روحك روح دنيا ثانيه!

في هذه القصيدة دنيا من التأملات والخيالات، ومجال فسيح للتفكير، إلي جانب ما فيها من روعة الروح الشعري القوي الذي يمتاز به الشعر العصري والذي يغبط عليه الأدب الغربي أدبنا. في هذه القصيدة عوالم يسبح فيها المتأمل سبحة المصلي في ملكوت إلهه.

تحول شعر أبي شادي ناحية الفلسفة والتفكير وكان هذا الدور دور نضوجه

الشعري، فأصبح لشعره مدي بعيد. كان لا ينظر إلي الشيء كما ينظر الناس بل ينظر ليبحث، ولا يقنع بالبحث السطحي وإنما يتعداه إلي العمق الذي تكل العيون وترجع حسيرة دون أن تبلغ من إدراكه وطرا.

أصبح يري في العذاب لذة، يراه كما يقول ورد بيتشر (Ward Beecher) «العذاب بعض من فكرة إلهية»، وكم في قول أبي شادي:

هون عليك ففي العذاب لذاذة　　إن كان قربانا وطوع هيام
لولا ظلام الليل ما قدر الضحي　　لُبٌّ، ولا عرف التطلع سامي

من فلسفة عميقة كما في قول بيتشر! ونحس هذا العمق في سونيتته الغنائية «نور الجحيم» من ديوانه «مختارات وحي العام» حيث يقول:

إذا كنت أبكي لعسف الحياة
فهيهات أبكي لقلبي الحزين!
لكنني أشجي لمن قد شجاه
من عيشه طول العذاب الدفين
لقد ذقت صرفا ضروب الألم
فصارت لنفسي كبعض النعيم
فإن كان بثي حليف النغم
فيا ربما النور بعض الجحيم!

لقد بذل كل هذه الجهود التهذيبية والإصلاحية عن طريق الهيئات والمجلات التي أنشأها وابتدعها بروحه المتسامية الوثابة البعيدة المرمي، فرأي جحودا وحسدا وعداء عنيفا ممن يعمل لخيرهم! تسمع ذلك في قصيدته «وداع البحر» التي كتبها وهو

يغادر الإسكندرية:

أجود، وكم أجود بكل نفسي ... فتجحد لي الضحية والجميل
ويمرح في الذي أسديه غرٌّ ... ويطعنني المغرر والثقيل
بلاد حبها بدمي أصيلٌ ... وإن يخذل بها الحر الأصيل
وليس بحجة إنصاف فرد ... وفرد حين يضطهد القبيل

وتسمعه يألم لفراقه الإسكندرية حيث الجمال، وحيث عشق الشاعر منها مفاتنها فأخذت من دواوين شعره حيزا كبيرا، يفر من ذلك الثغر ليعود إلي القاهرة فيستأنف العذاب والكفاح والجهاد بصبر ما دام في سبيل الوطن وإن خذله أبناؤه.

نسمعه يقول:

أفر من الجمال ومنه روحي ... إلي حيث الكفاح هو الزميل
إلي حيث العذاب يحز قلبي ... فأحتمل العذاب ولا أميل

وطنيته:

مرت علي القارئ صور عديدة ظهر فيها أبوشادي الحامل علي البيئة المصرية والساخر منها في جهلها المحبوب لديها وتحزبها المرئ عندها.. فلأي مبدأ يميل أبوشادي؟ وفي أي وجهه تتجه وطنيته؟

في ديوان «مصريات» نلمح الشاعر كما قلنا متفائلا يعضد الحركة الوطنية ويغذيها بشعره. فإذا تحامل بعض التحامل فعلي فئة قليلة لم تؤثر في الأمة، وكان يري معني الزعامة متجليا والوطنية خالصة والصفوف متآلفة إلا من ندوا وما كانوا إلا قطعا من سحابة صيف، فزخر ذلك الديوان بتمجيد وطنيتنا والقائمين بها، غير أنه في ذلك

لم يكن ينظر إلا من ناحية سامية خالصة فقد كان يعبد الوطن ولا يعبد الأشخاص.. يري مصر فوق الجميع، حتي إذا دب داء الشقاق في الأمة وسرت فيها علة الزعامة فأنقسمت أحزابا وشيعا وأخذوا يتراشقون السهام والمطاعن - والعدو هازئ بهذا وذاك - ثارت نفس الشاعر واصطبغ شعره بلون نواح متحسر، صاخب ثائر علي أنه ما انحاز ناحية بعينها بل وقف أيضا ينظر إلي مصر الحزينة، وراح يبكي الوحدة القومية ويرثيها، وقام يؤدي واجب الخدمة لبلده في الجو الهادئ من نفسه لما رأي أن صوالح البلد ديست تحت أقدام الشهوات الحزبية العمياء. راح يؤدي لها الخدمات في الدائرة التي يستطيع تأديتها فيها فكان جبارا وجه الأنظار إليه، علي أنه لم ينج في ثورة الأخلاق المحطمة من سخرية العابثين فلم يبال ولم يكترث وسمعناه في قصيدته «الوطنية» في ديوان «الشعلة» يقول فيها:

بلادي علي رغمي أحبك دائما ... وإن كنت دارا بالعقوق بناؤها
وهبتك عمري قبل مالي وصحتي ... وما صحتي ما دام عندك داؤها؟!
وضحيت أولادي ورزقي ولم أزل ... أضحي ونفسي لا يلبي نداؤها
وكم لائم حبي وآلام مهجتي ... وفي يده إنصافها ورضاؤها
ولم تشك إلا في سبيل بلوغه ... وإلا فأشهي ما تلاقي بلاؤها
فلا تلم المثّال والطامح الذي ... لأمته يحيا ليحيا رجاؤها
فما اللوم يجديه إذا كان لبه ... أسيرا لدنيا لا يحد فناؤها
ويأبي إباء أن يحلق وحده ... وإن خصه منها وحيدا عناؤها

وكما في قوله:

إذا المثل الأعلي تملك مهجة ... تساوي لديها صفوها وشقاؤها

من فكرة إلهية، من سمو فوق الحياة، ومن بأس غلاب وهمة جبارة، من تفان في المثل الأعلي: ذلك الساحر كالمجد، الفتان كالمرأة الجميلة، الهازئ بشقاء الحياة ومتاعبها، الساخر من آلامها وأحزانها، المستعذب عنده كل ما في الحياة من أرزاء!

لهذه الفكرة القوية نري شاعرنا ينظر إلي الناقمين الثائرين عليه من أبناء وطنه نظرة المتسامح الذي لا يندم علي ما أدي نحوهم من خدمات رغم جحودهم فيقول في ديوانه «أطياف الربيع» من قصيدته «الناقمون» :

أسفاعلي وقت أضعتُ ولا أسي! ... مهما شكوتُ فلستُ من يتندم

من ذاق مهزلة الحياة فإنه ... يُعطي ويسخر من تجاهل من عموا

يعطي ويأبي أن يدان وإن يكن ... ينسي له الفضل الرجيح ويُرجم

وبكل آن صدمة لشعوره ... وبكل يوم للعواطف مأتم!

ولهذه الفكرة القوية التي تغلب اليأس دون أن يتطرق إلي نفسه المغمورة بحب سام نحو وطنه نسمعه ينسي هذا الجحود، ويتجاوز كالأنبياء عن اساءاتهم في قصيدته «بلادي» من ديوان «أطياف الربيع»:

بلادي! بلادي! أنت في كل حالة ... بلادي، وإن لم تعبئي برغائبي

حرام رجاء المنطق الصدق صادقا ... لديك، حرام يا بلاد العجائب!

يحارب فيك الفضل والنبل بينما ... يمجد فيك النقص من كل جانب

هذه الحسرة التي رددها الشاعر مرارا حسرة خالدة في نفسه، وإنه لعلي حق في حسرته، فإن النفس ليغمرها اليأس حين تري الجحود ينكر خيرها وحين تري أن الحب غايته الخيبة فيقول:

طبعت علي الحب الذي قد بذلته ... لمجدك حين الحب غاية خائب

فجوزيت بالإيلام من كل عاثر | أغثتُ، وبالحرمان من كل صاحب
كأن الجميع استوثقوا من محبتي | وغالوا بيأسي مذ تغالت مطالبي

علي أن نفس شاعرنا لتنتفض من حسرتها وتخلص من يأسها، وتتجرد من كل ذاتية وأثرة فيقول:

وما أنا في نفسي لأطمح مرة | لأكثر من عيشي بعزلة راهب
ولا بأس لي إلا ضميري ومبدئى | ولا مجد لي إلا خلوص مواهبي
وأكبر ذنبي همة ما تراجعت | فلن يرهب الإيمان أقسي العواقب!

ولست بمحتاج هنا إلي إثبات وطنية هذا الشاعر رغم ما يلاقي في وطنه من العنت ورغم ما يحفه من دس وحسد، وعندنا قصيدته «منازل النيل» من ديوان «أطياف الربيع» تلك التي انبعثت من نفسه حسرة وألما من غطرسة أجنبي رآه في سفره إلي الإسكندرية يجلس كأنما مفاتيح الدنيا في يده، فهذه القصيدة دليل ناصع علي هذه الوطنية القوية.. تسمع فيها زفرة حارة ساخطة علي الامتيازات الأجنبية التي تخول للدخيل حق العجرفة علي أبناء الوطن الوادعين المكرمين لضيوفهم.. إن القارئ سيحس أن نار هذه القصيدة قد لطفتها نسمة رقيقة ولا يدرك السر في ذلك، فإذا عرف أن الشاعر عندما كان يكتب هذه القصيدة وهو يري المتعجرف أمامه وعلي مقربة منه فتاة آية في الحسن والروعة أدرك أن للحسن أثره في تلطيف هذه النار.. غير أن القصيدة لوعة وأي لوعة حين يتدفق سخطه علي الامتيازات الأجنبية قائلا:

منازل النيل من أعطي الغريب مدي | هذي العهود فأحياه وأفناني!
أنا ابن مصر، أنا الباكي للوعتها | أنـا المخلد نجواها بألحاني
أنا الـذي أتناسي ما أنـوء به | لكي أعبر عنها ملء أحزاني

فإن أفراحها ليست سوي فرحى ... وإن أشجانها همي وأشجانى

ثم يري حوله أدوات دفاع ولا دفاع، وقوة ولا نجدة، لا يري إلا عالما كرقعة الشطرنج فتتملكه الحسرة فيهتف ساخرا:

منازل النيل! هذا حالنا عجب ... فكلنا قائد في قيده عان

كأنها عظة التاريخ ما عرفت ... أو أن أحداثه أحداث بهتان

فيم الجنود وفيم القائدون لهم ... وهم بلا خطة ترجي وميدان؟

نستعرض الجيش والنيران صارخة ... ونحن نشعل نيرانا بنيران

ثم تزداد به اللوعة حين يري هذه الجنة قطوفها دانية للغريب، حين يري الدخيل قد استحوذ علي مرافقها وما خلقت له فيصرخ قائلا - وهنا نحس قوة النار واندلاع لهيبها:

منازل النيل! هذي جنة انف، ... فكيف تترك خلودا دون جنان؟

كيف العبيد لسكناها وما خلقت ... يوما لمسكن أنجاس وعبدان؟

أين البطولة غنينا بها زمنا ... ولا نزال نغني ملء أزمان

حتي تعيد جلالا بات منصرما ... فلن يقوم جلال بعده ثان

المرأة وجمالها وأثرهما في شعره:

سمعنا أباشادي في صباه يقول لنا مذهبه في الجمال:

مذهبي في جلالة الحسن أن لا ... يغتدي نعمة تحب لتفسد

أكثر الحسن ما يصان ليشقي ... إنما الحسن ما يصان ليعبد

ثم لقي في حبه ما لقي، وكان الجمال سببا في تعرفه إلي الألم، وانتقاله إلي واديه العميق بيد أنه كان يقول لنا:

وأنا الشفيق علي الجمال وإن قست　　　وجنت محبته إزاء مصيري

فعاد بعد ذلك يرينا نهاية هذه العبادة في قصيدته «حمام سايك» من ديوان «الشفق الباكي» ويقول:

كنت في ميعة الصبا من ينادي　　　من فؤادي رهن الجمال تعبد

«مذهبي في جلالة الحسن أن لا　　　يغتدي نعمة تحب لتفسد

أكثر الحسن ما يصان ليشقي　　　إنما الحسن ما يصان ليعبد»

ثم دار الزمان دورة نحس　　　وفـــؤادي بـحـرقـة يتوقد

وغدوت الشهيد من روحي الساجد　　　للحسن بـل إلهـي الموحد

قذفتني أحكامه في يد النفى　　　إلي البؤس والعذاب المجدد

وأنا الثائر الذي دام في الثورة　　　كـالخـاضـع الــوفي المسهد

نـــافـــراً، ســاخــطــاً، ذلـيـلاً　　　والجوي كالهوي به ليس ينفد

فإذا بي مازلت من يحسب الحسن　　　عـزاء الـوري الثمين المخلد

هو لبي وملهمي وغذائي　　　ورجائى من النعيم المجسد!

وراح يسمعنا رأيه في الجمال ويقارنه بكل ألوان الحياة، فيقول:

وجميع الحياة عندي أطلال　　　سوي الحسن فهو دين ومعهد

كانت المرأة وكان جمالها سببين في خلق شاعرية أبي شادي، وكانت المرأة وكان جمالها سببين في خلق آلام هذا الشاعر. وكانت المرأة وكان جمالها سببين قويين في التأثير في شاعريته وفنه. والجمال كما يقول جيته: «المبدأ الأسمي للفن والغاية الأسمي له» فسمعنا شاعرنا يقول في قصيدته «حلم الغابة» من ديوان «الشفق الباكي»:

وعشت عيشة صوفي رأي أبدا في كل حسن هوي يدعوه فتانا
فما حييت شقيا في مغاضبة للعيش مهما قسا أو عشت غفلانا
بل رمت كل جمال، ثم شمت به حبا يجدد أرواحا وأبدانا
فعشت أنهل من دنياي بهجتها بغير إثم، وألقي الصفو نشوانا
وبينما دام غيري في أذي قلق حتي تحول بالوسواس شيطانا
حييت كالنور أجلو كل ما وقعت عليه عيني وأزهي منه حليانا
وصار لي الكون نفسي فهي مذ رضيت تبسم الكون غريدا وضحيانا
ولم أزر غابة إلا علي حلم هو العيان جمالا بث تحنانا
ولا تنقلت إلا وهو يلزمني فصار فني لما صرت فنانا
يئن غيري بأوهام تساوره بينا لقيت الهوي والحسن، ألوانا

كما قال يفسر الحسن في قصيدته «ما هو الحسن؟» من ديوان «الشفق الباكى»:

ما هو الحسن.. ليس غير شذوذ في اتساق يجاذب الإنسانا!
نصفه يلهم الحياة لآتيـ
ـه، ونصف ممثل ما كانا

ويعني هنا بالنصف الأول سمو الحياة الآتية المطردة الجمال، وبالنصف الثاني الفطرة الطبيعية في ماضيه:

فالجمال الحياة في مزج دوريها بذكري تنعم الوجدانا
وهو في الفن حيث كان لأن الفن دنيا تمثل الإحسانا
يتمشي مع الجمال قرينا وبيان للحياة البيانا

وظـلال من المعاني التي تو   حي اندماجا في كوننا وافتتانا

لهذه الغاية التي يسعي إليها أبوشادي في حبه للجمال وتماديه في هذا الحب، غاية تحويل هذا الحب إلي فن خالص، نراه يريد أن يجعل الفنان مسيطرا علي الجمال، ويريد أن يحلل للفنان كل شيء، فإن الفن يحول الشهوة صوفية وسموا. وإني لأحسب أنه لو كان أبوشادي ديكتاتورا علي العالم لكان أول همه تحويل النسل ناحية الجمال ولحرم القبح علي الناس فأباد أهله حتي لا يبقي إلا الجمال الخالص وكان قد حول العالم إلي فن فأصبحنا نري الناس أجمعين فنانين:

كل الحرام حلال للفنون، فما   غير الفنون لها في الدهر سلطان!

هذا هو مبدؤه، وهذه رغبة كل فنان يعرف ما هو الحرام..

إن للحرام عند الفنان معني غيره عند الناس، فاستمع إلي قول أبي شادي في قصيدته «الزهر الناعس» من ديوان «أطياف الربيع»:

يـا زهـر هـل يغني الخيال   عـن نـفـح عـطـر سـاحـر؟
يـا زهـر هـل يـدري الجـمال   إلا فـــؤاد الـشــاعــر؟

وقوله:

غـيري يشمك ثـم يلقي   بـك ناسيا حتي الجميل
أمـا أنـا فـيـصـون شوقي   لـك كـل مـعـنـاك الجميل

وقوله:

إني خلقت لكي أعيش كخالقي   للفن في عيش حليف نقائي
عيش أوحد فيه كل صبابتي   وعبادتي وتعشقي ورجائي

وقوله في قصيدة «النظر الجرئ»:

لا ترهبي نظري الجرئ ... هو لن يسيء ولو أسيء
هو نشوة الحب الطهور ... ووثبة الروح المضيء
روحي تطل عليك منه ... وتجتلي القدس الوضيء
وتعب من هذا الحنان ... شراب كوثرها الهنئ
هو خلسة من نعمة ... علوية ليست تفيء
خطفت من القدر العتي ... لدي ظلال من هدوء
فعلام نخشاها وما ... فيها سوي السكر البرئ؟

وقوله من قصيدة عنوانها «عبادة»:

لولا شعوري بالجمال منزها ... ما صغت من غزلي المنزه آيتي
وأري التنزه للجمال ولاءه ... للفن حتي يعرفا بجلالة

وقوله من قصيدة «عودة الطائر»:

أرسلت روحي حرة ... بين الأغاني والضياء
حتي أراها مرة ... تحيا حياة الأنبياء

فإذا استمعت إلي ذلك فاستمع أيضا إلي قوله في قصيدة «ليلة في المعبد»:

فلما ضمنا الحب ... وكم للحب إعجاز
طرحنا العقل حين القلب ... وثاب ونهاز
ففاض الشعر من لحظي ... ومن قلبي وأنفاسي
وكدت أذوب في قبلات ... أشواقي وإيناسي

أبـيـنـا الـنـور: فالقبلات ... شـعـلـة مـهـجـتـي الحـري
ولم أحفل بصوت الوقت ... أو بهـواجـسـي الحـيري
فـمـن ثـغـر إلي نهـد ... ومـن نهـد إلي ثـغـر
مـنـاهـل لـلـحـيـاة وعـت ... أحـب مـنـاهـل الـشـعـر
نعمنا بـاحـتـضـان الحب ... نـعـمـة مـن تـبـنـاه
فـلا هـو مـفـلـت منـا ... ولا نـحـن زجـرنـاه
ويـعـبـث ضـاحـكـا أبـدا ... كـما شـاءت أمـانـيـه
فـضـجـعـتـنـا مبـانـيـه ... ووثـبـتـنـا مـعـانـيـه
يـنـاولـنـي تـفـنـنـهـا ... وطـعـم الـشـوق مـن فمها
فـاسـحـر مـن تخايـلـهـا ... وأسـكـر مـن تـألمـهـا!
وأعـشـق كـلـما يـبـدو ... عـلـيـهـا مـن مـعـانـيـهـا
مـعـان كـلـهـا فـتـن ... ولـكـن لـسـت أدريهـا!
فـأنـشـقـهـا وألـثـمـهـا ... وأرشـفـهـا وأطـويهـا
وألـبـث حـائـرا أبـدا ... عـلي شـغـف أنـاجـيـهـا!

وقوله في قصيدة «الجمال العربيد»:

فـلـثـمـتـهـا، ولـثـمـتـهـا ... وضممتها ضـم المـروع
وجعلت للقبلات أصـداء ... الـتـحـيـة والـولـوع
وكـذلـك الأرواح ... كالأجسام تظمأ أو تجوع
وكذلك الأنفاس كالألحاظ ... تـنـطـق بـالـدمـوع

إلي أن يقول:

قبلتها فلثمت احلامي ... وأطياف الربيع
وضممتها فضممت أغلي ... النور من رب وديع
لا الروح تشبع، لا، ولا ... قلبي بخفق يتئد
نهم علي نهم وجود ... لا يمل ولا يحد
حتي إذا سقط الرداء ... وقد يراد سقوطه
هرع الهوي للحسن يحمي ... ملكه ويحوطه!

وقوله:

خذ يا فؤادي ما اشتهيت ... من الجمال الشارد
الآن في قفص الغرام ... بدا خيال الشارد
هو معبد لم يدره ... إلا الهواة الملهمون
فيه الفتون مع الفنون، ... وحبذا هذي الفنون
دنيا من الشغف الطليق، ... ومن جنون العابدين
قد بات يحرسها الزمان ... وقد وفي للعاشقين
لم أرض مرحمة لها ... أبدا ففي العنف الحنان
وعصارة الروح الحبيب ... يجلها هذا الهوان
أنهكتها إنهاك صوفي ... تبتل في الصلاة
هذي مناجاة الجسوم ... حكت عبادات الآله

أو قوله في قصيدة «الفنان»:

ونـمـنـا نـومـة الحـب وعـطـر الحـب فـيـاح
بـجـسـم كـلـه عـبـق وروح دونهـا الـراح

أو قوله في قصيدة «امرأة الأبد»:

يا منهلا للروح لا تتطلعي للخلد مصغرة هوي الأبدان
هيهات تحيا الروح دون كيانها أو يستقل النور دون كيان

وقوله:

ما أجمل الحب بعيش الجنون وأعجب الحب بأمسي ويومي!

وقوله مخاطبا أفروديت:

يا ربة الحب مشبوباً لعارفه ومشرب الفن، إن الفن ظمآن
عيشي له منبعا ما عاش يقصده فتملأ الدهر من رياك ألحان
فيم التمنع والدنيا علي سفر وما التحجب حين الفن لهفان؟
ألقي الشفوف وحييه معانقة فتصبغ الكون بالإلهام ألوان
ما أصغر الحسن مأسورا ومحتجبا وأعظم الحسن حين الحسن إحسان
إن الجمال بلا عطف يجود به كمهمل النظم: إيقاع وأوزان
كل الحرام حلال للفنون، فما غير الفنون لها في الدهر سلطان
فإن أصبيت بحرمان يعذبها نال الجمال من الحرمان حرمان

ها أنت أيها القارئ قد رأيت صورتين متباينتين: صورة صوفية متجردة تعيد إلي ذهنك أناشيد تاجور في كتابه «جيتنجالي»، وصورة مشتعلة بعاطفة جنسية تنطلق من سجنها وتعيد إلي ذهنك مقطوعات بيير لوئيس في كتابيه «أفروديت» و«أغاني بليتيس»!

وهنا أقف قليلا للمقارنة بين هذه الصورة التي قد يطلق عليها المحافظون اسم «ماجنة».. فكم في دواوين العرب القدامي من شعر ماجن كما في أشعار امرئ القيس والنابغة الذبياني وأبي نواس وغيرهم في مختلف عصور الأدب العربي، غير أن مثل هذه الأشعار الخليعة لا يمكن لإنسان أن يقرأها - إذا تسامح - إلا بينه وبين نفسه. أما مثل هذه الصور التي عرضناها عليك من شعر أبي شادي فليس علي أى إنسان غضاضة في أن يقرأها بينه وبين نفسه وبينه وبين الناس.

فهل رأيت أيها القارئ فارقا بين الصور الصوفية الأولي والصور الجنسية الثانية؟

وهل أحسست عند الأخيرة خزيا لم تحسه عند السابقة؟

أنا لا أري فارقا بين هذه وتلك.. لأن الشاعر لم يعرض عليك الصور إلا فنانا عرف كيف يتقن عرضها، كما يعرض عليك الرسام والمثال صورة أو تمثالا لامرأة عارية، وأي إنسان يشعر برغبة جنسية ملتهبة عندما يقف أمام تمثال «الزهرة»؟.. أي إنسان ذلك الذي لا تفني رغائبه الجنسية أمام جلال الفن وسحره؟

إني لا أعرف الصوفية تقديسا للروح وكفرانا بالجسم، بل أعرفها تقديسا لهما.. إن الله لم يعرفنا صور الجنسة إلا بخلق صورة مصغرة منها علي الأرض.

فعبادة الأجسام هي من عبادة الروح، وعبادة الروح من تلك، أو كما يقول أبوشادي:

هــذي مـنـاجـاة الجـسـوم حـكـت مـنـاجـاة الآلــه

أو كقوله:

ذموا عبادات الجسوم وما دروا أن الجـسـوم مـنـازل الإلهـام

فأبو شادي عندما يرسم لنا مثل هذه الصور إنما يريد أن يبلغ بنا عن طريق الفن إلي ما في الجمال - روحه وكيانه - من قدسية علوية فنسمعه يقول في قصيدته «الجمال الإنساني»:

ينبض الكون بالجمال ولكن		كم جمال حيالنا لا نراه؟
في جمال الإنسان للشاعر الفنان		معني يطل منه الآله!
كيف أغضي عن وصفه وهو كل		حينما الجزء كل حسن سواه؟!

ولهذا المعني الذي يطل الإله منه نري أباشادي يريد أن يحلل كل ما حرم - جهلا - من الجمال عند الفنان المحروم، ونستمع إليه وهو يقول:

إذا حرم الفنان عطف ملاحة		وحب فلا تسأله إلا المرائيا

وما أحوج الدنيا إلي الابتسامات وإلي مظاهر السرور وأناشيد البهجة!

***

الحيرة والقلق

ظاهرتان تتجليان في شعر أبي شادي، وتملكان عليه سبيله، وتعبثان بأمنه وراحته، وتأخذان بتلابيبه من حيث سار وأني اتجه. فأما الحيرة فمبعثها الحب الذي تحطم وهو فتي والسنون العشر التي قضاها بعيدا عن موطنه، قضاها محروما يعيش بالذكري ويتغذي بالألم ويشرب اللوعة والحسرة، يلتمس العزاء في ناحية فما يلبث أن يجد العزاء أفقا يبعد عنه كلما دنا منه، فهو يقول لنا في قصيدة «الشريد» في ديوانه «الشعلة»:

همت في الدنيا علي وجهي أنادي		بفؤاد يشتفي من كل واد
فأبي الحرمان حتي رجع صوتي		وتماديت بهجر فات موتي
رب موت هو نعمي لا تنال		كم تمناها فؤادي في الخيال!

إلي أن يقول:

جن قلبي في التياع المضطرب
وبكت نفسي بصمت المنتحب

وتولتني مـن الحـيرة مـا لا
تعرف الإيهان صلحا أو قتالا

فإذا بي كدت لا أعرف نفسي
وكأن الـرزء تكويني وحسي

وإن هذا الحرمان الذي يحسه الشاعر والظمأ الذي يقتله ليظهر أثره جليا في قصيدته «شعر الصمت» التي أملاها علي - وكان الظمأ والحرمان يستوليان علي حينئذ كما يستوليان عليه وهي في ديوانه «الشعلة»:

وبي حنين إلي شعر أغـرده
لكنُ يشرِّد شعري فرط حرماني

أيـن الجـمال لأوفيه عبادته
فما الطبيعة إلا بعض وجداني

أين التي ترقب الألحان طلعتها
لكي تصاغ بإلهام وإحسان

غابت وغاب الهوي عن خاطري ردحا
وإن أقـام بقلبي طي أكفان

فأي شعر أغني بعد فرقتها
إلا الصموت بأوجاعي وأحزاني

شـعـر مـن الـصـمـت

أقـسي مـا أحـس بـه
وكله قطع من قلبي العاني

لـن يـعـرف الـنـاس

مـعـنـاهـا ومـا حملت
من النشيد لحيران ولهفان

وإن أحس بها قلب يشاطرني
معني الجمال ويرعاني ويرضاني

من شاعر حائر مثلي وحيرته
تملي علي فأملي روح حرماني

علي أن أغرب ما في هذه الحسرة خلودها في نفس الشاعر فإنه ليجد حبيبته بعد الغيبة الطويلة فما يلبث أن ينعم بوصالها حتي يري حيرته تلازمه! وفي قصيدته «معابد

الحب» من ديوان «أطياف الربيع» تري ألمه في هذه الحيرة متجليا في قوله:

معابد الحب ما للحب مضطهدا ... وما لأربابه ليسوا بأرباب؟!
تحجبوا وهم الدنيا بأجمعها ... وحاذروا من زمان جد هياب
علوية أنت كالجنات قد خبئت ... لكنها بين نـيران وإرهـاب
نمشي إليها علي الأسياف قاطعة ... ونشتفي بمزيج الشهد والصاب!

***

معابد الحب ما لي كلما ظفرت ... روحي بحظ أري صبحي من الظلم؟
مالي أري الحلم يوحي يقظتي فإذا ... بيقظتي من معاني اليأس في الحلم؟
ما لي أبشر بالحب الذي خلقت ... له الحياة فلا أجني سوي ألمي
ما للمعابد تأباني فهل حسبت ... روحي لديك كمنبوذ ومتهم؟!

ونسمعه في قصيدة «التصوف» يشكو الظمأ متسائلا في حيرة وأسي:

أواه من ظمأي! وهل من ظامئ ... مثلي؟ وهل ظمأ بغير حدود؟!

وقد ولدت هذه الحيرة عنده لهفة علي الجمال فهو يبحث عنه هنا وهناك ليروي ذلك الظمأ فيعود أظمأ ما يكون! وإنك لتري هذه اللهفة في كل أشعاره علي أنها تتجلي أكثر وضوحا في ديوانيه «الشعلة» و«أطياف الربيع»، وإني لأرجع ازدياد هذه اللهفة والحيرة إلي تجاوز الشاعر سن الأربعين فهو يريد أن يضم الجمال في قبضة يده ويستمتع به بين أصابع خمسة كباقة تبعث النشوة الهادئة أو كشعلة تبعث اللهب الواقد.. غير أني أعجب لازدياد العاطفة واشتداد قوتها بعد أن ودع أيام الشباب اشتدادا لا تجده في أشعاره الأولي حتي لأحس أن أباشادي يطوي السنين القهقري ويتراجع إلي الوراء وأن عمره يحسب بطريقة عكسية أي أنه الآن في الثانية والأربعين

وبعد مضي عام سنراه في الحادية والأربعين وهكذا حتي يتلاشي في الجمال وينطوي الكون في هذا الكون الذي تضمه روح في هيكل إنساني ينشد:

ما مات من وهب الجمال حياته ... إن الجمال ألوهة وخلود

أما قلقه فمبعثه رغبة حارة في تفهم سر الحياة ومحاولة اكتشاف كنهها فهو واقف أمام العالم يتأمل تلاشيه ذرة بعد أخري. تتجمع روحان في حب ولذة ثم تفترقان في شقاء وحرمان، تتجمع أناشيد من أنفاس وخفقات وتتلاشي في أثير يسيطر عليه ملاك الصمت فهو يتحسر علي هذا العالم الذي يتلاشي في نفسه فيقول:

فلواعج القلق الدفين تحفني ... فأري الحياة تساميا وتعثرا!

ثم يقول متحيرا:

ما ذلك القلق المساور مهجتي ... أراه إلا لوعة للخالق؟

وقصيدته «راهب الدير» الذي أوحتها إليه وقفته يتطلع إلي السماء من شرفة منزله فلمح راهبا تجاهه في مثل وقفته، فبعثت هاتان الوقفتان في نفسه شتي الخواطر المرتعشة كالنجم، الخافقة كالقلب، القلقة كالأمواج الهاربة، تحس في كل لفظ منها نزوع الروح إلي الخلوص من أسرها وإلي الاندماج في الذات الصافية، وفيها تري كفرا يتحطم علي إيمان، وإيمانا يتحول إلي حال أسمي، وحيرة تشتد ثم تتحول في هدي، وقلقا يفني في اطمئنان روحي، وزهدا في الحياة، فاستمع إليها وإلي النفحة الشعرية العلوية فيها حيث يقول:

لمحته رانيا شطر السماء كما ... لمحته بشعور اليأس يرمقني

لمحته وأنا في الأسر أغبطه ... فهل تري هو بين الأسر يغبطني؟

نعمي التجرد من لي أن ألوذ بها ... فكم بها من أمان لامرئ فطن؟

سئمت كل غـرور أستعز به ... واشتقت ما يشتهي الصوفي من زمني

ثم يريد أن يحلل الوقفتين، ويستشف سر هذا الراهب وما يجول في خاطره وهل تتفق خواطرهما أم تختلف، فيقول:

يا راهب الدير هذى وقفتي حزنا ... أرنو إلي ملكوت الله حيرانا
وأنت ترقب مثلي عالما عجبا ... شتان بين مدي اللحظين شتانا
إني لأحمـل أعبـاء منوعة ... وأحمـل الهـم كفرانا وإيمانا
فهل تحملت مثلي للشجا ألما ... وهل تعذّبتَ من أتراح دنيانا

***

يا راهب الدير! حولي للحياة مني ... وكم حيالي من اللذات ألوانُ؟
زهدتها وأنا القاسي علي أملي ... وكم يُميت ويُحيي الحظ فنانُ
وصار كل رجائي في الحياة غِنيً ... عن الحياة ومن عزوا ومن هانوا
فلا أعيش سوي معني يحب كما ... يعيش في حلم الجنات (رضوانُ)

ثم يسائل هذا الراهب الزاهد في الحياة عما هي الحياة فإنه قد يكون أدري بها ولكن أنّي لهذا الراهب المحتجز بين جدران صامتة أن يعرف سر الحياة الناطقة! ثم تعتلج الأمنية في نفس الشاعر ويود لو يخلص من أسر القلق الذي يساوره ومن حربه فيقول:

يا راهب الدير نبئني: ألا خبر ... عن الحياة تراه العين في الأفق؟
ألا سبيل إلي زهد تصاحبه؟ ... ألا سبيل إلي التحرير من قلقي؟
ما لي أراك قريرا كله وهج ... آنا، وآنا مروعا بالغ الحرق؟
فهل كلانا – وهذي الشمس غاربة ... من المعاني التي تشجي من الشفق؟!

وفي قوله في قصيدته «روحي» تشعر بذلك القلق يغمر الشاعر وتدري لم هذا القلق، قلق بعثته في نفسه تلك الروح الوثابة الثائرة علي حدود جسمها، ويا ليتها تقف في ثورتها عند مطلب الخلاص من الجسم! إنها لا ترضيها هذه الحرية وتراها أضيق مما تريد.. تري رحب الدنيا ضيقا فتأباه وتطلب حرية أوسع فيقول:

أري روحـــــي تـعـــاف
حــــــــــدود جـســــمــي | وتـأبي فسحة الدنيا حدودا
تغلغل نورها في الكون طرا | ونال صفاؤها هذا الوجودا

هذه هي حيرته، وهذا هو قلقه، فهل هو مهتد في يوم ما؟ وهل له أن يجد الطمأنينة؟

***

فلسفة أبي شادي

لأبي شادي في الحياة – بالرغم مما قاسي من آلامها وأحزانها وجحودها – تفاؤل عجيب، ونظرة بسامة، وأمل تمرح فيه روحه. ومن أجل هذا التفاؤل نراه ينظر إلي الدنيا نظرة المصلح الواثق من إصلاحها، فهو بعد أن يرينا العيوب التي تحجب عنا جمال الحياة نراه يصور لنا هذا الجمال لنصبو إليه فننزع ما يحجبنا عنه.

ورأيه كرأي جان جاك روسو في أن الإنسان أصل الشر، فمتي استطاع أن يتغلب علي الشر صلحت له الدنيا.. غير أن روسو يوقف المرء أمام اليأس لأنه يقول:

ولا يصلح العالم إلا إذا انعدم أصل الشر.. أما أبوشادي فيطمع في صلاح النفس الإنسانية وفي قصيدته «محاكمة إله» وصف لهذه العلل التي يريد أن نتخلص منها لنسمو أربابا أو شبه أرباب فيقول عن لسان الإله:

أنا الحياة فهل ترجون ميتتها | وتحسبون جمال الكون في العدم؟

وتعشقون فناء للنظام وما — تخشون من عجزكم في الروح والهمم؟
لولا عنايتكم بالهدم ما وجدت — هذي الرزايا التي تشكون شدتها
لولا الأنانية العظمي لما عرفت — هذي الخليقة لـلآلام حدتها
فيا ضعاف أفيقوا! لم يزل بكم — من الغرور مثار اليأس في الكون
أنتم بنوه فإن سؤتم يسوء أبدا — فالكون مرآتكم في خلقه الفني
لو أنكم قد بلغتم ما تخيلتم — من الرشاد لأحببتم علي نفسي
وكنتمو شبه أرباب فقربكم — إلي ماقد ملكتم من غني الشمس!

وشاعرنا يدين باليوجينية أي إصلاح النسل الإنساني بتعقيم المعتوهين والمجرمين وأشباههم، وبتنمية العبقرية الوارثية ومنح العباقرة من الجنسين حقوقا تناسلية خاصة فهو يقول:

صور الشرور تحجبت بتسول — وتناسل الإجـرام شر هوان
لم لا يحـرم؟ بل لمـاذا لا تري — للعبقرية صولة الـديـان؟
لم لا يخص العجز بالحرمان — ويباح للموهوب والفنان

ونسمعه يقول لنا:

ولو حرص السواس للناس دائما — علي نسلهم واستبعدوا كل جارم
لما ندمت هذي البسيطة مرة — علي كرم بل أشرقت بالمكارم
وكنا نري الإنسان أشرف عامل — وأصلح مخلوق وأنبل راحم

وفي قصيدة «الدائرة» في ديوان «الشعلة» نستمع إلي الشاعر وهو يعتذر عن الناس في عدم استطاعتهم علي تغيير حظوظهم لأن كل فرد كنطقة في خط دائرة تحرص كل

نقطة علي الاتصال بخطها حتي لا تخرج عن دائرتها أو تنحرف فهو يقول لنا:[1]

هذي الحياة بدنيانا كدائرة ... وكلنا نقط في خطها البادي
وربما لم أكن يوما بمحتكم ... حتي علي نقطتي إلا بمقدار
فكيف أزعم أني جد مقتدر ... علي خطوط الوري أو خط أفراد؟
وكيف أنسي قصوري في مبادلة ... للناس من فيض إحساسي وإضماري؟
عرفت هذا فما أسرفت في جزعي ... من الأنام وما استقيتهم لومي
بل عدت باللوم مهما كنت مضطهدا ... علي فؤادي لعجز في تفاعله
وصرت أجعل حالي حال دائرة ... وكنت قبلا بخصمي غير مهتم
وصرت أحرص في سعيي علي صلة ... بذلك الخط حتي في تحوله!

***

أبوشادي وحبه

أحب أبوشادي - كما قلنا - ذلك الحب الذي قدح فيه شرارة الشعر، وكان حبا من روحه أودع فيه كل آماله حتي إذا صدم في حبه وتحطمت آماله وألقي عصا التسيار في الخارج عشر سنوات لم يكن خيال حبه يبرحه، وكان له مستمد النور ومهبط الوحي، وكانت عظمة هذا الحب تأبي أن ترتفع أمامها عظمة حب آخر فظل قلبه وفيا حاملا لذكريات حبه الأول، غير أنه بعث في نفسه حب الجمال، وأقدس الحب وأسماه ما يرفع النفس ويحببها في الحياة ويملؤها رغبة في الاستزادة.

وعاد من منفاه الاختياري فلا البعد أنساه حبه، ولا الزواج لطف من حدته، ولا

(١) مجلة أبوللو: حسن كامل الصيرفى / شاعرية أبي شادي / سبتمبر ١٩٣٣.

مضي الشباب أطفأ جذوته، ولا صور الجمال التي هام فتنة بها حولته عن ذلك الحب، بل ظل هو هو.. يبحث عن طيره التائه فيقول:

أيها الطائر عن وكري الحبيب أيها التائه في ليل الغريب
أنا في بعدك في سكر وتيه شد ما ألقاه من قلبي السفيه!
تظلم الدنيا لعيني حين عيني تخطف الأضواء من لون ولون
وتري في بعدك اللذات وهما بعدما كانت تري الأوهام نعمي
أي سحر يا حبيبي حال حسي فنسيت الكون بل قلبي ونفسي؟
أسأل الغفران! ما نفسي إذا ما أصبح الكون شتاء وظلاما؟
أيها الطائر من لي بدليل ينقل الروح إلي الروح الجميل؟
أنا لن أنساك مهما غبت عني توأمي بل ملتقي ديني وفني
طفت بالروح بدنياي جميعا فإذا بي عدت مكلوما صريعا

ثم تأخذه اللهفة حين يعييه البحث عن طائره فيهتف به:

أي داج غبت فيه يا حبيبي غاب عن ألف رقيب ورقيب؟
حينما لم تغلق الدنيا لعشقي حينما لم تحجب الأخري لشوقي؟
كيف حجبت لحسي وخيالي وأنا الطائر في دنيا المحال؟
أتري أبعدت دنيا من خيالك ساكنا فيها ضنينا بجمالك
هكذا الأرباب عشاق الخفاء والبرايا في دعاء وشقاء

ثم يلح عليه ظمأه، ويلهبه حرمانه فيهتف:

فأجز لي لحظة أحيا بها كل نفس بضعة من ربها!

ولقد ظل هذا الشاعر يبحث عن حبيبته في الوجود بأسره، يعجب بهذه الحسناء لأنها تنقل إليه شيئًا من سحر عيني حسنائه، ويعجب بتلك لأنه يسمع منها صدي لذلك الصوت الحنون الذي فقده، ويعجب بأخري لأن فيها من هاجرته لون شعرها أو رشاقتها أو فتنتها أو ذكاؤها وفي قصيدته «نماذج الشعراء» من ديوان «أشعة وظلال» إثبات قوي علي ثبات حبه رغم توزع نظره فيقول:

من يرسم الزهر النضير مهفهفا ... فبذهنه نفح لـروض نائي
وأنـا كذلك في نـواك تغزلا ... وإن اتصلت بغادة هيفاء
كل الفواتن ما مثلن لخاطري ... إلا مظاهر سحرك المشاء

ثم يقول:

إني ربيت علي غرامك وحده ... فالآن كل هوي رفيق عنائي
والآن كل ملاحة أشتاقها ... ألـقـاك ماثلة بهـا لرجائى

ويقول في قصيدته «الجمال الموحد» من ديوان «الشعلة»:

روح الأنوثة والجـمال تمثلت ... بك ثم روح طفولتي وغرامي
ألقاك لقيا الخلد والدنيا معا ... وأراك رؤيا الحظ والأحلام
فإذا نأيت جعلت ألتمس الهوي ... والحسن بين مصادر الإلهام
فأعود محروما وإن حسب الوري ... همي صفاء الشاعر المتسامي
وحدت فيك صبابتي وعبادتي ... لمـا جمـعـت مـفـاتـن الأيـام
وعجزت دونك أن أبل تعطشي ... من كل نبع للجمال أمامي
أنـا لا ألام بحيرتي وتلهفي ... لما نأيت، وكيف كيف ملامي؟

من كنت أنت له الغني لم تغنه   عوض من الإحسان والإنعام

ويشبه ذلك قوله وهنا - يرينا نوعا ثالثا من الحب، وهو حب اللسان:

تمر مشاهد للحسن حولي   فيعشقها ويطربها لساني

ويأباها فؤادي في جموح   كأن رضاءها بعض الهوان

ومن عرف الغرام لديك ينسي   معاني للغرام وللحسان

وقوله في قصيدة «معابد الحب» في ديوانه «أطياف الربيع» وفيه من نظير هذه الأمثلة الكثير:

لم تلق روحي صفيا تستضيء به   إلا صفية أحلامي وإنشادي

جعلت كل صلاتي في عبادتها   وإن تناهت صلاتي بين عباد

وقوله منها:

وحدت كل مناجاتي وإن نشرت   علي الجمال بأزمان وأزمان

فسامحيني علي دين أهيم به   وهيِّئتي لي رجاء عند دياني

وقوله في قصيدة «الذكريات»:

أنساك والماضي البعيد أمامي   جيش من الأحداث والأحلام؟

مرت كتائبه أمام نواظري   من كل مكتئب ومن بسام

صور الطفولة والشباب كأنها   صور الخيالة[1] من خلال ظلام

وما أجمل هذا المعني الذي يمثل الذكريات التي تظهر جميلة واضحة في ظلام البعد القاتم.

(١) مشاهد السينما.

وقصيدة «الجاذبية» دليل قوي أيضا علي عظمة هذا الحب:

تمضي نـماذج كل حسن رائع والناس بين تلفت وحبور

***

مثل من الأصنام تمضي، كلها حسن، ولكن لا تنال فؤادي

ولئن فتنت بها ففتنة عازف متصوف متنوع الإنـشـاد

***

الجاذبية منك أشهي نعمة في ثغرك الوضاء بالبسمات

مـن كـل لـون للجمال كأنه خرب، فما يعدو جمال ممات!

وإن شاعرنا في لهفته أمام صور الجمال المختلفة التي يعشقها وقتيا ويصدف عنها قلبه ليدين بقول أبي تمام:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوي ما الحب إلا للحبيب الأول!

وله أن يقول وحده ذلك لأن هذا الحب كان حب الروح والقلب أولا وآخرا.

وجده في أول حياته - ويا ليته سعد به! - بينا تظل أرواح تبحث عن إلفها فتؤخذ في طريقها بسراب لامع تحسبه ري ظمائها، حتي إذا تغلغلت كل روح في الأخري عرفت الباحثة منهما أنها لم تجد ضالتها فتعود إلي البحث حتي ينتهي بها المدي إلي أمنيتها.

أما أبو شادي فإنه بعد أن وجد حبه أول وهلة ثم فقده ظلت روحه تبحث عن صورة هذا الحب ومثاله، فإذا لقي طائره عاد يسمعنا أبدع وأروع ما يوحي إلي شاعرنا.

ولا أري في حياة أبي شادي ما يفوق عظمة حبه إلا لوعته علي فقدان حبيبته من يده - تلك اللوعة الخالدة التي نحس حرارتها في قصيدته: «لو كنت لي» من ديوان «أطياف الربيع»:

لو كنت لي لرفعت كل نظيمي لك، واتخذتك نشوتي ونديمي
وجعلت مجلسك الشهي عبادة تختص بالقربان والتكريم
أما وحظي منك خطف أشعة أما وقربي منك قرب غريم
فدعي فؤادي يستطب بوهمه بين المنوّع من خيال نعيم
فيزيد إيمانا بنعمتك التي ولت وأعقبها شبوب جحيمي!
لو تدركين تلهفي كتفجعي أخفيه في صمت عرفت أليم
لرثيت لي ورأيت حال مودع خدعوه قبل الموت بالتنعيم!

هذه اللوعة التي جعلته ينظم بحرارة تلك القصة الشرقية الغرامية «مها» ويصوغها من قلبه وروحه، وهذه اللوعة هي التي أدركت عمقها يوم شاهدته ودموعه تغسل خديه عند مشاهدتنا للأوبرا المشجية «مدام بترفلاي» علي الستار الفضي.

فهنيئا لأبي شادي قلبه المخلص الفياض بالحب، وهنيئا له هذا الحب الخالد وإن كان قد بث في نفسه الحيرة والحسرة واللهفة والقلق وكل ما يفيض به شعره من مسحة الكآبة والحزن، فإنه بالرغم من هذا قد منحه أجمل قيثارة وركب له فيها أشجي الأوتار وأسلسها.

ويحدد حسن كامل الصيرفى ملامح أبوشادي النفسية والوجدانية والإنسانية:

«هذا هو أبوشادي من نواح عديدة، وإن كنت لم استطع تقصي كل نواحيه، وللقارئ أن يصحبه كما صحبته فيدرك أي رجل عرف وأي فنان صادق وآخي!

أبوشادي رجل كبير القلب، جم الحيوية، دائب الحركة، يفيض طيبة وسماحة ونبلا، تلمح في وجهه الشاحب وعينيه الزائغتين نوعا من القلق الخفي الصادر عن نفس حالمة وفكر عملي.

هو رجل الخيال وهو رجل الواقع. هو روحاني صوفي، وهو مادي شهواني. هو عقل متأمل تجريدي، وهو عقل رياضي علمي. ينظم الشعر ويهتم بتربية الدواجن. يفكر في القصيدة ويلاحظ خلية النحل. يتطلع لي الجمال ويراجع حسابات مجلاته. يحدق في السماء اللامعة ويذهب إلي معمله البكتريولوجي. فهو إذن يشرف علي الطبيعة من ناحيتيها المعنوية والحسية، ويراها كاملة في الروح والمادة معا، في الفكر والتأمل معا، في الحلم والعمل معا. وهذا المزيج النادر يتعادل في نفس الدكتور أبي شادي تعادلا خارقا يرغمك علي احترامه وإكباره والإعجاب به.

ولقد عاب عليه بعضهم هذا التوزع في الجهود والتشعب في الغايات والمقاصد. ولكن من ذا الذي في مقدوره أن يحرر الإنسان من نفسه؟ ومن ذا الذي في مقدوره أن يستبدل طبيعة بأخري؟ ولماذا لا نحاول أن نقبل الفنان علي علاته بدل أن نفرض عليه أفكارنا ومبادئنا؟

وهل كان أجدر بالدكتور أبي شادي أن يتلبس بشخصية غير شخصيته ويصطنع حياة غير حياته كي نرضي عنه ونعترف بأنه شاعر؟!

ثم أليس التوزع رمز القوة، والتنوع والتشكل دليل الخصب والرحابة والشمول؟

وفي وسعي أن أذهب إلي أبعد من هذا وأقول إن «خطيئة» التوزع كان لها الفضل الأكبر في اتصال الشاعر بحقائق الدنيا، وهذا الاتصال علمه التسامح والتواضع والبساطة والحب.

وأنه في الواقع لرجل بسيط: بسيط إلي أبعد حد. لا يعرف التكلف ولا المباهاة ولا الغرور. يقدر نفسه ولا يحفل بإظهار هذا التقدير ككل فنان صادق مثقف أصيل.

***

أما شعر أبي شادي فأهم الخصائص التي يمتاز بها هي:

١) الإحساس بالفن والإيمان بضرورته للعالم.

٢) الإحساس بالطبيعة والقدرة علي رسم الألوان والظلال.

٣) الإحساس بالمرأة وحبها والإعجاب بها.

٤) الإحساس بجمال الجسد وعبادة هذا الجمال.

فالدكتور أبوشادي يري ويشعر أن الحياة بلا حسن لا تساوي جهاد ساعة، وأن تجميل هذه الحياة بالفن واجب مقدس علي الجميع، إذ نحن بالفن نقاوم غدر الفطرة العمياء ونصلح ما أخذت ونبني ما هدمت ونتفوق علي ضعفنا البشري الكمين. ولولا الفن لحجب عنا كل ما في الوجود من جمال، لسئمنا الحياة، وكرهنا العمل، وزهدنا في الكفاح، واسترحنا إلي البلادة والأسي.

فالفن يجمل الكون في عيوننا فيحفزنا إلي العمل، والفن يلطف مشاعرنا ويصقل ميولنا ويهذب غرائزنا، فيضاعف فينا قوة الألم وقوة الحب وقوة الرحمة، وهذه القوي هي التي نفهم بها الآخرين، ونتقرب إليهم، ونعطف عليهم، ونشعر من نحوهم بالرابطة الإنسانية الخالدة.

الفرح تمجيد الجمال:

الفرح الملهب العاصف الذي يعيش فيه الفنان ويريدنا علي أن نعيش فيه نحن أيضا، وإلا أقفرت حياتنا وذوت وتساقطت عنها اللذائذ قبل أن يداهمها الخريف.

هذا الفرح بالدنيا مقرونا بالصلاة والتمجيد نراه ماثلا في هذه الأبيات التي يخاطب فيها الشاعر قلبه:

تــأمــل أيهـــا الـقـلـب ... تــأمــل! هـــذه الـدنـيـا!
مـفـاتـنـهـا قـد اجتمعت ... وكـــادت تخـدع الأخـــري!
صـــلاتـــك مـــا لهـــا حـد ... فـصـل ونـــاج مـــن تهـوي
تـأمـل أيهـــا الـطـائـش! ... تـأمـــل! لا تخـف غبنا
لمـــــاذا أنـــت تـضربـنـي ... وقـــد أعـطـيـتـك الـدنـيـا؟

في هذا البيت الرائع الأخير نلمس الحيرة الأبدية التي يستعر ضرامها في نفس كل فنان. فهو وقد وهب قلبه العالم بأسره يشعر أن قلبه لن يرتوي، وأن التوقد إلي اللانهاية ما يزال يعذبه ويضنيه فلا يتبرم بهذا العذاب ولا ينتفض ولا يثور، بل يهتف ويتوسل:

يـــدي! يـــدي! لا تـدعـا ... خـلـود سـعـادتي يمضي
ســـماء الحـــب صـافـيـة ... ونـــائـيـة عـــن الأرض
ومـن عـرف (الألمـــب) كما ... عـرفـت وذاق نـعـماه
أبي كـــل الإبـــاء فـراق ... رب قـــد تـــولاه!

وعندما يقف أبو شادي بتمثال أفروديت يبلغ حبه الجمال أقصاه ويحس لفوره الصلة الوثيقة بين الفنان والله، ثم ينتهي به فرط إحساسه إلي الإيمان بالفن وحده والجمال وحده فتسمعه ينشد:

لبيك قد يخلد المعبود فنان ... كلاهما خالق للخلد ديان
ولو عددنا حياة الحسن زائلة ... فليس يرضي فناء الحسن فنان
دنياكأخري استطابت أن تخادعنا ... كـما يخـادعـنـا كـفـر وإيـمان
إلا جـلالـة إيـمان أقدمها ... في مذبح بضحايا الحب يزدان
هذا جمالك يبدو كالربيع حلي ... بالسحروالنور أخاذ وجذلان

مجـــدد دائـــما في كـــل فاتنة وكـــم يجـــدد بـــالإلهـــام فتان
روح الألوهة إلا أن مبدعها هذا الغرام الذي يخفيه إنسان
لـــولا حنين لأرواح معذبة ما كان في ملكوت الحب أكوان

وهنا تعصف بالشاعر تلك الرغبة الملحة في الكشف عن سر الجمال وتقديمه للناس نورا وهدي، فيتمرد علي الأوضاع والتقاليد وينادي بحرية الفن، ويحلل في سبيل هذه الحرية كل المحرمات ويقول:

يا ربة الحب مشبوبا لعارفه ومشرب الصفو، إن الفن ظمآن
عيشي له منبعا ما عاش يقصده فتملأ الدهر من رياك ألحان
فيم التمنع والدنيا علي سفر؟ وما التحجب حين الفن لهفان؟
كل الحرام حلال للفنون، فما غير الفنون لها في الدهر سلطان

ومما يدل أبلغ الدلالة علي أن أباشادي يحاول بكل ما أوتي من قوي الروح أن يخلق نفسه خلقًا جديدًا وأن يطهر هذه النفس من أدرانها ويحلق بها في حياة سامية علوية بعيدة تتفق والصورة الماثلة في ذهنه عن الفنان وكيف يجب أن يشعرويفكر ويعيش، هذه الأبيات التي هي صورة قلبه ورجع خياله وشعار حياته:

نـعـم مـنـفـاي أشـعـاري ومـلـقـي الـنـور والـنـار
أعـــيـــش بهـــا عـــلي حـــدة ونـــفـــي عـــيـــش أحـــرار
أســـجـــل كـــل مـــا حـــولي وأخـــلـــق حـــلـــم أقـــدار!
حـــزيـــنـــا، ســاخـــطـــا، مرحا عـــتـــيـــا، غـــير جـــبـــار
أعيش بكل معني العيش حـــين أنـــا بـــه الـــزاري

كأني منذ ولدت حييت ... في يقظات قهار
أبادل ما حواه الكون ... إيحائي وأنظاري
فلا هو دائني أبدا ... ولا أنا عبده الجاري
ومن يحيا بهذا النفي ... لم يحفل بأوطار
يعيش لغيره أبدا ... وإن لم يحظ بالغار
فهذي نفسي الكبرى ... إذا أرضاك إصغاري
تناءت في مجاهلها ... ومنفاها بأشعاري
ومن يحيا حياة العشب ... لم يظفر بأغواري!

فإذا شئت أن تتعرف إلي شخصية أبي شادي، وإذا شئت أن تلمس مجاهلها القصية وتحس جلال ذلك الجو الدافئ العطوف الذي تسبح فيه وفتنته فأمعن النظر في تلك الأبيات وأعد تلاوتها واحفظها عن ظهر قلب ثم رددها في خلواتك، بينك وبين ضميرك، فلا تلبث أن تشعر بروح أبي شادي متوقدا حيا يضطرم فيك، ولا تلبث أن تسلس له قيادك وتحلق معه في منفاه الإلهي حيث نعيم التطهر والصفاء والجمال والفن!

***

لا يسع من يتناول معظم أعمال شعرائنا بالبحث والتحليل إلا أن يعجب لخلو أكثرها من شعر الطبيعة!

فالشاعر المصري يستوحي الحسيات والحوادث السياسية كما يستوحي عاطفة الحرمان التي يثيرها في صدره بعد المرأة عنه وحاجته الشديدة إليها. أما المرأة نفسها فلا يستوحيها إلا عدد محدود من شعرائنا، وأما الطبيعة فنادرا ما تلهم الشاعر المصري قصيدة صادقة!

والشاعر المصري بوجه عام لا يعرف المرأة، ولأنه لا يعيش معها في مجتمع واحد، ولأن لا مجتمع في مصر بالمعني المعروف عند الغربيين.

وهذا الحرمان يولد في نفسه ضربا من الحسرة تتمثل في روح الذلة والاستعطاف والاسترحام الشائعة في غزله.

فهو يتوق إلي حب المرأة ولكنه لا يجد هذا الحب، فيرسل لوعته أنينا متواصلا وشكاية طويلة مرة.

والواقع أن نزعة الشكاية والتوسل السائدة في شعرنا العربي تعبر أتم تعبير وأعمقه عن الحالة الاجتماعية المتأخرة التي نعيش فيها.

فالشاعر المصري يبحث عن المرأة مدفوعا بقانون الفطرة.

ولكن تلك العلاقة لا يمكن أن تكون إلا علاقة ناقصة فتقوم علي محض الشهوة، أو علاقة فنية يشوبها المرض فتقوم علي الإعجاب والشهوة معا، أو علاقة فنية بريئة تقوم علي الإعجاب وحده.

أما التبادل العاطفي المتسع الأجواء، وأما الملاحم النفسية الكبري فمن المستحيل أن يشعر بها الشاعر إلا متي عرف النساء واتصل اتصالا حقيقيا بامرأة أو بعدة نساء.

فالمرأة مخلوق معقد العواطف والإحساسات: فيها الطيبة والرحمة والتضحية والحنان، وفيها الشهوة والأنانية والكيد والغدر وحب الانتقام. فهي صورة مصغرة للتفاعل اليومي الدائم بين الخير والشر، وهي صورة مصغرة للطبيعة والحياة.

وهذا هو السر في أن الشاعر الذي لا يعرف المرأة لا يمكن أن يفهم النفس البشرية حق الفهم، ولا يمكن أن يحس جمال الطبيعة تمام الإحساس.

ويجب أن يلاحظ أن فتنة المرأة أساسها حفظ النوع بتضحية المرأة والرجل معا وفنائهما في سبيل النوع. وهذه الفتنة ذاتها تنبعث من الطبيعة، وهل الطبيعة إلا تلاقح مستمر يعقبه فناء فحياة ففناء فحياة؟

لهذا توجد علاقة وثيقة بين المرأة والطبيعة ولهذا يشعر كل محب صادق للمرأة بجمال الطبيعة ومعناها بأكثر مما يشعر به الآخرون.

والذي يسترعي الاهتمام في شعر أبي شادي أنه يشعر بالطبيعة ويحبها لأنه يشعر بالمرأة ويحبها.

وسوف نعرض فيما بعد لأثر المرأة في شعره، أما أثر الطبيعة فيغمر ديوانه الجديد «أطياف الربيع» الذي نتحدث عنه في هذه الدراسة والذي اقتبسنا منه الأبيات السالفة والذي نعده خير أعمال الشاعر وأنضجها.

فقصائد «ميلاد الربيع» و«رسالة الربيع» و«الزهر الناعس» و«خلف الطبيعة» و«هدأة الصيف» و«الغروب الثائر» و«الشروق الهادئ» و«نسيم الصباح» و«حزن الفجر» و«الشمس الغريقة» و«وداع البحر» و«منازل النيل»، كل هذه القصائد تدل علي مبلغ تأثر الشاعر بالطبيعة واستلهامه لها وخروجه بذلك عن مألوف معظم شعرائنا.

وهو يقف حيال الطبيعة تارة موقف الرسام وموقف الشاعر، يرسم المنظر ثم يصف العاطفة التي يعكسها المنظر في نفسه أو يشير إليها إشارة خفيفة ساحرة فيقول:

والطير في صمت كعليل والدوح في لهف مكبوت
والبحر مرأي كل جميل أمسي كتيه فيه يموت
هذا الضياء لفقد خليل!

وتارة أخري يفيض علي الطبيعة من إحساسه ويراها من خلال هذا الإحساس ويفجر صورها مصبوغة بدم قلبه فيصيح:

ما للغروب يثور بالأنواء من قلبي الحزين؟!
ما للدماء تكاثفت كالموج والغيب السفين؟!
أين الضحايا قد تراءي الأفق يعكس روحها؟!
هيهات! قد ذهبت وإن أبقي الزمان جروحها
يا ثورة عند الغروب لمحت فيك فؤادي
هذي دمائي استنزفت وعلي السماء حدادي
كم في السماء شعور هذي
الأرض في ماضي القرون
كم تعكس الأقدار في صفحاتها صور الجنون
صور العواطف وهي قتلي من جنون الحادثات
ويكاد هذا الأفق يصرخ من تصاريف المهات
هذي رؤي الأصباغ كالصيحات للقتلي تروع
ما الحشر يوم الحشر أروع من شجاها للمروع
من ظن أني مسعد في نشوتي فهو الضرير
ضحكي كقهقهة القناني وهي تذبح للخمور!
والآن فاشرب من رؤي هذا الغروب الثائر
اشرب دماءك في السماء بنظرة للشاعر!

فالشاعر هنا قد اقترن بالطبيعة ومازج بين فنائها وفنائه وجعل من الغروب مأتم الحياة ومأتم الشاعر في صورة دامية الألوان فاجعة ملتهبة قلما نعثر علي ما يضارعها جمالا وروعة وتأثيرا في معظم أعمال شعرائنا.

علي أن أبا شادي الذي يعرف كيف يري الطبيعة بعين الثائر يعرف أيضا كيف يراها بعين المحب الهادئ، بل يعرف كيف يرسمها رسما دقيقا يشعرك بالجو الذي يحيط بالصورة كأنك تتنسم عبيره وتعيش فيه.

ولقد ذكرت في مستهل هذا البحث أن أباشادي يهتم بالنحل والدواجن وأن هذا الاهتمام يدنيه من الطبيعة، ثم قلت إن حبه المرأة يصله بالطبيعة أيضا، فاستمع له إذن وهو يتغني بهذه الطبعية إبان شروقها، ويوقظ مع النهار أزهارها وطيورها، ويهزها من سباتها هزا كأنه يشترك مع عصارة الأرض في رد الكائنات إلي الحياة:

أشرق الصبح في هدوء عميق ... كهدوء الحبيب بعد الوصال
أي جمع من الأساطير والسحر ... يـزف الخيـال تلو الخيال؟
صور تمحي وأخـري تراءي ... في انبثاق الضياء بين الظلال
والعصافير هاتفات بألحاني ... هتاف الخشوع نحو الجمال
في نشيد من الخفوت حبيب ... كحنين الوليد أو كالدلال
أمـم أرسـلـت دعـاءً مجابا ... ولكل لغي وروح ابتهال
مُثِّلت في الطيور والزهر والنبت ... وفي المـاء والحـصي والرمال
وجميع الـذي تـراه ومـا قد ... حجبته سـتـائـر الأجـيـال
أمـم كلها، ومنها خفي ... في انـطـلاق بـجـوه المتعالي
أنشدت كلها بصمت رهيب ... أو بنطق كالصمت حي الجلال

أنشدت دعوة الصباح قلبي ذلك الصبح من اسار الليالي
وأتي هائبا توسل الشمس حمـاه فـأشرقـت في اختيال!

ليس في هذه الصورة شيء غريب ولكنها علي بساطتها تنبض بالحقيقة. وأجمل ما فيها أنها تسمعك دبيب الشروق الفاتر، ثم انتعاش حركته، ثم تجاوبها، ثم ازدهارها وتألقها تحت أشعة الشمس.

فموسيقي الشروق تفيض منها، وأبدع الشعر ما عبر عن موسيقي الطبيعة، وتلك هي الخاصة التي امتاز بها الشاعر الفرنسي الكبير بول فرلين. فلقد كان يرسم الجو الماطر فيسمعك موسيقي المطر، ويرسم القرويات في أعيادهن فيسمعك موسيقي الرقص الريفي، ويرسم هيكلا للعذراء فيسمعك موسيقي الابتهالات والتراتيل. وهذه الموسيقي الصادرة عن قلب الطبيعة تسمعها من أبي شادي أيضا في قصيدة «الشروق الهادئ» ويزداد إعجابك بها لأنها تضيف نغمة جديدة إلي الشعر العربي.



تبدلت القيم الأخلاقية في أوروبا منذ بضع سنوات تبدلا كبيرا: خرج الفرد الأوروبي من الحرب العالمية أشوق ما يكون إلي الطلاقة والمرح، وأحوج ما يكون إلي الإحساس بالحرية في كل ما يتعلق بالمسائل الجنسية. فأسرف في اللهو وأفرط في طلب اللذة وذهب في فوضي الحسيات كل مذهب مما روع المفكرين ورجال الأخلاق.

ولكن هذه الفوضي أخذت في التبدد شيئا فشيئا وانجلت عن شبه عقيدة أخلاقية جديدة دعا إليها نفر من كبار الكتاب وتركزت في أعمالهم وآمن بها السواد الأعظم من الجمهور.

وتتلخص هذه العقيدة في أنه خير للإنسان أن يتبع وحي غرائزه السليمة وأن

يأخذ قسطه المشروع من ملذات البدن، وأن يتجنب ما استطاع كبت ميوله الجنسية، وأن يصارح بهذه الميول ويسعي لارروائها مؤديا فريضته الطبيعية نحو بدنه الذي من حقه أن يستمتع باللذة الحسية كما يستمتع العقل باللذة المعنوية.

ويقول أصحاب هذه النظرية إن الحضارة الصناعية الحديثة حشرت الناس في المصانع والمكاتب حشرا وجعلت منهم شبه آلات، وابتلتهم بشتي الأمراض العصبية، وباعدت بينهم وبين متعة الدنيا، بحيث أصبح من الضروري إطلاقهم من إسارهم وردهم إلي حياة الفطرة السليمة وإشعارهم بلذة الحواس وبجمال الجسم الرياضي القوي المنسجم الممشوق.

ويري أصحاب هذه النظرية أيضا أن التعاليم الأخلاقية المسيحية القائمة علي بغض الجسد وعلي الغلو في كبح شهوات البدن الطبيعية لا يمكن أن تؤدي إلا إلي افساد أخلاق الأفراد وتعليمهم النفاق والكذب، وإرغامهم علي مخادعة المجتمع والظهور بمظهر الفضيلة الزائفة، بينما هم يباشرون في الخفاء أوضع وأحط تلك الشهوات.

فالحرية في معالجة الشؤون الجنسية، والحرية في التمتع البدني المشروع، والتغني بالجسم القوي الجميل، وعبادة هذا الجسم، وعبادة اللذة المتفجرة منه عبادة طبيعية تدنينا من الفطرة السليمة وترجع بنا إلي العصر الإغريقي الذهبي، وتنقذنا من طغيان العقل ومن آلية الحضارة بحيث يشعر كل منا أنه إنسان يعيش لا ليعمل فقط ولا ليستغله الآخرون بل ليتمتع أيضا في هذه الفترة القصيرة التي يجوز فيها طريق الحياة. تلك هي عقيدة العصر الجديدة وفلسفته الأخلاقية الشائعة[1].

ونحن في الشرق نشكو الفضيلة الزائفة ونلمح النفاق أينما سرنا وحيثما حللنا.

---

(١) المرجع السابق.

نسخط علي الرذيلة علنا، ولا نأنف من ارتكابها بيننا وبين أنفسنا، ونستنكر الفسق ونحن أول الفاسقين.

وإذن فنحن أحوج من الأوروبيين إلي هذه الحرية، وأحوج منهم إلي مكافحة النفاق، إلي اعتياد تذوق الجسم القوي الجميل، إلي الإحساس بشعر البدن المنسجم الرشيق، إلي الشعور باللذة مقرونة بالجمال بدل التمرغ فيها تمرغا حيوانيا وضيعا مخزيا كما نفعل الآن.

وعندي أن الفتح الجديد الخطير الذي فتحه الدكتور أبوشادي في الشعر العربي يتجلي في تمجيده الشهوة البدنية مقرونة بالجمال الفني[1].

فهو يتغني بلذة الجسد لأنه إنسان فطري سليم، وهو يفتن في رسمها ويمجدها ليشعرنا بما فيها من قوة الصحة وقوة الفرح وقوة التفوق علي آلية الحياة وشقائها، وقصيدته «الجمال العربيد» تحقق هذه الغاية وتعتبر مثلا رائعا من أمثلة الشعر الحسي الجديد.

فأبوشادي يقبل في هذه القصيدة علي محبوبته مدفوعا بعاطفة الشاعر المجردة التي تخشي اللذة وتعافها وتضطرب وتتردد حيالها، فيقول:

قبلتها من كل قلبي ... في ابتسام المضطرب
فإذا التلهف في السكينة ... والتحسر في الطرب
هذا النعيم أراه رأي ... العين لكني أخاف
فيم التخوف والحياة ... جميعها روع أطاف؟!
خذ يا فؤادي لا تخف ... ما شئت من هذي الحياه
عمر جديد يا فؤادي ... ما تجود به الشفاه!

(١) حسن كامل الصيرفى/ مقدمة أطياف الربيع / ١٩٣٣.

ثم تعصف به الشهوة وتسبيه من حبيبته الراقدة فتنة جسمها، ويستفيق فيه الإنسان الفطري السليم فيتشجع ويقتحم ويهتف:

قبلتها فلثمت أحلامي وأطياف الربيع
وضممتها فضممت أغلي النور من رب وديع
لا الروح تشبع، لا، ولا قلبي بخفق يتئد
نهم علي نهم وجود لا يمل ولا يجد
حتي إذا سقط الرداء، وقد يراد سقوطه
هرع الهوي للحسن يحمي ملكه ويحوطه

***

وركعت عن قرب لأستوحي العيون الناعسات
فرأيتها ملئت بأحلام الغرام التائهات
أرنو إليها ثم أرنو خاطفا أسرارها
وتنال جسمي رعشة وكأن جسمي اشتارها
روحان قد خلقا كما خلق الضياء مع الحراره
يتمازجان تهافتا وكلاهما قد نال ثاره!
أنهكتها إنهاك صوفي تبتهل في الصلاة
فإذا الجمال معربد وأنا المحب الجاني
وإذاه مبتسم لما لاقاه من إيماني
والنور تضطرب الظلال به اضطراب العاشق
كقوامها الساجي علي هذا الفراش الخافق

فسألتها الغفران والأضـواء تـضـحـك مـن سـؤالي
لـكـنـهـا كـانـت بـدنـيـا لـلـوصـال ولـلـخـيـال
فـتـنـهـدت، والـلـيـل يدنو كـالـغـريـب الـزائـر
ولحـاظـهـا كالنجم تنظر في شـعـور الحـائـر
فإذا الغريب[1] ينال ملعبنا ومـعـبـدنـا مـعـا
وإذا القريب[2] غدا الغريب ومـا وعـي مـا قـد وعـي
وإذا المـلاحـة والـغـرام خـيـال قـلـبـي الـشـاعـر

وليعذرني القارئ لذكري معظم أبيات القصيدة ففيها نسمع لأول مرة في الشعر العربي زئيرا لشهوة تلطفه وتكبحه موسيقي الخيال. فيها نبصره لأول مرة صورة صادقة لشاعر عاشق وامرأة حسناء يتشاطران الحب. فيها نحس رعشات البدن وومضات الروح. فيها نلمس مبلغ أثر المرأة في وحي الشاعر ورغبة الشاعر في التسامي بلذة البدن وتحويلها إلي مادة فن علوي.

ثم فيها نلمس آخر الأمر يقظة العقل بعد إرواء الشهوة وسخريته بالدنيا وتحرره منها!

علي أن في ديوان «أطياف الربيع» قصيدة أخري علي نسق «الجمال العربيد» وهي «ليلة في المعبد» قد تكون أخلص في تمثيل اللذة الحسية من تلك وإن تكن أقل منها تساميا وروحانية، وإليك بعض أبياتها:

أبـيـنـا الـنـور! فالقبلات شـعـلـة مـهـجـتـي الحـري
ولم أحفل بصوت الوقت أو بهـواجـسي الحـيري
فـمـن ثـغـر إلي نهـد ومـن نهـد إلي ثـغـر

(١) الليل.
(٢) الشاعر.

مــنــاهــل لــلــحــيــاة وعــت | أحـــب مــنــاهــل الــشــعــر
نعمنا بـاحـتـضـان الحب | نــعــمــة مـــن تــبــنــاه
فـــلا هـــو مـفـلـت منـا | ولا نــحــن زجـــرنـــاه!
يـــنـــاولـــنـــي تـفـنـنـهـا | وطـعـم الـشـوق مـن فمها
فـأسـحـر مـن تحايـلـهـا | وأسـكـر مـن تـأملـهـا!
فـأنـشـقـهـا وألـثـمـهـا | وأرشـفـهـا وأطـويـهـا
وألـبـث حـائـرا أبـدا | عـلي شـغـف أنـاجـيـهـا

ولا ريب أن النزعة الشهوية هنا أوضح وأوقع وأمعن في الإشادة بنفهسا وبسحر البدن الذي يستجيب إليها ويلهبها. ومثلها في النزعة الصوفية الحسية وفي التذوق التام للجمال - علي غير ما عهدنا في الشعر العربي من قبل - قصيدة «الفنان» وهي متعة فنية شائقة.

وإنه ليبدو لي أن في هذه القصائد صدي متساميا من روح الشاعرين الفرنسيين شارل بودلير وجان ريشبان، وكلاهما كان يعبد الجسد ويقدس شهوة الجنس ويري فيها رمز القوة ووحي الجمال والحرية.

غير أن شعر أبي شادي لا ينصب كله في محيط الحواس هذا، بل كثيرا ما يرتفع إلي سماء الصوفية حيث التزهد والتقشف والتأمل والصفاء. وعندي أن أبا شادي صوفي لأنه شهواني، وأن عبادة الجسد هي التي تدفعه إلي الصوفية رغبة منه في اعتناق الحياتين: هذه الحياة المادية وتلك التي لا تشعر بها المادة ولا يلوثها إنسان. وإليك هذه القطع المتناثرة المفعمة شعورا بما خلف الطبيعة من روح الله:

أيها الطفل! يا فـؤادي! تمهل | قد تماديت في الذي قد هويتا

تعشق الحسن حينما الحسن ألوان — فيا مسرفا بها قد عشقتا!
ألف لون من الجمال تراءت — كيف تهوي جميع ما قد رأيتا!
هكذا شرعة الأنام، وكل — خادع نفسه حياة وموتا!

***

ما لي ظمئت وقد سقيت — ما لي اكتأبت بنشوتي؟
ما لي فنيت وقد حييت — مالي أخاصم نعمتي؟

***

سئمت كل غرور أستعز به — واشتقت مايشتهي الصوفي من زمني
ألا سبيل إلي زهد تصاحبه — ألا سبيل إلي التحرير من قلقي؟

***

أرسلت روحي حرة — بين الأغاني والضياء
حتي أراها مرة — تحيا حياة الأنبياء

وهكذا يتنقل الشاعر من التغني بالفن والجمال إلي رسم الطبيعة وتقديسها، ثم إلي الإشادة بالمرأة وفتنتها، ثم إلي عبادة الجسد وتمجيده، ثم إلي التطلع نحو السماء والاتجاه صوب الله!

أبوشادي في مرآة الشاعرة جميلة العلايلي

وفي لقاء صحفي أجرته الكاتبة نادية خليفة مع الشاعرة جميلة العلايلي مطلع عام ١٩٨٦ روت لنا جميلة العلايلي ذكرياتها مع الشاعر أحمد زكي أبوشادي وما عرفته عنه ودوره في الحركة الشعرية الحديثة في مصر والعالم العربي، وكيف شجع موهبتها الشعرية، وبعض ذكرياتها عن حياتها الخاصة وزواجه من أجنبية، تقول الكاتبة الصحفية في البداية:[1]

قدمها مؤسس جماعة «أبوللو» الشعرية في ديوانها الأول «صدي أحلامي» الصادر عام ١٩٣٦.. فقال: لكي نقدر جميلة العلايلي التقدير الذي تستحقه مواهبها لا يجوز أن نغفل مقارنة أدبها بأدب الجيل السابق.. لقد كانت شاعرات ذلك الجيل حريصات علي «وأد» عواطفهن، فكان محرما عليهن شعر الوجدان الفطري!

وكانت العاطفة عندهن محصورة في الرثاء وتحية الأهل وتوديعهم.. ولكننا في هذا الشعر الجديد نلمح ثورة جديدة علي تلك التقاليد البالية.. فنجد صاحبته كاشفة في اطمئنان وفي دقة وشجاعة عن دخيلة نفسها في صدي أحلامها المنغومة.

وبين صور الماضي والذكريات.. استمع إلي الأديبة الشاعرة جميلة العلايلي تكمل ما انقطع من حديث عن حياتها وحياة الرواد الذين عاشت عصرهم.

علي أثر نشر خواطري الأدبية وأقاصيصي الصغيرة في مجلة النهضة النسائية وكنت أيامها طالبة في المدرسة دعاني المرحوم الشاعر أحمد زكي أبوشادي مؤسس

(١) مجلة صباح الخير/ ٢٠ فبراير ١٩٨٦: قصتي مع الدكتور أبوشادي.

جماعة «أبوللو» وصاحب مجلتها للاشتراك فيها والكتابة بها..

وقد كان ذلك من بوعث تشجيعي، وتنمية شاعريتي.. ومنذ تأسيس أبوشادي جماعة «أبوللو» عام ١٩٣٢ وهو يشجع الشعراء والأدباء من الشباب ممهدا لهم طريق الوصول إلي القمة بعيدا عن الأنانية متدفقا بإنسانيته المثالية.. إلي تركيز قواهم الفكرية وتطهير أحاسيسهم من الشوائب ونزعات السوء، محاولا أن يبعدهم قدر المستطاع عن أضواء الضلال والباطل ومن أجلهم أنشأ مطبعة التعاون في حي السيدة زينب وكانت ملتقي الأدباء والشعراء الشبان حتي انتقل إلي مستشفي الإسكندرية مديرا لمعمل الإسكندرية البكتريولوجي وهو نفس المعمل الذي اشتغل به من قبل د. كوخ عندما جاء إلي مصر وتوصل إلي اكتشاف ميكروب الكوليرا.

وتضيف: إن الدكتور أبو شادي عمل أيضا أستاذا لعلم الجراثيم بكلية الطب، وعلاوة علي الأبحاث والفحوص الطبية المعملية الخاصة بمرضي المستشفي فقد حمل معه إلي الإسكندرية مطبعته ومنحله ودواجنه.

كان أبوشادي ملما إلماما عميقا بعلم النحالة وعلم الدواجن والزراعة وقد أصدر مجلة مملكة النحل وتربية والدواجن ورأس تحرير مجلة «النحالة العصرية» الإنجليزية.. ومجالها كان توطيد الصلة بين جميع البلدان التي تعني بالنحالة وكان حجة في هذا العلم.

وبلهجة ملؤها الاعتزاز تقول السيدة جميلة العلايلي: كان أبوشادي كاتبا كأقوي ما يكون الأديب الحكيم.. كتب في الأدب والتاريخ والدين والاقتصاد.

ونجح في كل ما عالج من موضوعات.. كانت كتاباته في نقد النثر والشعر تعالج المبادئ والأصول فكان ما كتبه دعامة المدرسة الحديثة في النقد الأدبي عميقا في تركيزه

وإنسانيته وأبحاثه كشأنه في علاقته مع الناس.

وتستطرد: كان أبوشادي متصوفا قوي الإيمان راسخ العقيدة ولم يكن إيمانه مجرد إيمان وراثي.. ولكن تعمقه في دراسة الطب وتبحره في علم الفلك وتردده علي المراصد للتأمل والاستيعاب لإدراك ما يمكن إدراكه من خفايا الكون اللامحدود وعلم الطبيعة المجهول مع اندماجه في ظواهر الحياة وهذا جعله عميق الإيمان.

والسيدة جميلة العلايلي تؤثر الحديث عن الآخرين قليلة الحديث عن نفسها.. وفي ذلك تقول «يحتم علي وفائي أن أعيش معهم بعد رحيلهم لأجدد أنفاس مشاعرهم وأدبهم وحياتهم التي أفنوها في سبيل الوطن والأدب وتسترسل في حديثها عن أبوشادي دون توقف.

ولد في التاسع من فبراير ١٨٩٢ من أبوين كريمين فوالده المرحوم محمد أبو شادي (بك) المحامي الكبير رفيق سعد زغلول منذ تلقي معه العلم في الأزهر الشريف.. وظل ملازما له في كفاحه الوطني ضد الاستعمار.. وكان من الطبيعي أن يرث عن أبيه أصالة الرأي وسلامة الأسلوب وصدق الوطنية والكرم إلي أبعد حد.. وورث عن والدته (أمينة نجيب) كريمة مصطفي نجيب الكاتب الشاعر زميل مصطفي كامل ومحمد فريد في الحزب الوطني ومؤلف كتابي «حماة الإسلام» و«أحلام أحلامي». وتضيف.. وهكذا نشأ الطفل لا يصل إلي مسمعه غير خلاصة الأدب والشعر ممن تجمعهم ندوة والده الذي كان يقيمها يوم الخميس في قصره بالقبة.

واستوقفتها.. هل كان لأحد رواد هذه الندوة تأثير علي شعر شاعرية أبوشادي؟

تقول: في مقدمة من تأثر بهم من رواد هذه الندوة شاعر القطرين «خليل مطران» ولكن أبوشادي حول شاعريته من المدرسة الشعرية القديمة التي كان ينتسب إليها

والده وأقرانه إلي مدرسة تجديدية متحررة تميل إلي الانطلاق لتصوير كل ما يتصل بالحياة غير مبال بما ينالها من نقد لخروجها عن حدود الشعر القديم.

وتعود لحديثها عن حياة أبوشادي فتقول:

ولم يكن يبلغ مرحلة الدراسة الثانوية حتي تفتحت شاعريته في سن الرابعة عشرة تقريبا مع نضوجه الأدبي الذي أتاح له قدرة الاشتراك في تحرير صحيفة «الظاهر» عام ١٩٠٥ وأعد مجلة قصصية باسم «حدائق الظاهر».. وفي هذه الأثناء تفتح قلبه علي حب إحدي قريباته وفيها يقول:

أطلي يا حياة الروح.. في عيني تحبيني
شرابي منك أضواء وقوتي أن تناجيني

وفي غمرة هذا الحب الذي ملك عليه نفسه بعد أن التحق بكلية الطب فوجئ بزواج حبيبته.. وداهمته أو أصابته الحمي من شدة الصدمة واضطر والده أن ينزل علي نصيحة الأطباء فيرسله إلي الخارج للعلاج لكي ينساها فزار اليونان وتركيا عام ١٩١١ للعلاج ثم رحل إلي لندن في ربيع ١٩١٢ ليكمل دراسة الطب ولكنه لم يقنع بالطب بل عكف علي دراسة الأدب الإنجليزي القديم والمعاصر نثرا وشعراً.. وهناك تأثر بسيدة إنجليزية تكبره في العمر لعنايتها به وتزوجها.

وكيف كانت بداية معرفتك بالدكتور أبوشادي؟!

هذه قصة قديمة وطويلة كنت في زيارة مع المرحومة خالتي لإحدي زميلاتها، وأثناء حديثها ذهبت أقلب المجلات الموجودة علي مكتب شقيقها المدرس لفت نظري مجلة اسمها «أبوللو».. فلما رأتني الزميلة قالت: إن أخي يحب الشعر ويحاول أن يكون شاعرا.. قلت: وأنا أيضا أحب الشعر.. ولذلك أحفظ المحفوظات الشعرية..

فقالت: خذي هذه المجلة واقرئيها ثم أعيديها قبل عودة أخي من السفر بعد أسبوع، وذهبت أطالع الأشعار المنشورة وخيل إلي أن في مقدوري أن أكتب شعرا مثله.

وفي اليوم التالي أثناء درس اللغة العربية طلب منا الأستاذ كتابة موضوع عن المولد النبوي الشريف الذي كان بالأمس، ووجدتني أكتب شعرا.. وبينما الأستاذ يمر بين الصفوف نظر وقال: ايه ده يا بنت وأخذ الورقة واحتفظ بها وبعد ذلك كتبت الموضوع وقالت زميلاتي يا ويلك.. وانتابني خوف شديد.. وبعد الحصة ذهبت إلي مكتبه كما طلب مني فوجدت أحد الأساتذة يقول: جميل أن تكتب بهذا الأسلوب وهي صغيرة، وقال آخر موهوبة بحق وناولني الورقة وعدت بعد ذلك أطالع مجلة «أبوللو» بانتظام.. ولم أكد استقر في التعليم الثانوي حتي ازداد شغفي بقراءة الشعر وقبل أن أتعلم «العروض» كتبت قصيدة قدمتها لأستاذ اللغة العربية فقال لي هل والدك شاعر.. قلت: لقد توفي منذ ولادتي قال: هل في أسرتك شاعر.. قلت: خالي وخالتي يقرآن الصحف والمجلات.. قال: إذن أنت موهوبة يا جميلة.. اكتبي كل ما يمر بخاطرك.. هذا هو الشعر الأصيل شأن العرب القدامي فقد كانوا يرتجلون الشعر بالسليقة.. وكان ذلك تأكيدا لتوجيه «مي» في رسائلها إلي وشجعني ذلك فأرسلت قصيدة كانت موجهة إلي الدكتور أبوشادي.. ولم يكد يتسلمها أبوشادي حتي أرسل إلي مجموعة مجلات «أبوللو» الأعداد السابقة مع كلمة ترحيب رقيقة، وكان يرسلها إلي عنواني بمجلة «الأهداف» وهي مجلة أدبية كنت أصدرها مع زوجي الصحفي المرحوم سيد ندا منذ عام ١٩٤٩ حتي أواخر الستينيات.. وتوقفت لأسباب خارجة عن إرادتنا.

وهذه المجلة مازلت احتفظ بهذه الأعداد في مكتبي ويعود إليها الشعراء الذين سبق لهم الكتابة فيها عندما يريدون الرجوع إلي تاريخهم الشعري وقد سبق للشاعر الكبير محمود حسن إسماعيل أن استعارها مني للاطلاع عليها ثم أعادها.

وتعود السيدة جميلة العلايلي إلي حديثها.. عمن ألهمته شعرا وألهمها قصة.. فتقول:

كانت تلك القصيدة التي أرسلتها إلي أبوشادي هي باكورة إنتاجي الشعري.. وحمل إلي البريد ديوان أغاني أبوشادي.. ولأول مرة تصلني رسالة من رجل تنم عن إعجابه وتقديره لمواهبي ويحفزني علي تكرار هذه المحاولة التي تكشف عن طاقتي الشعرية.

خفت وارتجفت خشية أن تقع الرسالة في يد خالي وقد نشأت في أسرة محافظة أورثتني الحيطة وعدم الاختلاط بالرجل علي أية صورة.. وخبأت ديوان الأغاني والرسالة تحت وسادتي لكي أطالعه سرا في غرفتي.. وصارحته في رسالة بذلك فكتب إلي ردًا يقول فيه:

خبأت أغاني الحب تحت وسادة بسريرها	فكأنها خبأت بها روحًا تحن لنورها
واستنشقت منها العبير وقبلت مغناها	فرأت فيها نور الحياة وحظها ومناها

وتقول جميلة كانت هذه الرسالة الشعرية بداية الارتباط بيني وبين أبوشادي موجها وهاديا.. وأسماني «ملهمته الصغيرة».

وكانت تلك العلاقة من أكبر الحوافز علي متابعة الكتابة إليه علي غير ما تعارف الناس في كتابة الرسائل.. فلم أكتب إليه رسائل غرامية ولكن بدأت أعبر عن هوايتي الفنية بالأسلوب الذي ينم عن موهبتي الشعرية وأصور ما يتراءي لي بأسلوب أسماه يومئذ الشعر المنثور.

وتقول السيدة جميلة العلايلي: وتبادلنا العديد من الرسائل منها ما يعبر عن السعادة ومنها ما يحمل الأسي.. وفي إحدي رسائله دعاني إلي زيارة مجلة «أبوللو» لكي يتسني لي معرفة أعضاء الجمعية وكتاب المجلة.. وعندما ذهبت إليه وجدت عنده لفيفا من الأدباء والشعراء منهم الشاعر الدكتور إبراهيم ناجي والشاعر صالح

جودت، وعندما قدمني الدكتور أبوشادي إليهم وعرفني أنني من المنصورة انتفض إبراهيم ناجي كأن الذكري حركت مشاعره.. فعندما كنت في المرحلة الابتدائية رافقت المرحومة خالتي إلي الطبيب الذي كان يعمل طبيبا للسكة الحديد بالمنصورة وكان معروفا عنه أنه طبيب ماهر وبعد تشخيص ما تشعر به وكتابة الروشتة استوقفها قبل أن تخرج وهو ينظر إليها نظرة إعجاب إذ كانت رحمها الله جميلة ساحرة ثم وجه إليها بعض أشعاره فأحمر وجهها خجلا، ولكيلا يستمر في غزله الشعري قاطعته: ابنة أختي جميلة تقول الشعر بالفطرة.. فقال: ما دامت كذلك ساعديها علي تنمية هذه الهواية.. وعند انصرافنا طلب بلهجة الرجاء أن تزوره لا كمريضة لأنها ستشفي بمجرد تناول الدواء ولكن كملهمة.. ولكنها لم تذهب لأنها كانت مخطوبة ولما علم خطيبها بما حدث منعها من الذهاب إليه.. وقال إبراهيم ناجي بعد أن سرح بذهنه.. آه من المنصورة إنها أجمل مدينة موجه حديثه إلي الرفاق.

وقال الشاعر صالح جودت لا شك أنها ألهمتك الكثير.. وقلت أنا للدكتور ناجي حضرتك الدكتور الذي ذهبت إليه خالتي وكنت معها وأنا صغيرة وقلت شعرا.. وتسأل صالح جودت وعمن كان هذا الشعر؟ لا شك أنك كنت صغيرة يومئذ.. فقاطعته: إلي المرحومة خالتي.. فقاطعني ناجي آه تذكرتك.. لكم كانت خالتك جميلة فاتنة ولكنها لم تأت ولو جاءت لساعدتني علي إصدار ديوان من إلهامها.. وأنت الصغيرة التي قالت عنك إنك موهوبة.. وعجيب أن اقرأ شعرك الآن ولا أدري أنك أنت الصغيرة الجميلة التي رأيتها منذ أعوام وإن كان جمالك اليوم.. فاستوقفه الدكتور أبوشادي.. ناجي حسبك إنها جاءت بدعوة مني إستجابة لرغبتكم لرؤية هذه الشاعرة وأظن يكفي رؤياها الآن فدعوها تسمع ما يعينها علي المضى في طريقها دون تهيب.. وغير مجري الحديث لاختيار المواد التي ستنشر في العدد.

وتغير هي مجري الحديث وتقول:

وفي هذا الوقت مع تقدم ثقافتي فكرت في نشر الثقافة دون الاعتماد علي المناهج الدراسية فكونت جمعية أدبية باسم أسرة الثقافة ساعدت علي تأسيسها بعض المتصلين بي بعد إصدار مؤلفي «الطائر الحائر» ١٩٣٦.. وكنا نقيم بجانب ندواتنا الأسبوعية التي تجتمع في مكتبي بمنزلنا بمحاضرات أدبية شهرية عامة.. تستدعي لها كبار الأدباء والشعراء وفي مقدمتهم د. زكي مبارك، إبراهيم ناجي، محمود العزب موسي، وبعد ذلك أصبحت رئيسة مجمع الأدب العربي.

وتعود السيدة جميلة العلايلي لتستعيد ذكرياتها عن الشاعر الدكتور أحمد زكي أبوشادي:

مرت فترة من الزمن انشغلت فيها بتكملة دراستي العليا فالتزمت الصمت مضطرة.. وفوجئت برسالة من أبي شادي يقول فيها:

مـــا لــلــسـكــوت يــطــيــب عــنــدك
هـــل ســكــوتــك مـــن صــلاتــك؟
كالفجر للنهر الجميل إذا تبسم عن صفاتك
ما بي ثورة نفسك الظمأي تصحيك أم تؤاتك
واظل أعشق شعرك الفريد عشقي لطف ذاتك

ويتوقف صوتها الحنون الموسيقي الذي ينبعث من أعماقها دائما.. يقطر عذوبة.. وبابتسامة هادئة تقول: إلي آخرها وهي طويلة..

وتضيف: ولن أنسي أبدا زيارته لي عندما علم بمرض والدتي ليهون عني آلامي لتعلقي الشديد بها.. وعندما عرفت منه قصة حبه الأول لإحدي قريباته التي أحبها

حبا شديدا وفوجئ بزواجها.. وزواجه هو من الإنجليزية تأثرت لفشله في الحب وأخذت عليه زواجه من أجنبية.. وفي مصر من كانت جديرة به في هذا الوقت وفي كل حين.. وألهمني قصة «الطائر الحائر».. وهي تدور حول هذه الفكرة وعرضتها عليه لينشرها تباعا في مجلة «أبوللو» ولكنه نصحني أن تنشرها كاملة باعتبارها فاتحة لأدب القصص وفي مقدمتها كتب يقول:

أهلا «جميلة» بالحياة كما رأت عيني
فيها معان تستطاب فأيها معناك
جللت ألوان المحبة والجمال الآسر
وشرحت قصة طائر بين المفاتن حائر
وأراك فاتنة العواطف بالخيال الساحر
أنفاس شاعرة لها أنفاس وحي شاعر

واستمع للأديبة الشاعرة تسترسل في حديث ذكرياتها.. واسترجع ما قرأت لها شعرا أو قصصا وأشعر بشخصيتها تطل من خلف السطور.. تهفو إلي المجهول وتحن إلي المحال.. محتسبة داخل ذاتها.. فلا تقرأ لها إلا وتشعر أنها تخفي في أعماقها صفحة كاملة.

ونعود إلي السيدة جميلة لتقول: وعلي أثر صدور القصة دعانى أبوشادي لتكريمي بتناول الشاي في منزله فذهبت إليه بمرافقة الشاعر المرحوم عبدالعزيز عتيق بمنزله بضاحية المطرية وقدمت لزوجته الإنجليزية ولشد ما هالني أن أري صورتي التي أرسلتها للمجلة معلقة في اطار علي حائط غرفة المائدة وهي غرفة الاستقبال أيضا.. وسألته ألا تخشي زوجتك فتعلق الصورة هكذا.. فابتسم وقال لقد حدثتها عن مواهبك وشاعريتك.. وشأنك كشأن أية شاعرة أجنبية يباهي المعجبون بها والاحتفاظ بصورتها.

وتمضي فترة سكون تطيل فيها النظر في لا شيء وأسألها.. فيما التفكير؟ أتعجب كيف استطاعت هذه المرأة العجوز أن تؤثر عليه وتتزوجه! وبلهجة حزينة قالت: يأس الإنسان يدفعه للانتحار أحيانا.. وهو يحمد الله لأنه غالب اليأس بهذا الزواج.. والزواج عنده شركة تخفف ثقل المسئولية عن أحد الشريكين.. أما الحب فساحته القلب لا علاقة له بالمادة.. إنه أكسير الحياة.. يخفف عبء هذه الشركة.

أقول: رغم جهاد الشاعر الدكتور أبوشادي وتضحياته الهائلة في سبيل وطنه ورسالته إلا أنه كان يشعر بأنه يعيش غريبا في وطنه.. كيف؟.. ولماذا كانت هجرته إلي الولايات المتحدة الأمريكية؟

تقول: علي أثر معركة حامية قامت بين أدب الشيوخ وأدب الشباب بدأت الدسائس تحاك في الخفاء وقد كان بطبيعته لا يحاول أن يتقرب إلي ملك أو وزير ولذلك وجد الحاسدون له والحاقدون عليه لتأثر أدباء جيله به والتفافهم حوله.. سوقا رائجة في ميدان الحكومات الغاشمة التي تعتمد علي المظهر دون الجوهر فلم ينل حقه كموظف حكومي له درجة علمية عالية كي يصعب عليه أن يرد الإساءة لأنه عف اللسان وصعب عليه أن يعاني عسرا في حاله بعد أن بذل كل ما يملك في سبيل إصدار مجلاته ومطبوعاته دون عون حكومي بجانب سوء حالته النفسية وخيبة أمله فيمن بذل في سبيل إظهارهم من الحب والجهد والتضحية والمال من كل وقته قد تحولوا عنه إلي المقربين لذوي السلطة والسطوة وفريق آخر ينافقه ليأخذ منه ثم يطعنه في الخفاء ليرضي أحد أعدائه كي يأخذ بيده ويقف بجانبه لينال مأربا ماديا أو مركزا حكوميا.

وتضيف بصوت ملؤه الحزن والأسي.. وهنا وجد القيم الأخلاقية التي يعمل لتقويتها لا سند لها ولا معين وأن المثل العليا لا وجود لها إلا في ذهنه وبقي معه قلة من

أصدقائه المخلصين ومقدري إنسانيته ومحبي مثاليته ولكنهم مع الأسف لا يملكون ضرا ولا نفعا.. وفي غمرة كل هذا باع مطبعته بثمن زهيد وأهدي منحله ودواجنه وفوجئنا بعزمه الأكيد علي الهجرة وغادر الإسكندرية في ١٤ أبريل ١٩٤٦ بصحبة أولاده.. صفية وهدي ورمزى.

واستقر به المقام في نيويورك علي أن حزنه لمغادرة وطنه لم يغادر وجدانه ورحبت به الجامعات والجمعيات الأدبية والعلمية في أمريكا وكتب في جميع صحفها العربية والإنجليزية مع مراسلته للصحف في مصر والعالم العربي وشغل أعلي المناصب فقد عمل مستشارا للحكومة السعودية في الأمم المتحدة ثم مستشارا للوفد الأريتري في ثلاث دورات متوالية ثم عضوا في مجلس الرابطة الدولية لحقوق الإنسان وعضوا بمجلس البرلمان العالمي للديانات كما حاضر في الندوات التي تشرف عليها الحكومة الأمريكية والمعاهد والمؤسسات الثقافية كما أسس في نيويورك «رابطة منيرفا» لتشجيع كل من ينتمي إلي الشعر والأدب واللغة والاجتماع والفلسفة والعلوم، وقد أصبحت هذه الرابطة الأدبية بفضله مشعلا يستضيء به الأدباء والمتأدبون في أمريكا وغيرها من البلاد.

وكان رحيل أبوشادي في أبريل ١٩٥٥ نهاية وجوده في دنيا اتسع لها قلبه ولم ينل منها غير المتاعب والآلام والتضحيات.. ونهاية لحديث السيدة جميلة العلايلي.

النحال

ويصفه الأديب خيري شلبي ٢٠١٤، بالنحال الذي أفرز لنا الشهد والعسل في صورة مجلاته وإبداعاته التي أصدرها قبل هجرته خارج مصر:[١]

«أظن بادئ ذي بدء أن «أبوللو» كانت فريدة في بابها، ربما كانت أول مجلة تتخصص في الشعر وحده وتصدر بانتظام محققة نجاحا مطردا يعلو شأنه من عدد إلي عدد كانت تأخذ شكل الكتاب مثل مجلات الكاتب المصري والمجلة الجديدة ومجلتي والمقتطف والهلال والعصور وغيرها، وكان ينفق عليها من حر ماله، ويصدرها في شكل جذاب علي ورق سميك مصقول يليق بجلال الشعر في نظره ويلاحق أحدث الاختراعات في آلات الطباعة الحديثة ليكسب مجلته جمالا جديدا ومواكبة جديدة، يحرص علي المشاركة في توضيب صفحاتها بذوق رفيع، وبنفسه يختار ما ينشر فيها علي أرقي مستوي من التجريب والتحديث، وبنفسه يشرف علي جمع الحروف، ويراجع البروفات بدقة ليكون كل حرف في مكانه من السياق ولا يهنأ له بال إلا بعد أن يراها مشرقة كالعروس بين أيدي باعة الصحف تقلب فيها اليوم فنراها كمنجم الذهب لا يكف عن إبراز ما في باطنه من كنوز.. ياالله كل هذه المواهب الشعرية تفتحت علي صفحات هذه المجلة وتشربت رحيق أفكار أبي شادي وشاركته في استجلاء تجربة إبداعية كان الشعر العربي الحديث أحوج ما يكون إليها في ذلك الزمان لتتجدد الدماء في شرايينه ويسترد قوته الضائعة، وشأن كل الرواد العظماء قد يكون مستوي تحققهم في الإبداع أقل من حجمهم كرواد علي درجة كبيرة من الثقافة والتفتح وامتلاك روح

(١) مجلة الإذاعة والتليفزيون/ النحال بقلم خيري شلبي/ ١٧ أبريل ١٩٩٩.

المغامرة، كذلك كان شعر أحمد زكي أبوشادي تري فيه جرأة الريادة، وروح المغامرة في التعامل مع الصورة الشعرية والأشكال والتفاعيل وفي استعلائه علي حرف الروي إلا أن تجيء القافية وحدها من تلقاء شعورها وصعودها من التيار الشعري المتدفق، أما الوهج الشعري الحقيقي، الذي يمكن أن تحققه مثل هذه المغامرات الفنية أو هذه الروح الريادية المهمومة بمناوأة القديم الموروث لخلق جديد عصري حداثي، أما هذا فنجده مشعا في رفاقه وأتباعه وتلاميذه من أبناء مدرسته الشعرية مدرسة «أبوللو» التي نبغ فيها كثيرون من أمثال، أبوالقاسم الشابي والهمشري ومحمود حسن إسماعيل وصالح جودت وأحمد فتحي وأحمد مخيمر وغيرهم ممن أصبحوا من ألمع الشعراء العرب مثل حسن كامل الصيرفي ومختار الوكيل مصطفى السحرتي وغيرهم.

كان رجلا غريبا، معطاء مجنونا بالفن والأدب فبعد وفاة والدته أرسله أبوه إلي أسطنبول ليكمل تعليمه فيها، ثم بعثه إلي لندن لدراسته الطب، فأتقن اللغة الإنجليزية وكتب بها شعرا ودراسات في النقد والأدب والعلم، فقد انفتح في لندن علي عوالم كثيرة قام بدراستها، مثل دراسته للكيمياء ومعاملها، ودراساته للنحالة، وتربية الدواجن فلما عاد إلي مصر في العام الرابع والعشرين متزوجا من إنجليزية فاضلة قام بتأسيس صناعة النحل في مصر، أنشأ المناحل ودعا لإنشائها، وأنشأ ناديا لمربي النحل في مصر وأصبح رئيسه، وأصدر مجلة خاصة بعلم النحل وفنون التعامل معه وتفاصيل عالمه الغني.

يصفه محمد لطفي جمعه - صديقه وصديق والده من قبله - بقوله: «كان أحمد زكي أبوشادي طويل القامة أبيض اللون معتدل الوزن أقرب إلي الطفولة والبساطة في الحديث ولا يفهم النكتة ولا يقولها ولا يدخن ولا يشرب الخمر ولا يسهر خارج منزله وله أسرة حسنة يبر أهله وأقاربه وأصدقاءه الجدد حتي إذا ما طال عليهم القدم تخلي عنهم وقال إنه كان مخدوعا فيهم، وفيما عدا ذلك فهو رجل ظريف مؤدب حسن العشرة كريم الخلق يلتف حوله الناس ويعجبون به ولكنه ليس عميق الصداقة.

وكان فوق هذا كله شاعرا مكثارا ومؤلفا تمثيليا وكاتبا سيال القلم، فأنشأ جماعة أبوللو وجعل لها مجلة باسمها وأنفق عليها من حر ماله.. وقد أعان بيرم التونسي في غربته، ونشر أشعاره في مجلة الإمام علي الرغم من غضب القصر علي بيرم، كما أعان إسماعيل أدهم الأديب الذي توفي منتحرا بعد أن ضاق ذرعه بالناس والحياة في العام التاسع والعشرين.

ومن أطرف ما يمكن أن نقرأه عن محنة كاتب أو شاعر ما يرويه محمد لطفي جمعة من أن أدب أحمد زكي أبوشادي كان سبب اضطهاده في وزارة الصحة ولكن وزارة الوفد كانت تحميه بسبب علاقة والده بالمرحوم سعد زغلول الذي عينه في مجلس النواب ورأس الاحتفال بتأبينه بدار الأوبرا عام أربع وعشرين.

وترجع حالة أحمد زكي أبوشادي - فيما يقول محمد لطفي جمعة - إلي جملة عوامل أولها تيتمه المبكر من والدته وقسوة امرأة أبيه وخيبة أمله في امرأة خطبها وأخذت منه اغتصابا فأرغم علي مفارقة البلاد فكانت له في الغربة وحدة ووحشة كالتي كان يعانيها في وطنه فنبت في نفسه سوء الظن بالناس واستشعر انطباعهم علي الغدر، وشدة حساسيته وعدم تحمله الضيم الصحيح أو المتوهم من صديق، كان يتخذ بعض الناس لقضاء مآربه الشريفة ولكنه يسأمهم بعد حين وينتظر منهم عرفان الجميل العميق.

هذه الشهادة مهمة جدا، وأزعم أن الدارسين لأحمد زكي أبوشادي لم يقرأوا شهادة محمد لطفي جمعة، فلو كانوا قرأوها لأضاءوا بها شخصيته وفهموا علي ضوئها تركيبة هذا الرجل النفسية التي كانت لا شك مسئولة عن ذلك التعتيم الذي أحيط به بعد رحيله علي شدة أهميته كرائد وقائد ومعلم صدر له أكثر من ثلاثين ديوانا من الشعر بخلاف مسرحياته.

ويلقي محمد لطفي جمعة كثيرا من الضوء علي تاريخ هذا الرجل وأسباب محنته

منها أن أحد صغار الكتاب السكندريين أذاع عنه بأنه ملحد وإباحي وناكر للنبوة كما أنه يضع تولستوي وفرويد في مقام النبوة، واستشهد ببعض قصائد من أشعاره في أبوللو، فلما علمت وزارة الصحة بهذا الهجوم نبهت علي أبوشادي بعدم الاشتغال بالسفاسف ونهته عن التهتك في الشعر بل نهته عن الشعر نفسه والاهتمام بوظيفته.. العجيب أنه استجاب بالفعل لأمر الوزارة وكف عن الكتابة تماما، أو بمعني أدق طلق اللغة العربية وراح يكتب وينشر باللغة الإنجليزية.

ويبدو أننا لم نكن نعرف شيئا عن حياة هذا الرجل رغم أن مريديه كثيرون من الشعراء العرب والدارسين وهؤلاء وأولئك تربطهم به حميمية خاصة يقول محمد لطفي جمعة: كان للدكتور أبوشادي خلافات مع كامل كيلاني ومنازعات وخصومات حامية، فاستعمل له كيلاني أشخاصا مثل محمد مصطفي حمام فكتبوا عنه أمورا تشيب لها الأطفال في مجلات هزلية كالمطرقة والبعكوكة فشكاهم أبوشادي إلي النيابة ووسط بعض الفضلاء فرجوهم الكف عن مخاصمته في الصاعقة ومجلة الإسلام التي كان يصدرها أمين عبدالرحمن وأقاموا الدنيا عليه ولم يقعدوها، وقارنوا بينه وبين المرحوم والده الذي كان مغرقا في التدين وشيخ الطريقة القاوقجية النقشبندية وأما الخلاف بينه وبين كامل كيلاني فسببه – ويا للعجب – تنافسهما علي رئاسة رابطة الأدب العربي!!

مثل هذه الخلافات الصغيرة قديمة إذن، ومتأصلة تأصل السلطة في نفوس جميع أبناء الشعب المصري، فليس يكفي أن تكون مثقفا وصاحب موهبة مهما تكن قوية، بل لابد أن تكون صاحب سلطة من نوع ما، إنه بالنسبة لأمثال هؤلاء الطيور المغردة مجرد احتياج نفسي، لكنه كثيرا ما يكلفهم أثمانا باهظة ويبدو أن زكي أبوشادي من فرط حبه لعالم النحل وعشرته له أصبح يملك الكثير من صفاته، فقد تعرض للقرص، وملأ الدنيا طنينا وقرصا، ولم يبق منه في النهاية سوي القليل من أقراص الشهد والعسل.

قصة حبه وديوانه المجهول!

في عنفوان صباه عام ١٩٠٩ وأحمد زكي أبوشادي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره أحب أحمد زكي أبوشادي فتاة اسمها زينب محسوب إحدي قريباته حبا عفيفا عاصفا ملك عليه قلبه ووجدانه وأراد الزواج بها لكن والده رفض حتي يكمل دراسته بكلية الطب فكانت صدمة حياته ومن وحي الحبيبة الملهمة «زينب» استوحي العديد من القصائد العاطفية الملتهبة تحكي أطوار هذا الحب وتموجاته ما بين الصد والقبول والقرب والبعد والهجر والوصال وقام بنشر هذا الديوان الفريد علي نفقته الخاصة عام ١٩٢٤ وطبع بالمطبعة السلفية بالقاهرة لصاحبها المفكر السوري محب الدين الخطيب تحت عنوان «زينب» وطبع منه حوالي خمسين نسخة فقط ليسجل بها هذا الحب العاصف الذي ملك عليه نفسه والذي انتهي بالإخفاق وقد قيل إن زينب بعد أن تزوجت من شخص آخر وبعد عدة سنوات توفي عنها زوجها فاتصلت بحبيبها السابق أبوشادي علي أمل الزواج لكنه كان قد اختط طريقا آخر له، وتبدلت مشاعره فلم يستجب لهذه الدعوة من زينب الذي أصبح حبها مجرد ذكري من ذكريات الصبا والشباب!

ومن المصادفات الغريبة أن يتزوج الشاعر حسن كامل الصيرفي فيما بعد شقيقة زينب ولكنه لم ينجب منها، فقد ديوان زينب ولم يعد له وجود حتي تمكنت بفضل الله من العثور علي نسخة نادرة من هذا الديوان الذي يسجل مرحلة مهمة من حياة أحمد زكي أبوشادي وشعره والذي يعد ديوانا مجهولا لأنه أصبح من نوادر الكتب وأشكر الصديق الشاعر الإعلامي عزت سعد الدين الذي أهداني صورة من هذا الديوان النادر المجهول.

زينب

نفحات من شعر الغناء

مختارة

من شعر الصبا

لأستاذ الفن والحكمة والأدب

الدكتور أحمد زكي أبي شادي

لجامعها وناشرها

حسن صالح الجداوي

دبلوم تجارة عليا

وصاحب جريدة «السويس الناهضة»

الطبعة الأولي

١٣٤٣ - ١٩٢٤

المطبعة السلفية بمصر

لصاحبها: محب الدين الخطيب وعبدالفتاح فتلان

إهداء

إلي الجمال الذي من نفح عزته رشفت حلو لذاذاتي وأشجاني
أهدي بنات الحجا: (برّا بمبدعها وكنز ديوانه الوضاء): ديوانى

أحمد زكي أبوشادي

إلي المغني

شنفت أرواحاً لصوتك آمنت بالوحي والايقاع والإبـداع
وحكمت بالعود المرنح مثلنا في دولـة الألباب والأسـماع
فلك الثناء من العواطف والنهي في الأسر بين تعانق ونـزاع
وليحي فنك خير ذكري ليلة أهدت إلي الإيناس أكرم داع

الطبيب والزهر

كتابك العذب يا روحي وريحاني ... وفا فحيا غرامي حين حياني
وناشد الشعر من قلبي فهاك هوي ... يا قبلة الشعر يا شمسي وديواني
رحلت عنك رحيل الطيب عن زهر ... يودي به البعد لولا حبك الداني
فكنت كالزهر برا والنسيم رضي ... وكنت كالشمس في حسن وإحسان
أهلا بمكتوبك البسام ينعشني ... وفيض نورك إسعادا لإنساني
في كل لفظ معاني الأنس ضاحكة ... وكل معني دليل الصبر للعاني
أهلا به من أمين حامل قبلا ... في أحرف النور من معبودي الساني
لثمته في تقي أضعاف ما لثمت ... حروفه من فؤادي (زين) إيماني
وصنته والأبر الجم من ورعي ... في مكمن الخلد من نفسي ووجداني
الله يرعاك لي يا مهجتي فدعي ... خوف الفراق وكوني عند حسباني

نظرة

أخذت تلقنني الغرام بنظرة ... عتبت كان أسيرها القلب الخلي
فجعلت أسألها الأمان وأتقي ... مـن لحظها مـا أتقي لمؤملي
ما بين فتنتها وبلسم حسنها ... أنـا قسمة لمـعـززٍ ومذلل
يا (زين) ما في النفس إلا حرقة ... تبقي كسابقة الشعور الأول
أحببتك الحب الصحيح وإنني ... باقٍ علي الإيفاء والشرف العلي
يتطلع الصب المشوق لقبلة ... ولـو أنـه نـال المني لم يفعل
صبرًا علي التقوي وإن ذهب الهدي ... بجلالة الماضي وأنس المقبل

عرس المأتم

عذبة أنت في الخفاء وفي الجهر
وفي الهجر يا أغـاني الظلام

بلغي العاشق الأمين علي العمر
شـقـاءً لقلبه المستهام

وارفقي أدمعي فحسبي عزاءً
أن يسر الحبيب من إيـلام!

ويـزف الجـمال جنة قلبي
ضاحكا من فؤادي المترامي!

زاعـما أنـني بـه غـير أهـلٍ
وكذا يرتضي أميري خصامي

يا حياتي! ويـا منارة لبي!
كيف أنسيت أشوق الأحلام

كيف أنسيت يا غرامي ولوعي
هـازئـا مـن تقلب الأيـام؟

ألثم النور في دعـاب إذا ما
أقبل الفجر من رسول الغرام

وإخال الأزهار في روض بيتي
تتسامي لحسنك البسام

ويجـيء الأصيـل ينشر تـبرًا
هو للشعر من نبالك رامي

ويجيء المساء بالوحي صدقا
من أغاريد فتنتي في منامي

كيف أنسيت يا ربيبة عمري
كيف أنسيت في غرور هيامي

هل قضي الحب من غذاءٍ لروحي
غير مرآك أو أبي لي مدامي؟

إيه يا (زيـن) آفل من شبابي
إيه يا نجم قاتلٍ من ظلامي

افرحي العمر وأسعدي دون قربي
وأذكري في الغداة معني أوامي

وأنا المذنب الغفور وحسبي
دمعة منك سوف تروي عظامي

يا قلب!

ثق بالحياة ولا تخفق على عجل ... يا كاره العيش من حب ومن وجل
أنفقت فيك دموعًا كم بررت بها ... هل بعد عهد النوى تدني له أجلي
ثق يا حليف الهوى بالحب أين مضى ... وعش له في خفوق الرفق والغزل
مسبحًا باسمه المعسول ملتمسا ... من نقمة الهجر فرض البر والأمل
كذا يضحي الوفي الأنس مغتبطا ... ويطلب الصفو في الآلام لا الجذل
لولا العذاب ولولا البر ما عرفت ... جلالة الحسن فيك النبل من بطل
ثق يا فؤادي ولا تصدعك نائبة ... فالفوز للصبر لا للهم والزلل
ثق يا وفيا تغني شعره طربا ... بذكرها، فغدا يبكي ولم يزل
في كل دقة لحن منك عاصفة ... وكل خفق لك القتال من زجل!
يدوي دويا بك الغالي دم عرفت ... به الصبابة لون الحب لا الخجل
كأنها الوحي لا سلك ولا سبب ... من لحظها العمر يزجيه بلا ملل
ترف كالطير مذبوحا وفي قفص ... أو كالرضيع هفا شوقا إلى قبل!

لفتات الغريب

ألا في سبيل الحب والأمل الغالي … عذابي عذاب النفي في الجبل الخالي
شريدًا وحيدًا للطبيعة موئلي … أكفكف دمعي في أشعة آصال
وأندب عمري قد تولى أعزه … ولم يبق غير الذكر والمثل العالي
كأني لما لاقيت من فرط شقوتي … خلقت لأعطي الدهر حكمة أجيال
جزيت علي طهري بتغريب مهجتي … وأوذيت من أجل الوفاء ومن آلي
فبنت صبيا في رجولة ناقم … علي الدين والدنيا علي الشرف البالي
يحن إلي البحر يخفق ماؤه … ويحملني رفقا إلي الحرم العالي
إلي دولة في أرضها العلم نابت … إلي أمة من خلقها كل إجلال
إلي الوطن المحيي الموات فلم يصب … شفائى من داءٍ بقلبي قتال
أأحرم من شمسي وأحسب هانئا … وحولي ضباب العيش لا الأمل الحالي
فيا عصبة شاءت فنائى وأسرفت … ستحيا علي رغم الدسائس أفضالي
ويذكرني قومي ويعرفني الهوي … فتنقم لي العلياء والزمن التالي
عرفتم لصوص الحب والحب لم يكن … غفورا، وكم تشجيه نكبة أمثالي
ويا شمس جنات النعيم لخاطري … حجبت ولكن ما سناك لإغفال
سلوت فؤادي في غرامك طائعا … وما كان عبد في غرامك بالسالي
سأحيا وأفني فيك أصدق عاشق … أصاب به الزلزال قدوة أبطال
وقد تنصف الأيام نفسي وهمتي … فأدفن أحزاني وأطرح أثقالي
وألثم ثغرا ساغ لي منه بخله … كلثم البخيل الدر في كف لآل!

زينب!

زينب! ما أحلي الخفوق الذي لا يرحم القلب لدي قربك!
زينب! يا روحي وريحانتي ما شئت ما شئت هوي صبك!
زينب! يا شمسي ويا بهجتي كوني كعهد الشمس في حبك
أغليت أشـواقـي ضنينا بها من أجلك فابقي علي قلبك
كوني السني والهـدي والمني للعاثر الـرانـى إلي طبك
كــوني أيـــا مـلـكـي غـايـة للطهر تدنيني إلي ربك
بـالله يا نعمي غـرام الصبا لا تـسرفي حزنا عـلي ذنبك
حسي ووجـداني وكلي الفدا للأكمل الأجمـل من دأبك
إن عشت لم تنسخ صلاتي النوي أو مت ناجاني هوي تربك!

شمس نسيان

يا شمس نسيان في برج لها ثان | متي الوصال وقلبي عرشك الساني؟
متي تنعم أوطــان مروعة | حسي ونفسي وإلهامي وسلواني؟
هيهات تنزل دون الشمس منزلها | من نلن نائلها أحراس أيوان
متي تحين أمــان منك شائقة | فيحمد الظلم والانصاف في آن
لا ترحميني إذا ما خلتني فلكا | يخشي عليه فإن البعد حسباني
الشمس تجتذب الأجرام قاتلة | ورب قتل بقرب منك أحياني
الله في عاشق شب الغرام به | وحــظـه بــل نـــيران بـنـيران
إذا الشموس تجنت لم تضع أملا | بل زادها ثملا من قسوة عان
أقسي أذاها عناق لا فراق له | يذوب فيه فيحيا الخالد الفاني
ردي حنانك إني لم أصر بشرا | من الهباء سوي من هجرك الجاني!
لا تتركيه بلا جذب ولا سبب | إلي اللقاء فأحلي الوصل روحاني
سلي خيالك يخطر في المنام له | وسره صفو حرمان وإحسان
إذا تجلي تهادي اللطف في ملك | وعانق الليل شكرا خاطر هان
سليه يبسم بـآمـال يقبلها | فم المعذب يا آمـال نسيان!
سليه يخلع عذار الدل عن خفر | فذاك أولي بمعبودي وإيماني!
سليه يسفر فينشر خمرة كرمت | نورًا وعطرًا ووحيًا منه سكران!

سليه ينطق بأنغام يرتلها شعري كأن بها إعجاز قرآن!
سليه ينزع ثياب الكون ليس له إلا سطوع سني لاستر جثمان!
سليه ينصف فؤادي في عبادته فدينه دين نشوانٍ وظمآن!
لا تستقيم فروض من تنسكه إلا علي قبلات بين ألحـان!
ومشتهي نظرات غير عاثرة كأنه جـارئـا عباد أوثـان!
وإنما أنا أخشي حكمة وهوي أن لا يفيك خيال سجدة الراني
فحبذا أنت عن بر وعن ثقة سفيرة الطيف يا روحي وريحاني
كوني لمثلي الذي يرضاه مثلك لي أكن لك المثل الأعلي بعرفاني
وأغتدي ملكا يرعاك مشتركا في الخلد يمرح منا فيه روحان
فإن قبلت فما أبقيت من نعم وإن عصيت فقد أفنيت وجداني!

الحلم الصادق

هـات لي الـعـود وغـنّـي واسـمـعـي شـجـوي وأنّ
تـطـرحـي الأحــزان عنّي فــــاؤدّي صــلــواتي!

**

قـالـت الحـسـنـاء سمعا يـا حـيـاتي هـاك طـوعـا
مـن سُـلاف الحـبّ نوعا يـا حـيـاتي! يـا حـيـاتي!

**

ثـم غـنـتـنـي اعـتـذارا رنـحـت مـنـه الهــزارا
وأحـبّـتـنـي جـهـارا يـالـه مـن حُـب عـات!

**

تـرسـل الـصـوت شجيا يـمـلأ الـقـلـب دويـا
لـيـتـه عـاش خـلـيـا لـيـتـه الـبـاقـي لآت!

**

ثـم كـفـت عـن عـذابي بـأغـاريـد الـشـبـاب
وتمـادت في دعـابي بـالـلـحـاظ الـفـاتـنـات

**

ويحلو الشعر عطفا ... وجمال الشهد قطفا
لست إن حاولت وصفا ... بالغا أحلي الصفات

**

إيه يا يوم تقضي ... في نعيم كيف ترضي
لفؤادي العود أرضا ... كيف ترضي لي مماتي؟

**

قال برا بي رحيما ... لستَ من يحيا سقيما
بعد عهدي الحر فيما ... ذقته من حسناتي

**

وأتي الليل الموافي ... بين أحلامي بشاف
من حبيبي واعترافي ... سره سر الحياة!

**

ودنا الفجر بفجر ... من ولوع هدَّ صبري
وحبيب ذاق ثغري ... فأتي وهو المؤاتي

**

إيه يا (زين) شبابي ... يا مني قلبي المذاب
يا مدامي يا شرابي ... هات من كاسك هات!

كأس شمبان

حــيـــاتي هـــات الـــراح
مـــن ثـــغـــرك الـضــاحـــي وخصي بها الأزهار أجمل أقداح
ولا تكتفي باللثم يا نفح زهرة لقلبي فما تغني السلاف عن الصاح
ولا تستعيضي عن سنك بخمرة فما يسكر الأرواح مسكر أشباح
سوي خمرة وضاءة إن نفحتها بسحرك شاقت قبل عاشقها اللاحي
أشيري إلي (الشمبان) ترقص صبابة وتنثر سنّي الدر هزة مسماح
غيور نفور صاعد هابط معا علي وهج الأصباح أكرم سباح
من اللهب البسام يروي مذابه غرامي ويطفي من شجوني وأتراحي
يكرمها التفاح تكريم عاشق فتهدي إلي الأرواح قبلة تفاح!
ولو كانت الأرواح سكري بغيرها لأنعشها شوق إلي هذه الراح!

ذكري الحب الأول

سلام لقاءٍ بعد فرقة أعوام   وقبلة شوق من فؤاد الفتي الظامي
تقلبت الدنيا بحرب وثورة   ومازلت سلطانا عليه بأحكام
فيامنبع الوحي الذي ذقت حلوه   صبيا، حفظت الدهر مطلع إلهامي
أخاف علي نفسي اللقاء كعابدٍ   يخاف دنو الفجر والمشرق الدامي
فحسبي من الأيام وجدي ولوعتي   صلاتي حزين العمر توجع أنغامي
رحلت رحيل الورد قبل أوانه   إلي المغرب القاصي ضحية أسقامي
وملئي من الحب الزكي سلافة   تبث من الآلام أعذب آلامي
فكنت علي الذكري شجيا وهائبا   كلائم أزهار وراصد أجرام
إذا خفق الرطب النسيم حسبته   رسول الهوي الباكي الغفور لآثامي
وإن خطرت من شمس (مصر) رسالة   قرأت ثناياها بقية إسلامي
وماشمت أنسالم تكن أنت روحه   خيال للطف من جمالك بسام
وما اكتأبت نفسي لغير اتهامها   بهجرك، والمهجور عبد لأوهام
فيا (زين) أحلامي ويامهد نعمتي   أأنساك والنعمي رهينة أحلامي؟
وسيان جدت اليوم عفوا وتوبة   أو ازددت تيها عد شاهد إجرامي
فمنك عرفت الشعر والحسن والهوي   ومن حقك الباقي الجلال واعظامي
أعيش كعيش النحل نفعا لغيره   وأعشق شهدا أنت مظهره السامي!

خصلة شعر

خلوت إلي مهجتي في الظلام أخفف من حظها العابس
فقالت: حرام، حرام، حرام فما الأنس في البين عن مؤنسي
وهل طاب للعاشقين المدام إذا احتجبت (زينة) المجلس

فـبـالله دعـنـي لـدمـعـي الحـزيـن
فـقـد شـاء ربي لمـثـلي الأنـين
وكـن راحمًـا، إن لـومـي عـذاب!

وحاولت جهدي بغير انتفاع أعلمها حكمة الصابر
فقالت - وما قولها ما يذاع - من العذر ما لم يـزل آسري
كـأن الـوفـاء لهـا الامتناع عن الصفو في الأمس والحاضر

إلي أن يحـين الـلـقـاء الـضـنـين
إلي أن يـعـود الـغـرام الـدفـين
إلي الـبـعـث مـن بـرهـا المستطاب!

ومـا هو إلا خفوق الفؤاد علي الذكر في ساعة من زمن
وفي الأفق خلف الربي والوهاد أتي البدر في صفرة من وهن
يـروع بمطلعه في حـداد ويسلي الشجي إذا ما فتن

فـراقـبـتـه والـضـيـاء الـثـمـين

يـفـيـض عـلي الـكـون فـيـض الأمـين

عـــزاء، ولـكـن لـنـفـسي الـــسراب!

واســكـــرني حـبـهـا نـائـما | فلم استفق قبل شمس الصباح
فقلت أيـا مهجتي ظالما | أمانيه مـن خالها مـا يباح
فـما العيش إلا المني دائـما | وما الموت إلا الرضي لا الكفاح

فـهـل أكـتـفـي مـن غـرامـي بـديـن

هـو الـوجـد في بـاقـيـات السنين

وشـعـر الـغـنـاء لـقـلـبي المـذاب؟

فـنـاولـني حـامـل للبريد | كتابا يـرف عليه الحنان
كـان بـه لـلـفـؤاد الشهيد | حـيـاة تعيد إلـيـه الأمـان
فحنت له مهجتي من جديد | وكانت علي يأسها في تفان

فـقـبـلـتـه قـبـلـة مــن حـنـين

هـو الحـب مـن كـل حـسي الـرهـين

بـما ألهـمـت مـن شـعـور مجـاب!

وذقـت به من معاني الجمال | شهيا من الحسن لا ينتهي
والفيت من شعرها كاللآل | ومن شعرها خصلة تزدهي
بـما بلغته وكـان المحـال | من الوصل للعاشق المشتهي

فـيـا لـيـت شـعـري أشـعـر الجـبـين

سـيـتـبـعـه كـالـصـبـاح المـبـين

شروقـك.. أم ذاك داجـي السحاب؟

إلي ملك نائم

رثاء الحبيب الجاني

حجبت عوادي الدهر مبسمك الذي ... أفديه لو يرضي الفداء رداك
وأفيه من جرحي وكل جوارحي ... شكري إذا منع الثناء نواك
سيري إلي ملك الملوك وحدثي ... عن علة الأشقاء والإهـلاك
واستنصري القاضي الرحيم علي الألي ... قتلوك بين البغي والإشراك
الخاسرين الدين والدنيا معا ... الآيـبـين بعهدها الأفـاك
من كل من أولي به العدم الذي ... يطويه حتي لا يعيش يراك
بالروح أم بمذاب آمال الصبا ... أبكي الحنان الجم في ذكراك؟
حق المحبة لا يداس وإن جني ... دوما علي النعمي وحظ الشاكي
لا خير في دنيا إذا صدقت شجت ... حـرا وهـان بها عزيز سناك
تحيين أشجانا سأحييها غدا ... وتقطعين ضـمائـر النساك
ولئن بقيتِ فأنت في شرك الردي ... ما صُنتِ في قلب الحزين هواك
أخشي عليك من الضلوع لهيبها ... وأري علي بعد الجمال هلاكي
واليوم أقرئك الوفاء وفي غدٍ ... صبٌّ علي مثواك جاث باك
إن لم يمت بحنينه المفني أسي ... سيعيش في الدنيا بقلبٍ ذاك
ومتي أثـار الليل كامن دائه ... فرأي الشفاء العذب في مثواك
لا تبخلي بالترب حولك ربما ... أحياه أن يفني بطيب ثراك!

وداع الشباب

أسفي علي عهد الشباب المنقضي ... بجلال نعمته وحق زفيري
ودعتهُ وحرستُ آمال الهدي ... فشقيتُ إلا من لقاء ضميري
ماضٍ يكلله الفخار ومقبل ... أرعـاه بين وداده ونفوري
وأنا الشفيق علي الجمال وإن قست ... وجنت محبته إزاء مصيري

عبرة الشباب

«الشباب والحماس والمحبة كأيام الربيع، فبدل الشكوي من قصر عمرها، حاول يا فؤادي أن تتمتع بها!» – روكرت: Riickert.

مذهبي في الجمال

مذهبي في جلالة الحسن أن لا ... يغتدي نعمة تحـب لتفسد
أكثر الحسن ما يصان ليشقي ... إنـما الحسن ما يصان ليعبد

الصور المعبودة

دعوني أقدس خيال الحبيب ... ولا تنهروا من يناجي القمر
فكم قد سجدت لذات الجمال ... فلما هجرت عبدت الصور

الكروان الرسول

بالله يا كروان ... تكفيك أشجاني
بلغ حبيبي الآن ... أني له الفاني
لم يبق غير الروح ... في قلبي المجروح
من لي سواه أبوح ... مهما تناساني؟

***

بالله يا كروان ... تكفيك أشجاني!

***

يا صاحبي الفنان ... لازال لي فنك
نجوي هوي وحنان ... ما شابه منك
تستقبل الإلهام ... من وجهه البسام
والشعر والأنغام ... من فيض وجداني

***

بالله يا كروان ... تكفيك أشجاني!

***

سائل أعز الناس ... هل شاقه غيري
أو ناله الوسواس ... والشك في أمري

سـائـل فـإنـصـافي يـا صـاحـبـي الـوافي
مـنـه، وإتـلافي في صـمـتـه الجـاني

***

بـالله يـا كـروان تـكـفـيـك أشـجـاني!

***

قـد مـرت الأعـوام سـكـري بـآلامـي
والـقـلـب فـيـه ضرام تـذكـي بـأحـلامـي
ولـوعـتـي بـالـبـعـاد تـذيـب حـتـى الجـماد
فـكـل عـيـشي نـفـاد لـولا الهـوى الـبـاني

***

بـالله يـا كـروان تـكـفـيـك أشـجـاني!

***

أنـت الـرسـول الأمـين والـشـاهـد الـعـادل
لحـرقـتـي والأنـين لاشـاهـد الـقـاتـل
أقـصي حـبـيـبي الـوحـيـد فـعـشـت مـثـل الـشريـد
وصرت طـيـفـا أبـيـد في حـب ديـاني

***

بـالله يـا كـروان تـكـفـيـك أشـجـاني!

***

بلغه يا كروان		أزكى تحياتي
وقل له في أمان		الحظ في الآتي
فالليل مهما يطول		هيهات أن لا يزول
والنجم بعد الأفول		للمشرق الساني

***

بالله يا كروان		تكفيك أشجاني!

الجزاء العادل

جزع الصب، وللحزن العميق   في سبيلك
لوعة الدنيا، فمن هذا يطيق   لمثيلك
غير ملك من ضياء وحبور   لا يضيع
أكؤس الحب به شتي تدور   وتوزع
بين آلاف العقول الحائرات   في جمالك!
وأغاريد الطيور الشاعرات   بنوالك!
غير أن الأكئوس المثلي تصان   لوفيك!
عاش طول العمر في فرط الحنان   لسنيك..
من صفاء الروح والحسن العزيز   يا حياتي!
والوفاء الجم والبر المجيز   لأناتي!
والجزاء السمح من بعد العذاب   في سنين
كلها كانت عظات أو حساب   لا يلين
فإذا بي الآن أسقي صفو خمرك   من رضا بك
وأذوق الأنس أشهي المستطاب   في دعابك
وأضم الصدر للصدر الحزين   فيقيني..
من هموم وشرور العاذلين   وجنوني!

ويباح اللثم لي من كل جسمك يـــا غـــرامـــي!
آه ما أشهي مني لثمي ولثمك لأوامـــــي!
آه ما أحلي عناقي وعناقك في وفـــــاء!
مثل طفلين، وما أقسي فراقك في إبـــــاء!
نذرف الدمع سخيا في ولوع كـــالـــلآلي!
مظهر الأنداء من قبل الطلوع والـــنـــوال!
حين يدنو الصبح والنور البهيج مـــســـتـــعـــزا..
بين إلهـام من العشق يهيج ويـــغـــذي..
من سلاف الشمس في أقداح تبر ولجـــين
بين أشجار وأزهـار وسحر رأي عـــين
آه يا (زينب) يا راح النفوس يـــا فـــؤادي!
إنهري الأشجان والهم العبوس وســـهـــادي!
فلقد أوشك أن يحيي الصباح كـــل مـــائـــت!
ويعيد الدهر من بعد الكفاح كـــل فـــائـــت!

يا إلهي![1]

يا حياة الروح يا روح الحياة - يا إلهي!
كم يعاني الصب في ذكري مناه - غير لاه
غـارقـا في نـار وجـد لـن تـزول
وهمـوم وشـجـون لـن تحـول
قبل صـوب الغيث مـن فـتـان بـرك!
يسأل الأزهار في سكر الصباح - عن سلامك
حاسبا فيها بطاقات وراح - من غرامك
حملـتـهـا عـن نـسـيـم لي عـلـيـل
وضـيـاء مـن محـيـاك الجـمـيـل
لم يـوفـق سعيه مـن فـرط سـحـرك!
فتجيب بحنان وخفوق - من نزوعك
مثل وحي الشمس في وقت الشروق - أو طلوعك
«لست من يعطيك من ملكي الجزيل
في حـيـاتي، فهي معبودي البخيل!»

(١) استصوبنا بعد اطلاعنا علي نقد الأستاذ فرحات وملاحظات غيره من أصدقائنا الأدباء أن نضيف هذه الأغنية البديعة إلي الملحق، وكان قصدنا أولا ابقاءها مع أغان أخري للطبعة الثانية في المستقبل. وهي منظومة فريدة بالجرأة في خيالها، واللطف الجميل في معانيها المصرية، والتفنن في النظم والبيان.

فـارحمـي حتي الضحايا بـين زهـرك!
إيه يا (زين)فريدات الجمال - في الطبيعه
كلها جذابة منك النوال - لن تذيعه
حـرصهـا حـرصي عـلي حبـي النبيل
ووفـائــي يـا مـنـي قـلـبـي الخليل
لـعـهـود ذاقـهـا مـن قـبـل هـجـرك!
لا تقولي: «لم تكن»، رغم الحياء - في شبابي
فهي شوقي وولوعي والوفاء - واضطرابي
وجـنــوني حـين أقـصـاك الـرحـيـل
عـن فــؤاد طـاهـر عــان ذلـيـل
ذنـبـه حـفـظ لــسري مـثـل سرك!
واصفحي عن ذلك الماضي الأليم - صفح طهر
أنت رب الظلم والرب الرحيم - دون عذر
واجـعـلي الـغـفـران إحـيـاء القتيل
فـهــواك الـبـاعـث المــوتي كفيل!
وهــو حــي مـيـت راض بـأمـرك!
اصفحي يا مهجتي يا نار خلدي - يا جناني!
واسمحي بالبر يا أنسي ووجدي - يا بياني!
كـل لـفـظ مـنـك للنعمي دلـيـل!
كـل سـطـر مـلـؤه الـشـعـر الجـلـيـل!
ومـعــانٍ لـلـهـوي مـن حـلـو ثـغـرك!

عمر الحب

«الحب لا عمر له، لأنه دائما يجدد نفسه»

باسكال: Pascal

«الحب نوم، والحب حلم، وقد عشت إن كنت أحببت»

الفريد دي موسيه Alfred de Musset

«الحب لا ينعدم، فناره الطاهرة دائما مشتعلة. وقد جاءت من السماء، وإلي السماء تعود»

سوذي: Southey.

«الحب هو الذاكرة الوحيدة التي تقوي مع الزمن»

الدكتور باركر Dr. Parker.

طفولة الحب[1]

نشأة الحب التي لم تحفظيها		بعد هجري في عذاب وسعير
لم تشأ تركي ولو لم تتركيها		ما بدت في غير مرآها النضير
عـــرفـــت قـــــدري وإن لم		فاحتمت في صحبتي من كل ضير
وتأسست.. آه، لو لم تهجريها		لأفـــادتـــك كخل وعشير!
مهجتي الصغري بهاكي تلهميها		مثلما تغنيك من شوقي الكثير!

***

سُطّرت من كل حسي وفؤادي		وحوت من صفو أنواع البيان
وتجلت في حلي من سهادي		وجـــنـــاني وغـــــرام وتـــفـــان
كل سطر ضم جزءًا من رشادي		مثلما ضـــم أغـــاريـــد المثان
نخبة من شعر روح لم تفيها		وغناء من معني بل ضرير
كـــان يتلو آيـــة للحب فيها		كلما وافي بقلب المستنير!
كم تقضي مجلس فيها وفيه		من ملذات التلهي والطفولة

(١) هذه قطعة أخري بديعة اخترنا نشرها في هذا الملحق علي سبيل التنويع واتماما للفائدة. وهي مبنية علي عواطف الشاعر حين عثوره بين أوراقه بعد غياب طويل علي مذكرة حبيبته الدراسية، وكان يدرس لها في الآداب العربية، كما كان ينعم بغنائها وتوقيعها. فأثر في نفسه هذا الاتفاق الغريب: اتفاق عثوره علي مذكرتها التي أهملتها بين أوراقه الخاصة، ونظم في ذلك هذه الأغنية المشجية المؤثرة.

بين درس واشتياق لا يليه غير سمع للموسيقي الجميله
من بنان لاعب كم يشتهيه كل من يرجو إلي النعمي دليله
فأقضي أنس ساعات شبيها في ذهــول بسجين أو أسير
ما تمني غير أن لا يصطفيها غيره سمعا إلي اليوم الأخير!

***

آه كم كنت أراعي من جمالك شمس إقبال وسعد للغداه
أتحــاشي في مــراعــاتي لحالك نظرة طالت، وإن فيها الحياه!
كل حظي خلسة نجوي سؤالك وابتسام منك.. ما أحلي لماه!
تلك نفس تيمت لم ترحميها رغم سني.. يا للتعذيب الصغير!
وأمـــاني مهجةٍ لم تعرفيها في زمان الحب عرفان الضمير!

***

ثم ولي ذلك العهد الكريم وغروب الشمس يتلوها الشفق
آه! ما أقساك يـاربي الرحيم آه! ما أشقي محب قد صعق!
ما بكي إلا كما يبكي الفطيم حين يسلي، لا كعبد قد عتق
فبكت مثلي عيون لم تريها للوفاء الحي والنبل الكبير
وتـلـقـتـنـي كـــأم لبنيها رحمة الدنيا علي قلبي الكسير!

***

فقضيت العمر أبكي ثم أبكي بين عتب الصبر والدهر المسن
فإذا بالصبر يفني بعض شكي وأمـر الهجر يمحوه الزمن

وأراك الآن من يدنو لفكي		من إسار الذعر لا أسر الشجن
فلك الشكر، وها نفسي سليها		هل لها إلاك يا كنزي الوفير؟
فارحمي، أو فاظلمي، أو فاقتليها		بنسيم الحب لاقاسي الهجير!

***

وتغني بمدام الفجر طائر		عاشق مثلي، ولكن في هناء
وكـأن الشمس لبته كساحر		وجمال الكون ما غني وشاء!
فأهاج الشعر من قلب وخاطر		واستوي الحب علي عرش الفضاء!
فبحثت عن سطور لم تعيها		كلها ذكري لأحلام السرور
ومـعـانٍ للهوي لم تدركيها		تتهادي بكريات الشعور!

***

فتناولت قريرا في خشوع		ذابـل الذكر الـذي لم تحفظيه
وتـأمـلـت بـه بـين الـدمـوع		نشأتي، والدمع يمحو الحزن فيه
وشذي الحب به صفوا يضوع		ليت شعري هل يوفي من ذويه؟
بعد نجوي أدمع إن تذرفيها		قطرة من مدمعي البحر الغزير!
يرتوي منها غرامي فيليها		نابت الحب علي رغم الصخور!

مختارات من ديوان «أطياف الربيع»

شاطئ الأحلام[1]

«استانلى»

ردوا شعاع الشمس حيث تطل ودعـوا الحسان مكانها تحتل
الخالعات من الثياب أجلها واللابسات الحسن وهو أجل
من كل لون للأزاهر صبغة فيه وإن ملك البيان الفل
في مـسرح البحر وثـاب به مثل العواطف يعتلي ويزل
والموج يعبث بالصخور كأنها مهج يحـاربهـا الهـوي فتذل
(فينوس) تمرح فيه بين مفاتن ويلي (كيوبيد) العزيز (أبوللو)
وطن الألوهة في الحياة بها وعت فلكل رمــز للنعيم محل
لا تسقني الخمر المعتقة المني حين العيون تشوقنا وتدل
حين السواعد في الشهي لسمرة أشهي الكؤوس نذوقها ونعل
الحسن لم يعبد طهورا عاريا بأحب من هـذا الـذي يبتل
واللهو لم يغنم بريئا حاليا بـأرق من صفو عليه نطل
فرحت به الأم الطبيعة مثلما لاقي الوصال العاشق المعتل
مرأي حياة الشعر من أوزانه ويـعـود للاكثار فيه مقل
ومني من الأحلام ترقص حولنا ومن الحقيقة ما حكاه الظل

(١) أحمد زكي أبوشادي/ أطياف الربيع / مطبعة التعاون - القاهرة ١٩٣٣.

كرمت، فكل ناهل من طيبها وقست فأي صدي هناك يبل؟!
زمر بأذهان القطا وشخوصهم من كل ضخم في تخطر فيل
لفظوا حقوق النابغين وإن بكوا يوم الرحيل، وكم بكوا لرحيل
يبكون من فرط الذهول وليتهم لبثوا علي ندم وفرط ذهول
فكأنهم لا يعرفون وفاءهم بعقولهم، لو أنهم لعقول
حتي إذا ثابوا إلي أحلامهم تركوا النبوغ يموت موت ذليل

***

لله أعوام مضت لم أنسها يوما، فأنساك راح كل خليل
ومواقف لك علمتنا أن نري معني الحياة فكنت خير رسول
يا ليت درسك لم يغب في أمة ظمأي إلي التكرار والتفصيل
تنسي عظات الدهر
وهي شواخص ونحن للأوهام والتخييل
والدهر خير مؤدب، فإذ شكا منا فسخط الدهر غير ضئيل
من لم يؤدبه الزمان فإنه وهو السليم يعيش عيش عليل

***

أبناء مصر: بناؤها ورجاؤها وضياؤها في فجرها المأمول
هرعوا الذكرك، فلتطب بوفائهم روحا، وغب ككنوز وادي النيل!

خليج استانلي - رمل الإسكندرية

الشمس الغريقة

أري الـشـمـس قـد
سـقـطـت في الـعـبـاب فـما بالها الآن لا تنطفي؟
ومـا ذلـك اللهب المستثار علي الماء من وقد روح خفي؟
أفي الماء نجوي فؤادي الحزين يناجي الشفاء فما يشتفي؟
وأي لظي في صميم المياه سوي الحب يغزو ولا يكتفي؟!

***

وقفنا علي اليم عند الغروب وكم في الغروب أسي للقلوب
فأسمعنا الماء صوت الشجي ورف علي النور روح الكئيب
وقد عثرت في خيوط الضياء فتاة السماء بموج عجيب
فأشعلت البحر من سحرها وما سحرها غير روح الأديب!

***

وفي لحظة غاب ذاك اللهب وقـد كنت أحسبه لا يغيب
فيا عجبا لـصروف القدر وإن لم يكن منه شيء عجيب
فـما هـو فـان نـراه خلد ومـا هو بـاق بسحر يذوب
وقد جنحت مهجتي للطرب كأن الـسرور وليد الكئيب!



وحان الوداع وكم في الوداع دمـــاء تــراق وعـمـر يضاع
فـلاحـت لـفـاتـنـتـي عـبرة علي خدها كلظي في شعاع
وقد رأت الشمس مرأي الفناء وقد غرقت وهي رب يطاع
فـر يعت لمصرعنا الآدمـي وهذي الألوهة تلقي الصراع!

جسر الأحلام

عبرت عليك يا جسر الأماني　　ويا جسر التخيل في غرامي
فجزت إلي مدي حلم عميق　　وما حلمي كأحلام الأنام
ولكن من صميمي مستمد　　ومن خلف المرائى والمرامي
ومن يظفر بهذا الحلم أولي　　به مرح التفاؤل والتسامي



وألفنا التجاوب في الأماني　　وجمعنا التبسم للسقام
كلانا نفسه الحيري بحرب　　وبعض الحرب من روح السلام
تساقينا الهوي صرفا وكانت　　تهاب الكأس من هذي المدام
ومن لابد يرتشف المنايا　　أيخشي الكأس من راح الغرام؟
فلما أدركت حلمي وروحي　　وأن الحظ نهب لاقتسام
أبت أن نغتدي في الدهر وهما　　من الأوهام أو بعض الحطام

في بورسعيد

أهلا عروس البحر، لم يظفر بها ... بحر، ولا أرض، ولا أجواء
تتلفت الدنيا إليك بموضع ... فـذ كـما تتلفت الجـــوزاء
إني رسول الشعر جئت ممثلا ... لبنيه، مذ غني بك الشعراء
تحيين أنــت نقية وعـزيـزة ... والسفن شتي في حماك إماء
في البحر أم في البر أم في الجو قد ... راعتك أحـلام لها ورجـاء!

***

الصيف جاء فكنت من أطياره ... وأتيت يزجيني إليك حنين
هذي الشراك لمهجتي منصوبة ... وأنـــا قـريـر عندها وغبين
أهلا شراك الحب! كل مليحة ... أهـفـو إلي نـظـراتها وأديــن
مثلن فتنة (أفرديت)، وهكذا ... يهدي الجمال عن الجمال أمين
من نال هذا الأسر من شهدائه ... فله الحياة، ومن عداه دفين!

***

يا ساعة عند الغروب كأنها ... خطفت من الأحلام والأجيال
مابال هذي الشمس ترسل وجدها ... فوق اللهيب علي المياه حيالي؟!
ما بال هذا الموج يخفق هكذا ... خفق الحياة توثبت لزوال؟!
ما بال هذا الحسن يبعث شوقه ... فوق الرمال إلي نهي ورمال؟!

ما بال هذا الجو أشبع روحه بالخوف والآلام والآمـال؟!

***

السفن تبدو من قناتك مثلما تبدو الرجاء لتائه الصحراء

حملن بـالأرزاق مثل مدائن وبسمن بالأحلام والأضواء

وكأنها لعب الزمان يسوقها ويشاق من جولاتها بالماء!

شاب الزمان ولم يزل بطفولة ويظل طفل الوهم والأهواء

والناس إن خدعوا به فلأنه قد يمزج الـسراء بالضراء

***

هـذا المـسـاء يظلنا بولائه والجـو فيه من الـولاء صلاة

للفيلسوف به مجـال روائـع فلكل شيء حكمة وحياة

والناحت الرسام يقبس فنه ما تضمر الخطرات والنظرات

والشاعر الموهوب يسأل غامضا فتجيبه الأسرار والآيـات

والناقش الواعي بروح ملحن يرنو فيوحي النور والأصوات!

***

هـذا كتاب للطبيعة ماله عمر سوي ما شـاءه الفنان

كـل امـرئ يلقي بـه إلهامه ولكم تنوع عنده الإيـمان

شتي العواطف والشعور حياله وكذلك الأثـواب والألـوان

إن شئت كنت أمامه في غفلة لا أنت موهوب ولا إنسان

أو شئت صافحت الإله محدثا وقرأت ما أوحي به الأديان!

في المنفي

نـعـم مـنـفـاي أشـعـاري ... ومـلـقـي الـنـور والـنـار
أعـيـش بهـا عـلي حـدة ... ونـفـيـي عـيـش أحـرار
حـيـاة مـا لهـا أمـد ... عـلي سـفـر وأخـطـار
أسـجـل كـل مـا حـولي ... وأخـلـق حـلـم أقـدار
حزيـنـا، سـاخـطـا، مرحا ... عـتـيـا، غـير جـبـار
أعيش بكل معني العيش ... حـين أنـا بـه الـزاري
كـأني مـذ ولـدت حييت ... في يـقـظـات قـهـار
أبـادل مـا حـواه الـكـون ... إيحـائـي وأنـظـاري
فـلا هـو دائـنـي أبـدا ... ولا أنـا عـبـده الجـاري
وإن عـبـدالجـهال بـه ... فـؤادي شـبـه مختـار
ومـن يحـيـا بهـذا النفي ... لم يحـفـل بـأوطـار
ولم يـعـبـأ بـتـمـجـيـد ... وإن يـعـبـأ بـإيـثـار
يـعـيـش لـغـيـره أبـدا ... وإن لم يحـظ بـالـغـار
فـهـذي نـفـسي الـكـبري ... إذا أرضـاك إصـغـاري
تـنـاءت في مجـاهـلـهـا ... ومـنـفـاهـا بـأشـعـاري
ولم تـسـفـر لـقـارئـهـا ... إذا لم يـقـبـل الـقـاري
ومـن يحـيـا حـيـاة العشب ... لم يـظـفـر بـأغـواري!

الأمواج

عند خليج استانلي

دنيا الغرام ومسرح الأحلام مري بأطياف الجمال أمامي!
العام مر، وها أنا في عودتي مازلت في شغفي وفي أحلامي
خيرت فاخترت المياه مثابة للحسن واخترت الشباب الظامي
وجعلت موج البحر مركبك الذي يرقي ويهبط في حبور غرامي
المــاء أولي بـالجـمال فطهره يفتر بـالإشـعـاع والإلهـام
ألقيت عند هديره ونثيره سقمي فبدد لوعتي وسقامي
وجلست عند الشط أجمع غانما حظا تنزه عن أذي وملام
من كل جسم فيه ما يهب الصبا للكون من ملكوته البسام
في ضجعة قدسية، وصبابة عـلـويـة، وتعثر وتسامي
صور التهافت والتباعد والرضي والهجر في حرب وفي استسلام
الشمس تنثر فوقها قبلاتها كالبحر في منثوره المترامي
والعين تنهب من بديع روائها مـا لا يمر بخاطر الرسام

***

أهلا عذاري البحر! هل غيري الذي يدريك في صور وفي أنغام؟!
خلي فؤادي المستطب وخاطري يـتـنـاوبـان بلهفة وأوام

يستوحيان من الظلال مناعما ومن اصطجاعك جنة النوام
أبديت ما أخفيته، وكأن ما أبديت كالأحلام والأوهـام
فـالآن يسجد للجمال حفيه ويعود يفتن ذلـك المتعامي
وأطيل من نظري إليك كأنني أخشي الظلام متي لقيت ظلامي
والحسن إن رزق الحنان فإنه يرعي القلوب رعاية الأيتام!

وداع البحر

قالها الشاعر قبيل الشروق من مرتفع فندق وندسور وهو يغادر الإسكندرية

وداعـــا أيهـــا البحر الجميل ... فـإن المكث ليس لـه سبيل
سبقت الشمس في مرآك حتي ... يفوت الشمس ما بث العليل
أودع هـذه الأمـــواج تحوي ... سـطـورا كلها شعر جميل
وهـــذا الجـــو مـربـدا ولكن ... يطل وراءه الخلق النبيل
وهذا القوس من سخر وسد ... كحضن للمدينة يستطيل[1]
وما تحكي القوارب وهي حيري ... لما تـروي النجوم وما تقول
فكم في الليل يشغلها التناجي ... متي سفرت ويرقصها الهديل
وأسراب المفاتن للغواني ... وكـل عندها ملك جليل
تحييها وكـــم فيها تحيي ... مـعـاني لا تـنـال ولا تنيل
نظل نحوم حول السحر فيها ... وبعض السحر ليس له مثيل
ونقهر بالخيال وبـالأمـاني ... عـلى ظمأ كـما يظما القتيل

***

وداعـــا أيهـــا البحر المـوالي ... إذا هجر المحب لك الخليل!
وداعـا هذه اللحظات تمضي ... سراعـا والـغـنـاء بهـا عويل

(١) شارع الكورنيش.

وهل يقف الزمان لأجل حب		إن صحب الغرام المستحيل!
وداعـــا! إني أمـضي لذلي		مطيعا، والذليل هو الذليل
ومـا ذلي لـنـفسي، إن ذلي		لقومي، فالمحب لهم دخيل
جفتني الأربعون وقد رأتني		أجود لينعم الوطن البخيل[1]
أجود، وكم أجود بكل نفسي		فتجحد لي الضحية والجميل
ويمرح في الـذي أسديه غر		ويطعنني المـغـرر والثقيل
بـلاد حبها بـدمـي أصيل		وإن يخذل بها الحر الأصيل
وليس بحجة إنصاف فرد		وفـرد حين يضطهد القبيل
أفر من الجـهال ومنه روحي		إلي حيث الكفاح هو الزميل
إل يحيث العذاب يحز قلبي		فأحتمل العذاب ولا أميل
وداعـا أيهـا البحر المـوافي!		ووالهفي وقد حان الرحيل!

(١) ما مر من عمر الشاعر.

علي الشاطئين

شاطئ الجمال وشاطئ الخيال

أزف البين يا نجية روحي ... و«مـثـالي» ويـا جني الجنتين
جنة الحسن تلك عززها الله ... تعالت عن كل عيب وشين
وسواها من روعة الفن صارت ... في غني عن مديح رب وزين!
جنتا السحر أنت يا من إليها ... يتناهي فني ويحمد ديني
خشع البحر والعواطف للخلق، ... وكــل يـــراك في نشوتين
وأنا الملهم الذي ضمك الآن ... ليبقي لديك من بعد بين!
كل جزء مني حياة تسامت ... وتناهت إليك في الساعدين
لم أقـبـلـهـا بـغـير حـنـان ... دافق من صميم قلبي وعيني
ألـف قلب وألـف عين لمثلي ... في وداع ينال من نعمتين!

***

وتيقظت من جنوني وأحلامي، ... فكان الجنون في الشاطئين!
ولقيت الوداع في حسرة الهجر ... ونـــاري في لجـة مـن لجين!

تباريح

بحسبي أن أري الماضي خصيمي	وإن يك قد تصرم من وجودي
وكيف يعد ميتا وهـو حي	أحس به كطيف في الوجود؟
هواجس نفسي الحسري أمامي	وإن أك عاجزا عن صدق وصف
صدي الأمس البعيد فأي صوت	لذاك الأمس كان؟ وأي قصف؟
حنيني للذي ولي وأمـسي	حبيبي وهو جزء من كياني
حبيبي وهو في آن خصيمي	فكم مـن لـوعـة فيه أعـاني
فكيف تلومني والأمس ذاتي	فـإن أحببتها أحببت أمسي
وإن صغت الـرثـاء له فإني	لأرثي بعض نفسي عند نفسي؟
وليس المــرء إلا مـن زمـان	وأحــداث الزمان إلي الفناء
فنفني بالتدرج بين صدق	ووهم في الحنين وفي الرجاء
وكم من هاتف حولي لماض	بـأسرار العواطف والخيال
دعوة «الشعر» وهو صميم نفسي	تناجيني بمقبرة الليالي!
فكم من ميت من صفو عمري	يطل عـلي بـالأحـلام دومـا
أسائله فيهرب من سؤالي	وإن آك مثله أظـما ويظما
غريبان استطابا للتناجي	ظلام الليل والأشخاص تخفي
وقـد كانا شقيقين، ولكن	هو الزمن الـذي لم يبق إلفا
لقد أصبحت لا شيء سوي ما	يـمـثـلـه حـنـين أو رجـاء
وبين الأمس والغد كل حي	سيفني حين يبتسم الفناء!

بلادي

بلادي! بلادي! أنت في كل حالة
بلادي، وإن لم تعبئي برغائبي

حرام رجاء المنطق الصدق صادقا
لديك، حرام يا بلاد العجائب!

يحارب فيك الفضل والنبل بينما
يمجد فيك النقص من كل جانب

طبعت على الحب الذي قد بذلته
لمجدك حين الحب غاية خائب

فجوزيت بالإيلام من كل عاثر
أغثت، وبالحرمان من كل صاحب

كأن الجميع استوثقوا من محبتي
وغالوا بيأسي مذ تغالت مطالبي

وما أنا في نفسي لأطمح مرة
لأكثر من عيشي بعزلة راهب

ولكن طموحي للديار التي لها
حنيني، وإن باتت ديار المصائب

ولا بأس لي إلا ضميري ومبدئي
ولا مجد لي إلا خلوص مواهبي

وأكبر ذنبي همة ما تراجعت
فلن يرهب الإيمان أقسى العواقب!

مختارات من ديوان «فوق العباب»

رجوع الكروان

(نظمها الشاعر في السحر وقد أيقظه غناء الكروان الشجي)

أتعود بعد الشيب يا كرواني؟ أتري الكهولة كالشباب الثاني؟
هيهات! لم تبق السنون لعاشقٍ مثلي سوي الأصداء من ألحاني
كنت الرسول[1] إلي جميل حنانها فمضيت ثم مضت بكل حنان
وتسمعت أذني إليك فلم تفز أبـدا بغير صدي بعيد عان!
والآن بعد كهولتي في عزلتي تأتي برجع نشيدها الفرحان
وتلح إلحـاح المبشر بالهوي فالحب فوق منازل الأديان!
أهلا بمنقذي الحبيب! وهل دري أني علي الإنقاذ جد معان؟
لم يبق للقلب المـذاب بقية تحيا وقـد ألقيتُ في النيران
إلا حياة الذكريات وكلها أشجانُ ذي حرقٍ علي أشجان
قد جئت من بعد الأوان وإن أبي زُهـدي، وعَـقَّ تجمُّلي تحناني

(١) أحمد زكي أبو شادي: ديوان فوق العباب/ مطبعة التعاون القاهرة ١٩٣٥ أنشودة الكروان الرسول في ديوان «زينب».

غب يا ربيع!

غب يا ربيع فلست من يهواكا! طوي الغرام كما طويت هواكا
لمن العطور وكل عطر سابغ ألـقـاه آلامـا كـما ألقاكا؟
عد للذين تعشقوك وخلني في عزلتي أتأمل الأشواكا
أوصر إزاء الهجر جدبا شاملا إني أحس الجدب حين أراكا
الشاعر المكلوم تصدف عينه عن كل ما تهدي ولا ترضاكا
لمن العبير وكل أنغام الهوي؟ لمن الـدلال تحايلا وشراكـا؟
هذي الشباك الفاتنات مخايل للوهم مذ ناجي الحبيب سواكا
أعددت مجلي نعمتي، ونأي كمن جافي، فجن الحب حين رآكا!

***

غب يا ربيع كفي بمهزلة الهوي أجد النعيم مناحة وهلاكا
أبكيت في هذا الندي؟! أبكيت في القطر المضاع؟ لأنت من يتباكي!
أنا وحدي الباكي الشجي بعزلتي ولو أن حولي عالما وشباكا
ضاع التجاوب بيننا، وكأننا خصمان، أو أني جمعت عداكا
يا خالقًا أمم الجهال وجاهلا من يستقل بها وليس يحاكي
فرقت بيني والتي بفتونها أدركتُ في ماضي المني معناكا
مضت المني، ومضت معاني طيبها ومضيت أنت، وقد سمعت خطاكا!

قلب الشاعر

ساءلت عن حسي أمام الشمس في ... إشراقـهـا المتدلل المتهادي
وعن الذي حجبته عن دنيا الوري ... مـن عـالم الأرواح والآبـاد
وذكـرت حبك للهلال لأنه ... رمز الطهارة والجمال الهادي
تتأملين سـنـاه مـثـل إلهـة ... تتأمل المحظوظ في العباد
تتأملين وتسألين، فهل درت ... ذكراك أن الكون ملء فؤادي؟!
ما الشمس ما القمر المطل وما الوري ... والخلق جنب تحرقي ووادي؟!
خلي النسيم وزهـره وطيوره ... وهواجس الأسحار والآراد
وتلفتي لفؤادي المغمور في ... سحر يهيم به الزمان الحادي
تصغي إلي همساته وحنينه ... حقب تعود من القديم العادي
وخواطر الآتي البعيد تراجعت ... لتنال أغلي الوحي من انشادي
إن العباقرة الذين استأثروا ... بالخلد وحي الشاعر الوقاد!

***

ولقد أطير مع الخيال فلا أري ... غير الجمال هو الخيال البادي
تتصادم الأحداث والأرواح والآمال ... كـالأطـفـال بـين تـنـاد
هذي تصيح وهذه تجري علي ... لـهـو بـوادي ثـم غـير بـواد
صور بلا عد تموج عواطف ... منها وتغرق حسرتي وحدادي
فأري الملاحة وحدها بسامة ... فوق العباب علي ظلال الوادي
وأطـلُّ في قلبي فأبصرها كما ... لبيت أنت البدر وهو ينادي!

الفنان

أمـــانـــا أيهـــا الحـب ... ســـلامـــا أيهـــا الآسي!
أتــيــت إلــيــك مشتفيا ... فـــرارا مـــن أذى الـنــاس
أتــيــت وحــــولي الــدنــيـا ... تصيح بلفظها الـنـاري
بــيــــوم كـــلــــه لهـب ... كـــأني مـطـمـح الـنــار
حــنــانــك أيهـــا الــداعــي ... فـــأنــت مـلـيـك أنـفـاسي
فـــررت وحـــولي الــدنــيـا ... تحـــارب كـــل إحـســاسي
فـــررت إلـيـك مـن سجني ... فـــرار المـــذنـــب الـثـائـر
وهـــذا الــدهــر يتبعني ... بـجـيـش حـــانـق زاخـــر
أذنـــبـــي أنـــنـــي تـبـع ... وأنـــت الــسـيـد الـنـاهـي
وأن الخـلـق مُـذ جحدوك ... فـــاتـــوا رحمـــة الله؟!
أمـــانـــا أيهـــا الــثــاوي ... بهـيـكـلـك المـنـاديـنـي
فـــما لـلـنــاس مـــن ديـن ... وإن عـــــادوك لـلــديـن
خلت ونـــأت عـن الرقباء ... بـل عـن روحـهـا الـطـرق
ولـــكـــن مـــلـــؤهـــا قـلـق ... وروحـــي مـلـؤهـا القلق!
فـــما لخـــواطـــري الحـيـري ... تـــروم الــيــوم تعذيبي؟
ومـــا لي أشـهـد الأحـــلام ... كـــالأيـــام تـــغـــري بي؟

أمـــانـــا هـــــذه روحـــي وجسمي طـــوع مـا ترضي
خـلـقـت مـنـــي ســـماوات فجزت بمهجتي الأرضـا!

***

دلــفــتُ إلي ســماء الحــب فـهـي بمعبدي الضاحي
وقـــد صـــار الهـــجـــير به نـسـيـم الــــروح والــــراح
دلـــفـــتُ إلي مـفـاتـنـهـا وكـــم عُـــــدَّت محـرَّمـة
وهـــل يـعـصي أسـير الفن لحــظـــا بـــاخ أو شـفـة
ومـــا كـــادت مـنـاي تـري رحـــاب الحـســن ترمقني
إذا بـمـنـي وأي مني تـــواتـيـــنـــي وتـعـشـقـنـي
يـمـــوج الجـــو بـــالألحـــان وهـــو الـصـامـت الناطق
ويعبق من شـذي (نيسان) مـثـل الـطـائـش الـعـاشـق
فـــما لـلـجـو مـثـل النفس إيـــــمان وأحـــــــلام؟!
ومـــا لـلـحـب ذابـــت فيه آلام وآلام؟
ومـــا لي قـد طـرحـت الهـمَّ والهــــــمُّ يـنـاديـنـــي؟
تـذيـــب حــــرارة الحــب ثـلــوج الهــم في لـين!
تـــأمـــل أيهـــا الـقـلـب تـــأمـــل! هـــذه الـدنـيـا!
مـفـاتـنـهـا قـد اجتمعت وكـــادت تخـدع الأخـــري!
صـــلاتـــك مـــا لهـــا حـد فـصـل ونـــاج مـــن تهـوي
تـســـاوي الحـــر والـعـبـد إذا عـبـدا الهـوي معني!

تأمل أيها الطائش! تأمل ألا تخف غبنا
لماذا أنت تضربني وقد أعطيتك الدنيا؟

***

ولما أقبلت وثبت معاني الحب من نفسي
بأي لغي أحييها من الأحلام والحس؟
تصادمت العواطف والمعاني من مشاعرها
فطوق حسنها الغالي عزيزا شوق شاعرها
أهذا الحسن في كنفي وكلي عبده الطائع؟
مُنحت الآن يا شغفي فتون الخالق الرائع!
كأني حينما عانقتها بغرامي الدافق
تركت معالم الدنيا ونال مشاعري الخالق
وقد أدري ولا أدري سناها في ذراعي
سناها نعمة الدنيا هواها يبدع الحيا
أحقا نلت ما في الخلد من معني وإحساس
فيا لنعيمي الوافي وإن شُرِّدت في الناس!
يدي! يدي! لا تدعا خلود سعادتي يمضي
سماء الحب صافية ونائية عن الأرض
ومن عرف (الألمب) كما عرفتُ وذاق نعماه
أبي كل الإباء فراق رب قد تولاه!

ترفق أيها الطائع! لقد أخضعتني عطفا!
نأيت فلم أكن أشفي وعدت فلم أعد أشفي!
أهذي غاية الحب ففي الحرمان تعذيب
وفي الإحسان تطبيب فتعذيب فتطبيب؟
نعيمي كله حرق وناري كلها نعمي
فسلمي يضمر الحربا وحربي تضمر السلما
فما لي لم أعش غرا غبيا أقتل الفكرا
فألقي الحب مبتسما وأدفن مهجتي الحيرى!



رأت حزني وأحلامي وهذا الصفو يشملني
فردت كل آلامي ببسمة روحها الفني
وكنا قد هزمنا الحرر والحر يعادينا
فلم نلبس سوى الأشواق فالأشواق تغنينا!
ونمنا نومة الحب وعطر الحب فياح
بجسم كله عبق وروح دونها الراح
أشم عبيرها الفنان في سكر يحيرني
وأشرب هذه الألوان من نور يداعبني
وأصفح عن أسي الماضي وإن ضحي مسراتي

فهذي نعمة الماضي أتت في نعمة الآتي
أطلي يا حياة الروح في عيني تحييني
شرابي منك أضواء وقوتي أن تناجيني
أطلي وانظري شغفي تري معني عباداتي
عبادات خصصت بها وفي عيني مرآتي
ولكن أين نظرتها وقد هامت بأحلام؟
يظللها حنان الحب من ملكوته السامي
وغابت هذه النظرات خلف الغيب في الرب
وأستوحي معانيها كأني ناظر ربي!
واسمع دقة القلب لأعرف سره بدمي
فيدرك نهدها طربي ويخفق ساكرا بفمي
فلما نلت معناها ونالت كل ما أعني
جعلت الشعر مبناها وعانق فنها فني!

دعوات لإنصافه

وقد ترددت دعوات كثيرة لإنصاف أحمد زكي أبوشادي بعد طول تجاهل ونسيان بعد أن عاش سنواته الأخيرة في منفاه الاختياري ومات في ديار الغربة ودفن بها، فظلمناه حيا وميتًا، وهذا ما دفع الأديب والناقد رجاء النقاش (١٩٣٨ - ٢٠٠٨) إلي المطالبة بإنصافه بعد طول تجاهل ونسيان، فكتب يقول:[١]

في هذه الأيام تمر أربعون سنة علي رحيل أديب عربي مصري كبير هو الدكتور أحمد زكي أبوشادي، وهو أديب لم يأخذ حقه من اهتمام الناس في حياته ولا بعد رحيله، فلم ينشر أحد إنتاجه الغزير بعد رحيله، ولم يصدر عنه حتي الآن دراسات تضعه في مكانه الصحيح من تطورنا الأدبي ونهضتنا الاجتماعية، باستثناء دراستين مهمتين إحداهما للناقد الشاعر كمال نشأت وهي دراسة شاملة وعميقة تستحق التقدير، أما الدراسة الأخري فهي عن جماعة «أبوللو» وهي دراسة مهمة للأديب الناقد الدكتور عبدالعزيز دسوقي، وجماعة «أبوللو» هي الجماعة الشعرية التي كونها أبوشادي سنة ١٩٣١، وأصدرت هذه الجمعية أول مجلة خاصة بالشعر في الصحافة العربية المعاصرة وكان اسم المجلة «أبوللو»وهو اسم الجمعية وهذه المجلة مهمة جدا وتستحق دراسات كثيرة ليس مجالها هذا المقال.

والحقيقة أن أحمد زكي أبوشادي يستحق من الباحثين والدارسين أن يتوقفوا أمامه وأن يتأملوا شخصيته وأن يكشفوا عن حقيقة جهاده الوطني والأدبي،

(١) المصور ٣/ ٢/ ١٩٩٥ / شاعر كبير ظلمناه حيا وميتا.

فأبوشادي أديب من هؤلاء الذين يمكن للأجيال الجديدة أن تتعلم منهم الكثير في مجالات الثقافة والأدب والأخلاق والوطنية، وإذا كان شعر أبي شادي لم يحظ بالشهرة الكافية، بسبب بعض ما فيه من عسر وصعوبة إلا أنه كان من رواد التجديد الحقيقيين في الشعر العربي المعاصر، فقد تأثر به الكثيرون من الشعراء المجددين الذين ظهروا علي مسرح الأدب العربي في النصف الأول من القرن العشرين.

وقد ولد أحمد زكي أبوشادي في أسرة معروفة بحب الأدب والاهتمام به، ووالده هو محمد أبوشادي بك، أول نقيب للمحامين في مصر، ويحدثنا الدكتور كمال نشأت في كتابه المهم: «أبوشادي وحركة التجديد في الشعر العربي الحديث» عن أسرة «أبوشادي بك نقيب المحامين وأحد رجال حزب الوفد البارزين، وهو أحد ثلاثة بدأوا الحياة القانونية في مصر، والاثنان الآخران هما: سعد زغلول والهلباوي، وكانت أمه «أمينة نجيب» أخت الشاعر الكاتب مصطفي نجيب «بك» زميل مصطفي كامل في الحزب الوطني، ورفيق جهاده، وصاحب كتاب «حماة الإسلام».

وكان والده «أبوشادي» يقيم في بيته ندوة أسبوعية يحضرها كبار رجال الأدب والفكر والوطنية في مصر والعالم العربي في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن، وقد تحدث «أبوشادي» عن هذه الندوة في كتابه «أصداء الحياة»، ومن كلامه عن ندوة أبيه ندرك أنها لم تكن ندوة «بسيطة»، بل كانت أشبه بمعهد علمي كبير، فنحن من ناحية نجد أن الندوة لم تقتصر علي المصريين وحدهم، بل أضافت إليهم عددا كبيرا من الأدباء والمفكرين الوافدين من أقطار عربية مختلفة مثل محمد رشيد رضا، ومحمد كرد علي وبعدالقادر المغربي، وهم سوريون، ويعقوب صروف وخليل مطران وهما من لبنان، ومن ناحية أخري فقد جمعت الندوة بين أهل الأدب وأهل الفكر معا، وجمعت بين المثقفين والسياسيين، فقد كان من بين روادها سعد زغلول، ومحمد فريد، وهما

زعيمان معروفان من زعماء الحركة الوطنية في مصر، ومعني ذلك أن هذه الندوة كانت تدور فيها أحاديث كثيرة عن الأدب واللغة والفكر والفلسفة والوطنية والسياسة والمشاكل المصرية والمشاكل العربية العامة، ومثل هذه الندوة تتيح لمن يشهدها، ويشارك فيها فرصة واسعة للتطور الثقافي والفكري لا يتاح مثلها في معهد أو جامعة، خاصة إذا كان الذي يشارك في هذه الندوة، هو أديب في بداية حياته مثل أحمد زكي أبوشادي الذي لم يكن قد وصل إلي الخامسة عشرة بعد، وكان حضوره للندوة هو حضور المستمع الذي يتابع ما يجري فيها دون أن يشارك في أحاديثها المختلفة، وهذه المتابعة عن طريق «الاستماع» هي وسيلة من أفضل الوسائل التي يمكن أن تحقق لصاحبها مستوي عاليا من التعليم والثقافة، ففي هذه الندوة بالتحديد كان هناك من فتح ذهن «أبوشادي» علي الثقافة الغربية مثل يعقوب صروف صاحب مجلة «الهلال» وكان هناك من استطاع أن يفتح ذهن «أبوشادي» علي التراث العربي مثل: أحمد زكي باشا الذي كان الناس يطلقون عليه اسم «شيخ العروبة» لشدة إيمانه بالعروبة والثقافة العربية، ولما بذله من جهود مادية وفكرية ضخمة لنشر التراث العربي علي نفقته ومن ماله الخاص، فقد كان رجلا غنيا وميسورا، ولم يدخر جهدا في إصدار الدراسات المختلفة التي تكشف عن قيمة الحضارة العربية وأثرها الكبير في حضارة العالم كله، كذلك كان في هذه الندوة من استطاعوا أن يكشفوا أمام «أبوشادي» عن الارتباط بين الأدب والسياسة، مثل سعد زغلول ومحمد فريد، خاصة في تلك الفترة التي كانت فيها الأمة تمر بمرحلة من مراحل النهوض والعمل علي التخلص من الاستعمار الأجنبي الذي يتحكم فيها مثلما كانت الحال في مصر في أوائل هذا القرن، حيث كانت مصر خاضعة للاستعمار الإنجليزي.

وهذه هي التربية الأولي والأساسية في حياة «أبوشادي»، وقد تركت هذه

التربية آثارها في حياة هذا الأديب حتي النهاية، فكان أبوشادي شاعرا يحب الفن والجمال، وكان في الوقت نفسه من عشاق العلوم المختلفة، مما سوف يظهر أثره في حياته في مرحلة نضجه وإكتمال تكوينه، حيث اهتم بدراسة الطب، كما اهتم اهتماما واسعا بتربية النحل والدجاج، مما جعله رائدا واسع الشهرة من رواد تربية النحل والدجاج في مصر، بل وفي العالم كله، كذلك كان «أبوشادي» من أوائل الأدباء والمفكرين في مصر الذين عرفوا معني «العروبة» علي أنها رابطة «ثقافية» قوية بين العرب جميعا، فكان في كل مشروعاته الأدبية يحرص علي توفير هذا البعد العربي لهذه المشروعات، بعيدا عن التفكير الإقليمي الضيق، وعندما أصدر مجلته المعروفة «أبوللو» سنة ١٩٣٢، والتي كانت خاصة بالشعر - كما أشرنا من قبل - وكانت أول مجلة عربية من نوعها، حرص في هذه المجلة علي أن تكون صفحاتها مفتوحة للشعراء والباحثين العرب من جميع الأقطار، وكان لمجلة «أبوللو» الفضل الأول في تعريف العالم العربي بشاعر كبير هو أبوالقاسم الشابي الذي لم يكن معروفا قبل ظهور مجلة «أبوللو» إلا في نطاق تونس وحدها، بل إنه لم يكن معروفا في تونس نفسها إلا في دائرة المثقفين والمهتمين بالأدب، ولكن حماس «أبوشادي» للشابي واهتمامه بنشر شعره، أخرج «الشابي» من النطاق الإقليمي إلي النطاق العربي الواسع، واستطاعت «أبوللو» أن تنشر أشعاره في كل مكان من الأرض العربية، واستطاعت هذه المجلة الرائدة أن تجعل من الشابي اسما يتردد علي ألسنة الجماهير الواسعة من المتعلمين والمثقفين ومحبي الشعر في كل الأوساط الأدبية العربية، ولم يعد هناك من لا يحفظ قول الشابي:

إذا الشعب يوما أراد الحياة ... فلابد أن يستجيب القدر
ولابـــد لـلـيـل أن ينجلي ... ولابـــد للقيد أن ينكسر

وبذلك حقق الشابي شهرته ونجاحه وتأثيره عن طريق «أبوللو» وصاحبها أحمد زكي أبوشادي.

هذه لمحات سريعة من تاريخ الشاعر الذي ظلمناه حيا وميتا، وهو أحمد زكي أبوشادي «١٨٩٢ - ١٩٥٥»، ولا تزال هناك صفحات أخري بعضها ممتع وبعضها مؤلم، وسوف نتابع الحديث عنها.



وقد كانت اهتمامات الدكتور أحمد زكي أبوشادي العلمية والأدبية موضع اهتمام الناقد رجاء النقاش الذي كتب عنه كنموذج نادر لعشق الأدب والنحل والدجاج، فقال:[1]

من المألوف أن تجد شاعرا يحب الكروان والعصافير والبلابل، ولكن من الغريب أن يكون الشاعر عاشقا للنحل والدجاج.

وهذه الحالة الغريبة هي حالة الشاعر الكبير أحمد زك يأبوشادي الذي ألقينا بعض الأضواء علي حياته في الأسبوع الماضي، ودعونا إلي الاحتفال بذكراه الأربعين، وهذا الاحتفال هو مسئولية وزارة الثقافة والمجلس الأعلي للثقافة وهيئة الكتاب، وهيئة قصور الثقافة، والمطلوب هو احتفال له جدواه، يقوم أساسا علي نشر أعمال هذا الشاعر الأدبية والعلمية لأهميتها وقيمتها وقدرتها علي التأثير في عقلية الأجيال الجديدة التي لا تكاد تعرف شيئا مذكورا عن هذا الشاعر وأعماله المختلفة.

ونتوقف لنتساءل: هل يجوز للشاعر الفنان أن يهتم بالعلوم والأمور العلمية؟ وهل يمكن أن تلتقي العبقرية الفنية مع العبقرية العلمية في شخص واحد؟.. لن أجيب علي هذا السؤال إجابة نظرية، وسأكتفي بالإشارة إلي عبقريتين من عباقرة الفن

(١) المصور ١١/ ٢/ ١٩٩٥ عاشق النحل والدجاج.

العالمي، والعبقرية الأولي تتمثل في الشاعر الألماني الكبير جيته «١٧٤٩ - ١٨٣٢»، فهو واحد من أكبر شعراء العالم وأدبائه، قد كان في الوقت نفسه من كبار العلماء في عصره، وكان يقضي الكثير من وقته في المعامل وإجراء التجارب المختلفة، وله في المجال العلمي إنجازات مهمة يذكرها له تاريخ العلم ويهتم بدراستها المتخصصون من العلماء. أما النموذج الثاني فيتمثل في شخصية الفنان الإيطالي «ليوناردو دافنشي ١٤٥٢ - ١٥١٩»، فهو من أعظم الرسامين في التاريخ، ولوحته المعروفة «الجيوكندا» أو «الموناليزا» تعتبر من أشهر اللوحات العالمية، وهي موجودة الآن في متحف «اللوفر» في باريس تحت حراسة مشددة خوفا عليها من أن يسرقها أحد أو يمسها بسوء. لقد كان «دافنشي» إلي جانب عبقريته الفنية، عالما بارزا في علوم متعددة منها: الميكانيكا والتشريح والحيوان والنبات، وحاول في عصره اختراع آله يطير بها الإنسان في الجو، وذلك قبل اختراع الطيران بما يقرب من أربعمائة عام.

هذان النموذجان يؤكدان لنا بصورة عملية أن الجمع بين الطبعية الفنية والطبيعة العلمية ليس أمرا مستحيلا، وليس فيه شذوذ ولا غرابة، وإن كنا في ثقافتنا العربية لم نلتفت كثيرا إلي هذا «التأخي» العميق بين الفن والعلم.

وشاعرنا الذي نتحدث عنه وهو الدكتور أحمد زكي أبو شادي «١٨٩٢ - ١٩٥٥» هو نموذج نادر في ثقافتنا العربية المعاصرة، فقد جمع في شخصه بين الفن والعلم والاهتمامات الوطنية والاجتماعية، وبالرغم من أنه كان يعتز بموهبته الشعرية منذ صباه الفاكر إلا أنه اختار أن يدرس الطب ويعتمد في الأدب علي جهوده الخاصة، واختار فرعا من فروع الطب يعتبر من أدق الفروع وأحدثها وهو «البكتريولوجيا»، وتقول موسوعة «المورد» عن هذا العلم :«إنه يعني بدراسة الجراثيم أو البكتريا خاصة من حيث علاقتها بالطب والصناعة والزراعة، وعلم الجراثيم من العلوم

الحديثة، ويمكن القول إنه نشأ مع اختراع المجهر أو الميكروسكوب في أواخر القرن السادس عشر».

وقد سافر شاعرنا أحمد زكي أبوشادي إلي إنجلترا علي نفقة والده سنة ١٩١٢ وكان في العشرين من عمره، وذلك لدراسة الطب، ولكنه لم يقتصر علي الطب، فقد امتد اهتمامه إلي دراسة الجوانب العلمية في «تربية النحل» و«الدجاج»، وبقي في إنجلترا عشر سنوات، وهناك تزوج من سكرتيرته الإنجليزية «آني بامفورد» وهي أم ولده «أمين رمزي» وابنتيه «صفية» و«هدي» والأبناء الثلاثة يعيشون في أمريكا منذ أن هاجر بهم والدهم إلي هناك سنة ١٩٤٦، ولم أجد أي مصدر يمكن أن يتضمن معلومات واضحة عن هؤلاء الأبناء بعد وفاة والدهم سنة ١٩٥٥، ويبدو أنهم اندمجوا في المجتمع الأمريكي وانقطعت علاقتهم بمصر.

وهناك شهادة جميلة في حق «أبوشادي» كتبها الدكتور إبراهيم رشاد أحد رواد الحركة التعاونية في مصر، وذلك بعد لقاء الدكتور رشاد بالدكتور أبوشادي في لندن، وفي هذه الشهادة يقول الدكتور رشاد «مجلة الرسالة التعاونية» عدد مايو ١٩٥٢:

«عرفت «أبوشادي» عام ١٩٢٠ في إنجلترا حيث زرت «منحلا» عصريا في بلدة «بنسون» القريبة من اكسفورد، وقابلت مديره، فقدم لي نفسه باسم «زكي أبوشادي» وكانت معه سكرتيرته التي أصبحت فيما بعد زوجته، وقد تولي إدارة هذا المنحل العظيم بجدارة عن شركة «النحالة العصرية» بإنجلترا حتي أصبح «المنحل» المثالي فيها. وكان لأبي شادي مركز مرموق بين علماء النحالة لا في إنجلترا وحدها بل في العالم أجمع، فكانت بحوثه العلمية دائما موضع التقدير والاهتمام، ويشير الدكتور إبراهيم رشاد بعد ذلك إلي أن «أبوشادي» قد توصل إلي بعض الكشوف العلمية

الدقيقة التي أنقذت «النحل» من أمراض قاتلة لم يعرف أحد سرها قبل اكتشافات «أبوشادي» العلمية المهمة.

وعندما عاد أبوشادي إلي مصر سنة ١٩٢٢ ظل حريصا علي أن يجمع بين هذه الألوان المتعددة من النشاط في مجالات الأدب والطب وتربية النحل والدجاج، وعمل بعد عودته إلي مصر في مستشفيات وزارة الصحة، كما عمل في جامعة الإسكندرية بعد إنشائها سنة ١٩٤٢، كأستاذ في كلية الطب ووكيل لهذه الكلية، وبقي في هذا المنصب الأخير حتي اتخذ قراره بالهجرة من مصر إلي أمريكا سنة ١٩٤٦، بعد أن عاني من صعوبات عديدة، وقد بقي في أمريكا حتي وفاته كما أشرنا سنة ١٩٥٥.

ومن إنجازات الشاعر أحمد زكي أبوشادي في الفترة التي قضاها في مصر بعد عودته من إنجلترا والتي تمتد من ١٩٢٢ إلي ١٩٤٦ أنه أنشأ جمعية «النحالين المصريين» وأصدر مجلة أسماها «مملكة النحل»، وفي هذه المجلة طرح فكرة كان شديد الحماس لها والدفاع عنها وهي تحويل واحة «سيوة» إلي «محطة عالمية للنحالة» وكان يقول إن تنفيذ هذه الفكرة يعود علي مصر في ذلك الوقت، أي منذ ما يزيد علي ستين سنة، بعشرة ملايين من الجنيهات المصرية، وهذه الفكرة لم تجد من يستجيب لها حتي الآن، ولعل الإشارة إليها اليوم تدعو إلي التفكير فيها من جديد، فالملايين العشرة التي توقعها أبوشادي كعائد قومي لمشروعه يمكن أن تصبح الآن مئات الملايين.

وأصدر أبوشادي إلي جانب مجلة «مملكة النحل» مجلة أخري هي «الدجاج» وهي مجلة فريدة من نوعها في تاريخ الصحافة العربية، وقد جعل من هذه المجلة لسان حال جمعية أخري أنشأها هي جمعية «الدواجن المصرية» وكان أبوشادي مؤمنا بأهمية الدجاج والعناية به كجزء أساسي من الثروة المصرية، وكان يري أن الاستهانة

بهذا الجانب من ثروتنا القومية خطيئة كبيرة فالعالم ينتج من الدجاج ثمانية مليارات سنويا.. فأين نحن من هذا الإنتاج، والمصريون عرفوا تربية الدجاج وإنتاجه منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة، وفي مقبرة توت عنخ آمون رسم يمثل «ديكا» مما يدل علي الاهتمام المصري القديم بالدجاج.. أما اليوم فنحن ننظر إلي دعوة الاهتمام بالدجاج علي أنها مسألة طريفة ومثيرة للضحك، ولا نأخذ الأمر بالجدية العلمية المنظمة كما كان ينادي «أبوشادي» في دعوته.

وأنشأ الشاعر «أبوشادي» كذلك مجلة ثالثة هي «مجلة الصناعات الزراعية» حيث كان ينادي بتعميم الصناعات الزراعية في مصر بدلا من الأساليب البدائية القديمة التي أدت إلي نتائج مؤلمة توصل إليها الباحثون، منها «أن الفلاح الواحد في كندا واستراليا يستطيع زراعة مائة فدان لأنه يستخدم الآلات الصناعية الحديثة، أما الفدان الواحد عندنا، فكان يحتاج إلي اثنين من الفلاحين وما يلزمهما من الماشية».

ويقول الشاعر صالح جودت صديق «أبوشادي»: «إن «أبوشادي» كان من كبار المربين للدواجن العالمية، وكانت في حديقة بيته بالمطرية مزرعة فاخرة للدواجن إلي جانب المنحل».

هذه بعض الجوانب من حياة الشاعر الذي كان يعشق النحل والدجاج وكان قبل ذلك يعشق مصر.

كان منهجه هو أن «الشعر» لا يكون بالكلمات فقط. وإنما يزدهر الشعر في بلاد يتحقق فيها العمل المستمر علي النهوض والتقدم، ويكون فيها اهتمام جاد بالتفاصيل الصغيرة، حتي لو كانت هذه التفاصيل هي النحل والدجاج.

إن التفاصيل وحدها هي التي يتكون منها نهوض شامل لأي أمة، وفي أي بلد يوجد

فيها كناسون ممتازون لابد أنه يوجد فيها أيضا وزراء ممتازون ويوجد فيها أدب وفن ورخاء.

ومن الواضح أن منهج الشاعر «أبوشادي» عاشق النحل والدجاج، كان سببا للاستهانة به عند مواطنيه خلال فترة نشاطه الممتدة من ١٩٢٢ إلي ١٩٤٦، فضاقت به الحياة في مصر وهاجر إلي أمريكا.

أما الآن.. فمن واجبنا أن نعيد النظر في شخصية هذا الشاعر وأدبه ومنهجه في العمل الفني والعلمي والوطني.. والمناسبة متاحة، فقد مر علي رحيله الآن أربعون عاما، فهل نحتفل به ونعيد نشر أعماله المختلفة، أو نواصل مسيرة الاهمال والاستهانة بهذه الشخصية النابغة والمضيئة في تاريخنا الثقافي والوطني؟!



ويستعيد صديقه د. مختار الوكيل وأحد شعراء جماعة «أبوللو» بعض ذكرياته عنه، فيقول:[1]

عجبا كيف تمضي السنون سراعا، أحقا مضي ربع قرن علي رحيل الدكتور أحمد زكي أبوشادي عن عالم الأحياء؟

هكذا تقول لنا الأرقام! لقد ولد أبوشادي عام ١٨٩٢ بالقاهرة وكان أبوه المحامي الأديب الضليع محمد بك أبوشادي أحد أقطاب الحركة الوطنية إبان الثورة المصرية عام ١٩١٩، ومن أصدقاء الزعيم سعد زغلول.

ولقد تربي أبوشادي وترعرع في جو من العلم والأدب والشعر، وشهد بناعته كبار الشعراء والأدباء يسمرون مع والده الأديب الكبير في داره، بل لعله اشترك

(١) الجمهورية: ٨ أبريل ١٩٨٠/ شاعر الغناء والضياء.

معهم في مناقشاتهم واسمارهم، رأي خليل مطران وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي وجمهرة كبيرة من العلماء والأدباء والصحفيين والساسة.

ونظم الشعر وهو دون العشرين لأنه أحد إحدي كرائم الفتيات، ولكنه صدم في غرامه، كما واجه أزمات عاطفية ونفسية قاسية وهو بعد في شرخ الصبا، ثم سافر إلي إنجلترا لدراسة الطب وهو في العشرين من عمره، وأتقن اللغة الإنجليزية وأجادها إجادة تامة، فكان من خير الذين وقفوا علي أسرارها وأدابها وعلومها.

عاد أبوشادي عام ١٩٢٢، وقد تجلت مواهبه الرائعة متعددة الجوانب، واسعة المعرفة غزيرة الإطلاع، وكان قد تخصص في (البكترولوجيا) فصار من الناحية العلمية طبيبا معمليا.

ولكنه جمع إلي عمله المعملي، نشاطه الرائع في عالم (النحالة) فقد كان السكرتير العام لجماعة (النحالة) الدولية وهو بعد في شرخ الشباب.

وامتاز أبوشادي منذ شبابه الأول بإنتاجه الشعري والأدبي الواسع، الذي تجلي في دواوينه الشعرية الباكرة المجددة مثل (الشفق الباكي ١٩٢٦) و(أشعة وظلال ١٩٢٨) و(الشعلة ١٩٣٣) و(فوق العباب ١٩٣٥)، وغيرها من القصائد الرومانسية والوصفية والقصصية، ولقد كان أبوشادي من أوائل الشعراء الذين نظموا (الأوبرات) وكان له باع طويل في توجيه الذوق الأدبي العام نحو المسرح والأوبرا بصفة خاصة.

وكان أهم أحداث حياة أبوشادي العريضة هو دون ريب إصداره مجلة «أبوللو» ١٩٣٢، فقد كانت ميدانا رحبا لإنتاج الشعراء الشبان الذين وهبوا الشعر أجمل ما جادت به قرائهم المجددة. ولقد أظهرت مجلة «أبوللو» أروع المواهب الشعرية في

مصر والعالم العربي قاطبة.

لقد سجلت مجلة «أبوللو» شعر شوقي والعقاد وخليل مطران وأحمد محرم وحافظ إبراهيم ومعروف الرصافي والزهاوي وبشارة الخوري، وكانت السبب المباشر في إظهار نبوغ علي محمود طه والدكتور إبراهيم ناجي وأبوالقاسم الشابي ومحمد الهمشري وصالح جودت وحسن الصيرفي وسهير القلماوي وعامر نجدي وجميلة العلايلي وطاهر أبوفاشا ومحمود حسن إسماعيل وأحمد فتحي ومحمد الأسمر وعادل الغضبان وفخري أبوالسعود وكاتب هذه السطور وغيرهم وغيرهم، فقد كانت «أبوللو» بحق سجلا لنهضة الشعر العربي بخاصة والأدب العربي بعامة في أوائل العقد الثالث من هذا القرن.

ولو علمنا أن قيام جماعة «أبوللو» كان جهدا شخصيا لم يستعن بحكومة أو بنظام رسمي لازداد انبهارنا وتعاظم تقديرنا لذلك الرجل العجيب الفذ أحمد زكي أبوشادي الذي استطاع بفضل من الله أن يحدث ثورة أدبية عارمة في الثلاثينيات ما كان يستطيع عدد كبير من الأدباء والعلماء الفحول أن يحققوها مجتمعين ومتعاونين.

ولقد امتاز أبوشادي بروح متصوفة مخلصة صادقة وإني لأكتب هذه السطور بعد مرور ربع قرن علي وفاة أبوشادي في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة.

وأني لأذكر الآن كيف اضطر أبو شادي إلي مهاجرة وطنه الحبيب في أواخر عمره بعد أن أصيب بخيبة أمل، لقسوة النقد الذي وجه إليه من معارضيه الذين كانوا لا يألون جهدا في توجيه أبشع الافتراءات واعتي الانتقادات وامعنها ظلما إلي ذلك المتصوف النادر المثال.

ولا شك أن هجرة أبوشادي إلي أمريكا وقعت في فترة سادت فيها الاضطرابات

وإعوجاج المقاييس حياة مصر السياسية قبل قيام الثورة عام ١٩٥٢، ولقد أقام أبوشادي في الولايات المتحدة حتي وافته المنية عام ١٩٥٥ ودفن في نيويورك.

وكم أتمني لو أن وزارة الثقافة تولت نقل جثمانه الطاهر إلي مقبرة تقيمها في مصر لإعلام الأدباء والعلماء ورجال الثقافة والفن، حتي يحج إليها لاشباب، ويعكفوا علي دراسة حياة أولئك الأبطال الذين وهبوا كل ما يملكون من مواهب عبقرية لوطنهم الحبيب، وكانوا دون شك وراء ذلك البعث الثوري العظيم الذي تحقق بقيام الثورة المصرية، ثم انطلاق ثورة التصحيح العظيمة التي قادها رئيسنا الأديب العالم المؤمن محمد أنور السادات.

وأعود إلي أبوشادي الشاعر لأقول إنه قلما اختلفوا حول شاعر مثلما اختلفوا بشأن أبي شادي.. فقد تضاربت الآراء وتفاوتت حوله فقوم يقررون شاعريته ويقولون إنه من أقدر شعراء الجديد، وقوم آخرون ينكرون عليه هذه الشاعرية ويزعمون أنه لا يراعي حرمة اللغة العربية الشريفة، ولا يحافظ علي رونق الديباجة العربية.

ولقد وهبت الطبيعة شاعرنا شعورا رقيقا وخلقا رضيا، ولقد أخذ عن أستاذه مطران الحرص علي الدقة في تصوير المعني، وأخذ عنه عنايته الفائقة بالناحية القصصية في الشعر العربي التي بعثها مطران وتوسع فيها أبوشادي ولكنه استقل وامتاز عن أستاذه مطران بتلك الروح الصوفية الرائعة وبقلبه العالمي الكبير وبحبه الشامل للطبيعة وما فيها من مفاتن ومباهج.

ولقد كان أبوشادي يميل إلي التصوف ويعتنقه مذهبا وفي ذلك يقول:

سئمت كل غروري استعز به   واستقت مايشتهي الصوفي من زمني!

ويقول وهو يحاول مخلصا أن يتطهر من أدران الجسد في حالة شاذة من حالاته الصوفية:

ارســلــت روحـــي حــرة   بــين الأغـــاني والـضـيـاء
حــتـــي أراهـــــا مـــرة   تحـيـا حـيـاة الأنـبـيـاء!

ولقد اتخذ أبوشادي من شعره عزاء له ومثوي كما في قوله:

نـعـم مـنـفـاي أشـعـاري   ومـلـقـي الـنـور والـنـار
كــأني مــذ ولـــدت حييت   في يــقــظــات جــبــار!

هذه كلمة سريعة عن أبي شادي مفجر النهضة الشعرية الحديثة في العالم العربي، اكتبها اليوم في ذكري مرور ربع قرن علي رحيله عن عالمنا الفاني، راجيا أن أعود إليه مفصلا في مجال آخر حتي يقف شباب الثمانينيات في مصر علي حياة ذلك الثائر العظيم المتعدد الجوانب في الطب والعلم والنحالة والشعر.

أسرة أبوشادي

عاش «أبوشادي» في منفاه الاختياري في نيويورك بأمريكا مع أولاده صفية، وهدي، ورمزي منذ هجرته إليها في مايو عام ١٩٤٦ حتي وفاته في ١٩٥٥ وتزوج رمزي من سيدة أمريكية وتزوجت هدي من طبيب أمريكي هو ميريل جارنت أما ابنته صفية أبوشادي (١٩٢٣ - ٢٠١٣) فقد عاشت وفية لأبيها وعكفت علي نشر تراثه الأدبي المخطوط الذي تركه وكانت دائبة الاتصال بصديق والدها الأديب الباحث وديع فلسطين (مواليد ١٩٢٢) وسلمته أصول دواوينه الأربعة المخطوطة لنشرها وهي «الإنسان الجديد» و«النيروز الحر» و«من أناشيد الحياة» و«إيزيس» وظلت محافظة علي عقيدتها الإسلامية حتي توفت في ولاية فيرجينيا الأمريكية في شهر نوفمبر ٢٠١٣ وأوصت بأداء المراسم الإسلامية عند وفاتها بخلاف أخيها رمزي وأختها هدي، فكانت هي الأبنة المخلصة الوفية لذكري أبيها، كما ظلت متمسكة بعقيدتها الإسلامية وأخلاقها ووطنيتها المصرية ولم تتزوج في ديار الغربة لتمسكها بعقيدتها وعدم موافقتها علي التزوج بأجنبي.



وقد أورد الناقد رجاء النقاش رسالة وصلته من السيدة صفية أحمد زكي أبوشادي الابنة الكبري للشاعر تلقي فيها الأضواء علي أسرته وكيف تفرقت بهم السبل وذلك في مقالة عن أسرة الشاعر أبوشادي، وذلك تعليقا علي ما سبق وكتبه

عن الشاعر أحمد زكي أبوشادي وجهوده وتجاهله في نفس الوقت، يقول:[1]

كتبت في عدد سابق من المصور عن الشاعر الكبير أحمد زكي أبوشادي (١٨٩٢ - ١٩٥٥)، والذي هاجر من مصر إلي أمريكا مع أسرته سنة ١٩٤٦، وطالبت المؤسسات الثقافية بالاحتفال بذكراه الأربعين، وقلت إنني لم استطع أن أعرف شيئا عن مصير أسرته بعد هجرته.

أما دعوتي للاحتفال بذكراه فلم تجد صدي عند أي مؤسسة ثقافية حتي الآن، أما حديثي عن أسرته ومصيرها في أمريكا فقد كان له صدي كريم سعدت به سعادة بالغة، فقد تلقيت من السيدة «صفية» الأبنة الكبري للشاعر «أبوشادي» رسالة تحدثني فيها عن أسرة الشاعر وعن وضعها الراهن في أمريكا. وهذه الرسالة مفيدة جدا للباحثين والدارسين الذين يهتمون بحياة «أبوشادي» وأدبه، كما أنها مفيدة أيضا للباحثين في شئون المجتمع المصري، خاصة بالنسبة لظاهرة «الهجرة» من مصر، وهي ظاهرة حديثة لم يعرفها مجتمعنا من قبل بالصورة الراهنة، ولابد لنا جميعا أن نفكر كثيرا في ظاهرة الهجرة إلي المجتمعات المتقدمة، فالذين يقومون بهذه الهجرة يكونون في العادة من أكبر «الكفاءات» النادرة في مصر حيث كان من الشعراء المجددين الرواد الذين كافحوا طويلا لفتح آفاق جديدة للشعر العربي وإخراجه من الأسوار الضيقة التي كانت تحاصره علي مدي قرون عديدة، ولكن «أبوشادي» لم يكن شاعرا مجددا فقط، بل كان طبيبا وعالما ورائدا اجتماعيا من الطراز الأول في مجال التعاون وكانت له جهود متميزة جدا في مجال «النحل» و«الدجاج» وهو ما حاولت أن أشرحه في مقالاتي السابقة عنه.

وخلاصة القول في هذا الرجل العظيم أنه كان مجاهدا وطنيا كبيرا اعتمد علي

(١) المصور ٢٨/ ٤/ ١٩٩٧ أسرة الشاعر أبوشادي.

علمه وثقافته وحماسته وإخلاصه في الدعوة إلي تجديد المجتمع في مصر وتقدمه والنهوض به إلي مستوي العصر الحديث.

ولكن جهود «أبوشادي» لقيت مقاومة شديدة ومشاكل عنيفة انتهت به إلي نوع من الاحباط والشعور بالاغتاب في بلده، فقرر الهجرة إلي أمريكا مع أسرته، وبقي فيها حتي وفاته منذ أربعين سنة، أي في عام ١٩٥٥.

وقد تكون الهجرة من مصر إلي البلاد المتقدمة حلا للمشاكل الخاصة التي يعاني منها «النابغون»، ولكنها ولا شك تعتبر خسارة كبيرة لبلد مثل مصر يحاول أن يتقدم وينهض ويحتاج في ذلك أول ما يحتاج إلي جهود أبنائه المتفوقين في ذكائهم وعلمهم وقدراتهم المختلفة، ومما يؤسف له أن النابغين عندما يهاجرون فإن الظروف تفرض عليهم في كثير من الحالات اقتلاع كل ما لهم من جذور في وطنهم الأصلي، فيضطر أبناؤهم إلي الذوبان في المجتمعات الجديدة حيث يبتعدون بالتدريج ابتعادا كاملا عن بلادهم الأولي.

ورغم أنني أحد المؤمنين بل والمتحمسين لقيام هجرات كثيفة واسعة من مصر في ظروفها الراهنة، بعد أن شاق بهم الوادي، وازدحمت بهم أرضهم المحدودة، إلا أنني أشعر أن خروج النابغين من مصر نهائيا هو بمثابة تهريب ثروة قومية أساسية تحتاج إليها البلاد أشد الاحتياج. ولذلك فأنا ادعو إلي التمسك بهؤلاء النابغين ومساعدتهم بكل الوسائل علي البقاء في أرضهم حتي يتحملوا مسئوليتهم في نهضة بلادهم وحل مشاكلها الجوهرية.

وأعود بعد هذه الخواطر المتفرقة إلي رسالة السيدة «صفية أبوشادي» والتي تعطينا صورة دقيقة عن مصير أسرة والدها الشاعر الكبير والمجاهد النابغ العظيم.

وهذا هو نص الرسالة:

«عزيزي - بعد التحية - أود أن أشكرك علي كلمتك الصادقة والطيبة عن المرحوم والدي أحمد زكي أبوشادي التي ظهرت في مجلة المصور «في عددها بتاريخ ١٠ فبراير ١٩٩٥» والتي وافاني بها زميل مصري في إذاعة «صوت أمريكا»، ولم أطلع للأسف علي مقالك الأول، وسرني أنك تناولت جانبا من نشاط والدي قلما يتناوله المعلقون إلا بإشارة عابرة، رغم أن اهتمامه بالنحالة «أي النحل» لم يقل عن اهتمامه بالأدب والشعر.

وقد لفت نظري في مقالك المشار إليه قولك إنك لم تجد «أي مصدر يتضمن معلومات واضحة عن أبنائه، ويبدو أنهم اندمجوا في المجتمع الأمريكي وانقطعت علاقتهم بمصر».

وقد كان ذلك حافزا لي علي أن أوافيك ببعض المعلومات عن أبناء الشاعر أحمد زكي أبوشادي وطيه قصاصة «مرفقة بالرسالة» عن «رمزي» ونشاطه خلال ٣٦ عاما من الخدمة في سكرتارية الأمم المتحدة حتي تقاعده سنة ١٩٨٦. وهو يقيم حاليا مع زوجته الأمريكية في منزلها الريفي بولاية «بنسلفانيا» وقد أنجبا ثلاثة أبناء هم: ابنة اسمها «أندريا راندا» متزوجة ولها طفلة أوشكت أن تتم عامه الثالث، و«أندريا» مغنية أوبرا وقد زارت مصر في الثمانينيات، و«مارك أمين» ويعمل في مؤسسة «روكفلر» في نيويورك، و«رمزي رولاند» وهو متزوج من أمريكية، وأنجب ولدا اسمه «الكسندر زكي أبوشادي» أتم عامه الثاني في الشهر الماضي، ويعمل «رولاند» في شركة للاستشارات في فلوريدا. والقصاصة الثانية «مرفقة بالرسالة أيضا» وهي عن «هدي أبوشادي» التي اشتغلت في القنصلية السورية بعد أن أتمت تعليمها الثانوي، وانتقلت بعد ذلك إلي البحرية الأمريكية ثم تزوجت طبيبا أمريكيا سنة ١٩٥٦ وأنجبت ابنة تدعي «جوي أمينة» تخرجت في معهد الفنون الجميلة في باريس

بدرجة «ماجستير» وتعمل حاليا في متحف «المترو بوليتان» بنيويورك، وشقيقها «ويد أحمد» متخصص في العلوم الطبيعية والكيمياء في إحدي جامعات «لونج أيلاند»، ويساعد والده في معمل الأبحاث بجامعة «ستوني بروك» حيث يجري زوج هدي أبحاثا للتوصل إلي علاج لداء السرطان «وقد أحرز نجاحا كبيرا في هذا المجال إذ يجري اختبار علاجه حاليا في كل من كندا والمكسيك ريثما تصدر الجهة المسئولة في واشنطن الموافقة علي استخدامه في الولايات المتحدة».

وقد تفرغت هدي هدي للتصوير الفوتوغرافي، ونالت جوائز عديدة في المسابقات التي اشتركت فيها، كما أنها تقوم بتدريس التصوير الفوتوغرافي وفي الوقت ذاته تسعي إلي نيل درجة الماجستير، وكانت آخر زيارة لها إلي مصر سنة ١٩٨٣ مع ابنتها «جوي أمينة» التي كانت تدرس اللغة العربية في الجامعة الأمريكية خلال فصل الصيف.

أما بالنسبة لي، فقد كانت أول تجربة لي في العمل بجريدة «الهدي» العربية التي كانت تصدر في مدينة «نيويورك» وذلك في يونيو عام ١٩٤٦، ثم التحقت بالوفد السعودي لدي الأمم المتحدة في سبتمبر من العام ذاته وعينت سكرتيرة خاصة لسمو الأمير فيصل آل سعود.

وكانت مهمتي الرئيسية هي ترجمة المقالات التي تتناول القضايا العربية في أمهات الصحف الأمريكية التي تصدر في نيويورك لكي يطلع عليها سمو الأمير فيصل. وانتقلت في يناير ١٩٤٧ إلي السفارة السعودية في واشنطن حيث بقيت لمدة اثني عشر عاما بصفة سكرتيرة عربية للسفير السعودي، تخللتها فترة أخري في خدمة الأمير فيصل خلال دورة سبتمبر سنة ١٩٤٧. كما واصلت دراستي الجامعية ليلا بجامعة «جورج واشنطن» حيث تخصصت في علم النفس والأدب الإنجليزي. وفي عام ١٩٥٩ بدأت العمل في قسم الإذاعة العربية بصوت أمريكا، وتدرجت في

الوظائف من مترجمة إلي رئيسة قسم الإذاعة الموجهة إلي شمال أفريقيا، وتقاعدت بعد خدمة ٢٥ عاما نظرا لاعتلال صحتي نتيجة إصابتي بروماتيزم المفاصل الحاد.

وكانت آخر زيارة لي إلي وطني مع رمزي وزوجته في عام ١٩٨٥ في رحلة نظمها قسم الرحلات بالأمم المتحدة لزيارة مصر وآثار الأقصر وأسوان. وقد سبق لرمزي وزوجته أن زارا مصر في رحلة سابقة. كما كنت أزور بلادي بمعدل مرة كل عامين سابقا.

ختاما، أرجو ألا أكون قد أطلت الحديث عن حياة أبناء أحمد زكي أبوشادي ونشاطهم، وقد حاولت الاختصار قدر الإمكان. ومرة أخري أكرر شكري علي مقالك المثير للاهتمام في مجلة المصور ولك أطيب التمنيات - المخلصة «صفية أبوشادي».

وأنا أشكر الأستاذة صفية أبوشادي أخلص الشكر علي رسالتها القيمة التي لا أشك في أنها سوف تكون مفيدة إلي أبعد حد لكل الباحثين والدارسين لحياة والدها العظيم وكفاحه الأدبي والاجتماعي.

وبمناسبة ما كتبته عن «أبوشادي» فقد وقعت في خطأ نبهني إليه أستاذي الكبير «عمر المارية» المحامي وصديقي المؤرخ الفنان صلاح عيسي، وذلك عندما قلت نقلا عن الأستاذ صالح جودت إن «محمد أبوشادي» والد الشاعر أحمد زكي أبوشادي كان أول نقيب للمحامين في مصر، والمعلومات الصحيحة هي:

١ - أول نقيب للمحامين في مصر كان إبراهيم الهلباوي في أول نقابة للمحامين أنشئت سنة ١٩١٢.

٢ - اشترك في أول انتخابات لأعضاء مجلس نقابة المحامين ٣٣٣ محاميا، نال إبراهيم الهلباوي من أصواتهم ٣٠٧ أصوات بينما نال عبدالعزيز فهمي ٢٦٩ صوتا وجاء ترتيب محمد أبوشادي الثامن ونال ١٤٩ صوتا وبعد ذلك انتخب أعضاء

مجلس النقابة إبراهيم الهلباوي بالإجماع نقيبا للمحامين.

٣ - أصبح محمد أبو شادي نقيبا للمحامين سنة ١٩٢٤ وكان النقيب الثالث عشر، ولم يكن النقيب الأول كما ورد خطأ في مقالي السابق.

٤ - مصدر هذه المعلومات هو كتاب «المحاكم المختلطة والمحاكم الأهلية» للأستاذ عزيز خانكي ولم يذكر المؤلف سنة تأليف الكتاب، والكتاب قيم جدا ومليء بالمعلومات التفصيلية عن نشأة نقابة المحامين وتطورها.

***

هكذا كان مصير أسرة أحمد زكي أبوشادي في ديار الغربة في أمريكا بعد هجرة الشاعر إليها عام ١٩٤٦ لم يعد منهم سوي الأبنة صفية التي حافظت علي دينها ولغتها وجنسيتها المصرية، وظلت حتي آخر لحظة في حياتها تهفو إلي مصر ونحن إلي كل بقعة فيها.

تراث أحمد زكي أبوشادي الشعري والنثري

أصدر أحمد زكي أبوشادي في حياته أكثر من عشرين عملا شعريا ما بين ديوان شعري أو أوبرا شعرية أو قصة شعرية ما بين عامي ١٩١٠ و١٩٤٩ منها ما أصدره في طبعات خاصة بنسخ محدودة ليهديها لأصدقائه المقربين ومعظمها لم يودعها في دار الكتب المصرية وبعض هذه الدواوين طبع بعد وفاته بواسطة بعض أصدقائه ومحبيه.

ويمكن إجمال تراثه الشعري الذي صدر في العناوين التالية:

١ - ديوان أنداء الفجر (١٩١٠).

٢ - ديوان زينب (١٩٢٤).

٣ - مصريات (١٩٢٤).

٤ - الشفق الباكي (١٩٢٤).

٥ - مفخرة رشيد (١٩٢٥).

٦ - أنين ورنين (١٩٢٥).

٧ - شعر الوجدان (١٩٢٥).

٨ - وطن الفراعنة (١٩٢٦).

٩ - المنتخب من شعر أبوشادي (١٩٢٦).

١٠ - الآلهة (١٩٢٧) - أوبرا رمزية.

١١ - إحسان (١٩٢٧) - أوبرا موسيقية.

١٢ - إخناتون (١٩٢٧) - أوبرا تاريخية.

١٣ - أردشير وحياة النفوس (١٩٢٧).

١٤ - الزباء ملكة تدمر (١٩٢٧) - أوبرا تاريخية.

١٥ - مها (١٩٢٧) وحي قصة شعرية.

١٦ - عبده بك (١٩٢٧) - قصة اجتماعية شعرية.

١٧ - مختارات وحي العام (١٩٢٨).

١٨ - رباعيات عمر الخيام (١٩٣١).

١٩ - عمريات الخيام عن فيتزجيرالد (١٩٣١).

٢٠ - أشعة وظلال (١٩٣١).

٢١ - الشعلة (١٩٣٣).

٢٢ - أطياف الربيع (١٩٣٣).

٢٣ - أغاني أبو شادي (١٩٣٣).

٢٤ - الينبوع (١٩٣٤).

٢٥ - الكائن الثاني (١٩٣٥).

٢٦ - فوق العباب (١٩٣٥).

٢٧ - ديوان الريف (١٩٣٥).

٢٨ - عودة الراعي (١٩٤٢).

٢٩ - من السماء (١٩٤٩).

٣٠ - الإنسان الجديد (١٩٨٣).

٣١ - النيروز الحر (١٩٨٨).

٣٢ - من أناشيد الحياة وإيزيس (٢٠٠٠» - بيروت.

مؤلفاته النثرية (صدرت في حياته وبعد رحيله)

١ - من نافذة التاريخ.

٢ - الطبيب والمعمل.

٣ - مملكة العذاري.

٤ - قضايا الشعر المعاصر.

٥ - أبوشادي في المهجر.

٦ - لماذا أنا مسلم؟

٧ - دراسات أدبية.

٨ - دراسات إسلامية.

٩ - نكبة نافارين.

١٠ - عقيدة الألوهة.

١١ - شعراء العرب المعاصرون.

١٢ - الإسلام الحي.

١٣ - عظمة الإسلام.

١٤ - إنهاض تربية النحل في مصر.

محمد رضوان

- ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية - محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨.
- حصل علي ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل صحفيا بمجلة الهلال ١٩٧٣.
- عضو نقابة الصحفيين - عضو اتحاد كتاب مصر (جوال: ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤).
- من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت - أنيس منصور - أحمد عبدالمجيد - عبد العليم القباني - د. مقداد ياجن - كمال نشأت - فاروق شوشة - محمد إبراهيم أبوسنة - حسن فتح الباب - د. ماهر شفيق فريد - د. يوسف نوفل).
- له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسية، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦ - ١٩٧٧)، (١٩٩٢ - ١٩٩٤)، ومديرا لتحرير مجلة (النهضة) السياسية (١٩٨٢ - ١٩٩٣).
- ابتدع لنفسه منهجا أدبيا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي، ولعل بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج، فوصفه السفير الشاعر أحمد عبدالمجيد (حين يتولي محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء

نراه يدلف إلي روحه ويتسرب إلي حياته وما اضطرب فيها من حال إلي حال، ويتشح برداء عصره الذي عاشه، ويبتنسم ما كان يستنشقه، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدي).

- له أكثر من عشرين كتابًا في أدب السير منها: صفحات مجهولة من حياة زكي مبارك - مأساة شاعر البؤس: عبدالحميد الديب - اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي - شاعر الأطلال ناجي - شاعر الجندول علي محمود طه - شاعر النيل والنخيل: صالح جودت - عندما يحب الشعراء - شعراء الحب - شاعر الروابي الخضر: حمد خميس - شاعر الهمسات: أحمد عبدالمجيد - اعترافات السندباد المصري.
- قام بجمع وتحقيق ودراسة:

- ديوان شاعر البؤس، عبدالحميد الديب (المجلس الأعلي للثقافة) القاهرة ٢٠٠٠.
- ديوان شاعر الكرنك، أحمد فتحي (منشورات سندباد الشعر).
- ديوان شاعر الجندول، علي محمود طه (هيئة قصور الثقافة) القاهرة ٢٠١٠.
- ديوان شاعر الحب، صالح جودت (مكتبة جزيرة الورد) القاهرة ٢٠١٢.

مؤلفات محمد رضوان الصادرة عن «مكتبة جزيرة الورد»

١ - عندما يحب الشعراء.

٢ - لكل عاشق حكاية.

٣ - أحمد فتحي شاعر الكرنك.

٤ - ظرفاء وصعاليك.

٥ - اعترافات السندباد المصري.

٦ - شاعر الشراع التائه، أحمد فتحي.

٧ - صالح جودت، شاعر الحب والحرية.

٨ - كامل الشناوي، شاعر الحب.

٩ - شعراء رباعيات الخيام.

١٠ - شعراء البحر.

١١ - صالح جودت كاتبًا.

١٢ - شاعر الهمسات، أحمد عبدالمجيد.

فهرس المحتويات